

شراء عبد القيس

في العصر الجاهلي

جمع وتحقيق ودراسة

د. عبد الحميد المعيني

أشرف على طباعة هذا الكتاب وراجعته الباحث
بمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

إيهاب النجدي

الصف والإخراج والتنفيذ:

محمد العلي

أحمد متولي أحمد جاسم

حقوق الطبع محفوظة للمؤسسة

تلفون : 2430514 فاكس : 2455039 (00965)

E-mail < babtainprize@hotmail.com >

2 0 0 2

تصدير..

يأتي هذا الكتاب ليكمل لوحة إصدارات الدورة الثامنة ، وليصل حلقات التاريخ بعضها ببعض ، فلا يبدو شاعرها المحتفى به «علي بن المقرب العيوني» شجرة وحيدة بلا جذور ، بل هو ابن بيئته التي رعت الشعر منذ بواكيره الأولى ، ومن منطقة أنبتت رهطاً من الشعراء ، أسهموا بفيض عذب في جداول الشعر العربي عبر تحدرها فوق هضاب التاريخ .

و«شعراء عبد القيس في العصر الجاهلي» دراسة وديوان ، نتعرف من خلال الدراسة على تلك القبيلة العربية الأصيلة من نواح عدة : نسبها ومنازلها وحياتها الاجتماعية والاقتصادية والدينية وصلاتها الخارجية ، ويبقى من كل ذلك - في تصوري - دورها الجليل في إكساب منطقة الخليج وجهها العربي . أما الديوان فجمع في إهابه قصائد ومقطوعات أكثر من ثلاثين شاعراً من شعراء قبيلة عبد القيس في العصر الجاهلي ، مع التطواف حول هذا الديوان - الذي يطبع للمرة الأولى - لدرس موضوعاته في الحرب والسلام والموت والحياة وملامحه الفنية المميزة ، كما يأتي شاعر عبد القيس الفذ «المتقّب العبدى» نسيج وحده فناً وحكمة ، ومن هنا استأثرت حياته وشعره بجزء خاص في هذا الكتاب ، وما هو بكثير على رجل السلام الذي نجح في سفارته لدى النعمان ابن المنذر ملك الحيرة فأطلق سراح كل الأسرى العبيدين وحقن دماء القبيلة ، وكان - أيضاً - ممن قاموا بالصلح بين بني بكر وبني تغلب بعد حرب البسوس ، وقبل ذلك كله هو صاحب النونية التي قال فيها أبو عمرو بن العلاء : « لو كان الشعر مثلها لوجب على الناس أن يتعلموه » ، وهتف من أجلها طه حسين : « هذا الشعر من أروع ما قاله الناس » :

أفَاطمُ ، قبلَ بيْنك ، متَّعيني
ومنَعك ما سألتُ كأنَّ تبيني

فلا تعدي مواعِدَ كاذباتٍ
تمرُّ بها رياحُ الصيفِ دوني
فإني لو تُخالفني شمالي
خلافك ، ما وصلتُ بها يميني

وهكذا توالى شعراء عبد القيس في الظهور خلال العصور المختلفة ، فكان من أشهر شعرائها «علي بن المقرب العيوني» الشاعر الذي تحمل هذه الدورة اسمه .

وقد سبق للمؤسسة أن نشرت ضمن إصدارات دورتها الثالثة عام ١٩٩٢ كتاب الدكتور نفوسة زكريا «البارودي - حياته وشعره» الذي ظل مخطوطاً منذ عام ١٩٥٢ ، وفي الدورة السادسة ١٩٩٨ أصدرت كتاب «الأخطل الصغير - سيرته وأدبه» بعد ثمانية وعشرين عاماً من إنجازهِ كرسالة علمية في العام ١٩٧٠ . واليوم تمضي المؤسسة على سنتها فتصدر هذا الكتاب الذي بقي حبيس الأدراج مدة ستة وعشرين عاماً ، وكان في أصله رسالة ماجستير قُدمت إلى جامعة القاهرة عام ١٩٧٦ م .

وإذ أعبر عن سعادتي بهذا الإصدار - وهو يرى النور للمرة الأولى - فإنني أتوجه بالشكر إلى الأستاذ الدكتور عبد الحميد المعيني على جهده الطيب ، والشكر موصول للباحث في الأمانة العامة للمؤسسة الأستاذ إيهاب النجدي الذي راجع الكتاب وأعدّه للطبع .

والحمد لله من قبل ومن بعد،

عبد العزيز سعود البابطين

الكويت في ٢٠٠٢/٧٣٠

المقدمة

هذا البحث محاولة لدراسة شعراء عبد القيس في العصر الجاهلي، وعبد القيس قبيلة عربية ينتهي نسبها إلى ربيعة التي تنحدر من العرب العدنانيين، وكانت منازلها في المنطقة الممتدة بين الدهناء غرباً، وشواطئ الخليج العربي شرقاً على طول امتداد تلك الشواطئ من البصرة شمالاً إلى عمان جنوباً، وعرفت هذه الرقعة الجغرافية قديماً باسم البحرين، وهي تشمل الآن دولة الكويت ودولة البحرين ودولة قطر ودولة الإمارات العربية المتحدة، والأحساء والمنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية.

وكانت بلاد عبد القيس بحكم موقعها الجغرافي مرفأً حياً، وملتقىً نشيطاً بين الشرق والغرب، وشهدت صلات تجارية وثقافية، كما عرفت أنماطاً اجتماعية خاصة نتيجة هذه الصلات، واهتم العبيدون بالزراعة ومهروا في الملاحة وتفوقوا في الصناعة وكانت لهم علاقات مع الأمم المجاورة وصلات مع القبائل المتاخمة.

وأنجبت عبد القيس عدداً من الشعراء يربو على ثلاثين شاعراً يقف في مقدمتهم المثقب العبدى أشهر شعراء القبيلة ورجل السلام فيها، وكان في شعرهم خصائص وسمات جعلت منه لوناً مميزاً جمع بين البحر والصحراء وبين الحرب والسلام، وجنح إلى الفكر والمعرفة وتناول نظراتهم في الموت والحياة واستطاع الشعراء أن يعبروا بصدق وأمانة عن البيئة الحضارية والمناطق الصحراوية واشتركوا اشتراكاً فعالاً في مختلف القضايا التي شغلت قبيلتهم وساهموا بجهود كبيرة في الدفاع عن الأرض العربية ضد الفرس ورفضوا بإباء وشمم حكم الحيرة، ولئن فشلت ثورة الشعاعيين الشنينيين يزيد وسويد فقد نجحت سفارة المثقب في إحلال السلام بين المناذرة والعبيدين.

ولم أقدم على هذه الدراسة إلا بعد أن وضح لي أنه أثر عن العرب دواوين لقبائلهم تفرقت في كتب مستقلة وتوزعت في مصادر كثيرة ويعد أن عرفت أن شعراء القبيلة

الواحدة يخضعون في أغلب الأحيان لمناخ واحد ويصدرون عن عادات معروفة، ويسيرون على تقاليد معينة وينهجون منهجاً مبيناً.

ونحن نعرف أن القبائل رفعت راية مدينة الشعر وأن الشعراء كانوا فرسان الكلمة وأرباب الفكر والثقافة في تلك المدينة يتغنون بأمجاد قبائلهم، ويذيعون مفاخرها ويعلون من شأنها، وينالون من خصومها، وكانت أفراحهم ومفاخرهم تجسداً لأمانيتها ومطالبها وكانت همومهم صورة من همومها وواقع حياتها.

وكانت تلح على نفسي وتجول في صدري خواطر المعرفة للقبائل التي عاشت على تلك الرمال المترامية على امتداد ضفاف الخليج العربي قبل أن تشرق الجزيرة بنور ربها، فتعرفت إلى عبدالقيس في رحلة ماضية طوفت فيها أرض الخليج ومضيت متنقلاً في مرابع ومنازل العبدية القديمة، أتغنى بشعرهم وأقف في ديارهم وكأني عاشق يلتقي بأحبة رحلوا ومضوا طي الرمال في ذاكرة الزمان.

وهذه المحاولة لا تعدو أن تكون برأ بعبد القيس وشعرائها الذين عدا الزمان على آثارهم وأضاع الكثير من أشعارهم، كما لا تعدو أن تكون اهتماماً بجمع ديوان القبيلة وعناية بتنسيقه وتقديمه في صورة جيدة.

وتغري هذه المحاولة بدراسة شعر القبائل، ولمّ دواوينها التي تبعثرت في سائر المظان الشعرية وتوزعت في مختلف بطون الكتب الأدبية وغير الأدبية، حيث تدخل عبدالقيس الدراسات واضحة بعض الشيء ويتمكن الباحثون من السير إليها على أرض واضحة المعالم، بيئة الاتجاهات.

ولابد لي من أن أشير إلى أن الأحكام التي توصلت إليها والظواهر التي تناولتها ليست نهائية لأنها مرتبطة بما عثرت عليه من شعر، فإذا ظفرنا بديوان عبدالقيس كاملاً كان علينا (أو على غيرنا) إعادة النظر في ما قررناه هنا، ومن هذا المنطلق أسجل حقيقة واضحة وهي أن عدم اكتمال النصوص لا يمنع من النظر والدرس فيما وقع لنا منها، ومن هنا كان إقدامي على هذه الدراسة ووقوفي عند شعراء هذه القبيلة بعد خمسة عشر قرناً من الزمن.

والمنهج الذي استوعب هذه الدراسة تألف من قسمين: القسم الأول الدراسة وتشمل القبيلة، وشعراءها والقسم الثاني ديوان القبيلة، جمعه وتحقيقه وتخريجه.

أما القسم الأول فقد جاء في خمسة فصول: تناولت في الفصل الأول منها قبيلة عبد القيس فدرست نسبها ومنازلها وحياتها الاجتماعية وحياتها الاقتصادية وحياتها الدينية وصلاتها الخارجية.

وتناولت في الفصل الثاني الشعراء فأعددت قائمة (ثبتاً) بأسماء الشعراء الذين وجدت لهم شعراً، ودرست مصادر شعرهم وأخبارهم، ووقفت عند ظاهرة الضياع والاختلاط في هذا الشعر، ثم نظرت إلى ظاهرة الانتحال، وبعد ذلك عالجت توثيق وتخريج الشعر الذي قمت بجمعه.

وأفردت الفصل الثالث للدراسة الموضوعية التي ارتأيت أن تكون في خمسة موضوعات هي: شعر الحرب والقتال، وشعر السلم والإصلاح، ونظرات في الحياة والموت، وشعر الرثاء، وموضوعات أخرى أبرزها الحكمة والبحر والطبيعة.

وخصصت الفصل الرابع للدراسة الفنية التي رأيت أن تضم ست ظواهر فنية هي: الخصائص اللغوية والأسلوبية، والمقطوعات الشعرية، وندرة المقدمات وعدم الحرص على التصريح، والواقعية، والتصوير الفني، والظواهر العروضية.

وجاء الفصل الخامس في دراسة تطبيقية تناولت فيها شاعر القبيلة المثقب العبدى فدرست حياته وشخصيته ثم موضوعات شعره والنواحي الفنية في هذا الشعر.

أما القسم الثاني فكان ديوان عبد القيس وقد جمعت شعرهم المتفرق في المصادر الأدبية والتاريخية والجغرافية واللغوية وغيرها ثم قمت بتحقيق هذا الشعر وتخريجه.

ولست أزعم أنني أول من يكتب، ولا آخر من يقول، بل لا أدعي أنني أتيت بجديد خارق في هذه الدراسة وإنما كل ما في الأمر أنه أتيح لي أن أتعرف إلى عبد القيس وتأتي لي النظر في شعرها، فحاولت أن أقوم بهذه الدراسة وألم بجوانبها، ولم أبخل عليها بجهد أستطيعه لتبدو في صورة طيبة.

وفي هذا المقام أتقدم بوافر الشكر وعظيم الامتنان إلى الأستاذ الدكتور يوسف خليف الذي حبانني من سعة صدره ودقيق ملاحظاته، وسديد إرشاداته ما أعانني على اجتياز فيافي الشعر الجاهلي ومسالك الدروب إلى عبدالقيس، ولابد من الاعتراف بأنه لم يكن مشرفاً فحسب وإنما مدرسة أدبية تتلمذت فيها ونهلت منها ما كان أكبر عون لي في هذا البحث.

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى عضوي اللجنة الدكتور النعمان القاضي، والدكتور عبدالحكيم بلبع قبل وبعد أن أتلقي فيض إرشاداتهما التي ستكون عوناً لي في إعطاء البحث صورته النهائية.

والشكر أيضاً إلى كل من صحبني في هذه الرحلة يمضغ الصبر ويجدد الأمل ويقوي العزيمة والله الموفق.

القسم الأول

الدراسة

— |

| —

— |

| —

الفصل الأول

قبيلة عبد القيس

١ - نسب عبد القيس:

يعود النسابون بعبد القيس إلى العدنانيين فهو ولد أفصى بن دهمي بن جديلة بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان^(١). وإلى عبد القيس تعود قبيلة عبد القيس، أما النسبة إلى القبيلة فعبدي، وعبد قيسي، وقيسي^(٢) وفي بعض المراجع عبقيسي^(٣).

ولا أريد أن أتوقف عند فن النسب والأنساب فإن ما قيل فيه كثير وعظيم ولكني أرى أن صحة النسب في عبد القيس، ليس بالشيء الغامض الذي يحتاج إلى بيان أو يعوزه دليل، فقد أكد الباحثون في أنساب العرب حقيقة نسب العبديين وأشار إلى تلك الحقيقة النسابون من عبد القيس أمثال صعصعة بن صوحان في مجلس معاوية بن أبي سفيان^(٤).

وفي «الأنساب»^(٥) أنه ولد لعبد القيس أفصى ولبوء، ويذكر ابن دريد^(٦) أن اللبوء حي عظيم، رحل قسم منهم وسكن مدينة توج في بلاد فارس^(٧) ولا تورّد المصادر شيئاً ذا بال عن أخبارهم، أما أفصى فكان منه ولدان شن ولكيز، وهما قبيلتان عظيمتان في عبد القيس^(٨).

(١) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ٢٩٥ وابن الكلبي: جمهرة النسب ١٦٨.

(٢) القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ٣٣٨.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية مجلد ١ ص ٧٣.

(٤) المسعودي: مروج الذهب ٣٣٩/٢.

(٥) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ٢٩٥، ابن عبد ربه: العقد الفريد ٣/٣٠٥.

(٦) ابن دريد: الاشتقاق ٣٢٥.

(٧) دائرة المعارف الإسلامية مجلد ١ ص ٧٤.

(٨) ابن دريد: الاشتقاق ٣٢٦ وتاج العروس ٢٥٦/٩، ولسان العرب ١٣/٢٤٣.

فبنو شن كانت لهم سيطرة و سطوة، ومنهم الأفكل^(١) - عمرو بن الجعيد - سيد عبد القيس في الجاهلية وقائد جموعها من تهامة إلى البحرين^(٢)، كان كاهناً وقتله بنو عصر من العبيدين لبطشه وبغيه^(٣)، وفي شن كثير من الحكماء منهم رثاب الشني^(٤)، وشن هي التي أطبقت على قبيلة إياد وأجبرتها على الرحيل إلى العراق^(٥)، واستقرت في أماكنها شمال البحرين^(٦)، وثار الشعراء الشنيون على ملوك الحيرة وشقوا عصا الطاعة وحملوا راية الثورة والتمرد على سلطان المناذرة^(٧).

وينفرد السويدي^(٨) برواية أشار فيها إلى أن شنأ من ولد أفصى بن دغمي ابن جديله وبذلك أخرجه من نسل عبد القيس، ويبدو أن تكرار أفصى في «الأنساب» قبل وبعد عبد القيس هو الذي أوقع السويدي في هذا الإشكال وانفراده في روايته تلك يغرينا بالشك فيما ذهب إليه.

أما لكيز فهي قبيلة كبيرة انحدرت منها بطون وديعة، وصباح، ونكرة^(٩) وأشار المثقب إلى لكيز في خطابه للنعمان بن المنذر^(١٠).

(١) ابن دريد: الاشتقاق ٣٢٦.

(٢) البكري: معجم ما استعجم ٨٦.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية مجلد ١ ص ٧٤، ابن دريد: الاشتقاق ص ٣٣٠.

(٤) المسعودي: مروج الذهب ٨٢/١.

(٥) البكري: معجم ما استعجم ٨٧.

(٦) انظر: منازل عبد القيس.

(٧) انظر: الدراسة الموضوعية.

(٨) السويدي: سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب ٥٤.

(٩) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ٢٩٥.

(١٠) ديوان المثقب العبدى، تحقيق: الصيرفي ١١٦.

«ونكرة» من الإنكار والغلظة^(١) أنجبت أكثر شعراء العبيدين شهرة وذيوعاً أمثال: المثقب، والممزق، والمفضل وعدداً من النساء الشهيرات أمثال سنيينة النكرية^(٢)، ومن شعر النكريين نرى أنها كانت تميل إلى السلم، وتقوم بالسفارة بين القبيلة الأم وأعدائها، وتنصف خصومها، ويهيئ القبيلة لهذه الخصال الحميدة جمال منازلها خصوصاً ما حول مدينة القطيف حاضرة عبدالقيس في القديم^(٣).

ويطن صباح كان فيهم رجال عظام وفدوا على الرسول عليه السلام أمثال أبو خيرة الصباحي^(٤) والقائف وإياس وهما سيدان في رهط صباح^(٥).

وكان لوديعة ثلاثة أبناء، عمرو وغنم ودهن^(٦) وهم بطون في عبدالقيس، فمن عمرو انحدرت بطون كثيرة، ومن غنم اشتهر رجال في الإسلام منهم حكيم بن جبلة^(٧) وهرم بن حيان^(٨) وهما حكيمان.

ومن نسل عمرو - محارب وعجل والدبل وأنمار^(٩) - ويطلق على الثلاثة الأوائل اسم العمور^(١٠). فبنو محارب أشداء أقوياء واسمهم يدل على أنهم رجال حرب، فكانوا يقومون بصناعة الأسلحة من دروع ورماح ومنهم الحطمة بن محارب الذي نسبت إليه الدروع الحطمية^(١١) والشاعر عمرو المحاربي^(١٢).

(١) ابن دريد: الاشتقاق ص ٣٢٧.

(٢) كحالة: معجم النساء ١/٧٣.

(٣) البكري: معجم ما استعجم ص ١٠٨٤.

(٤) ابن عبد البر: الاستيعاب ٤/١٦٤٣.

(٥) العيني: عمدة القارئ ١/٣٠٩.

(٦) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ٢٩٦.

(٧) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٣/٣٠٥، ٥/٤٣.

(٨) ابن سعد: الطبقات ٥/٥٦٣.

(٩) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ٢٩٦، ابن الكلبي: جمهرة النسب ص ١٦٨.

(١٠) البكري: معجم ما استعجم ص ٨١ ودائرة المعارف الإسلامية مجلد ١ ص ٧٣.

(١١) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ٢٩٧ ولسان العرب ١٣/٢٤٩.

(١٢) ابن الكلبي: أنساب الخيل في الجاهلية ٩١.

وفي وفد عبدالقيس إلى الرسول كان منهم همام بن معاوية^(١) وعبيدة بن مالك ومحارب ابن مزينة وغيرهم^(٢).

ومن الدليل (الدؤل) صحرار بن عياش^(٣) الخطيب والنسابه، وفي العصر الأموي كان منهم الشاعر الصلتان العبدي^(٤).

واشتهر بنو عجل بالخطابة والشعر والرئاسة فكان منهم آل صوحان^(٥) وآل رقية^(٦) ويقال: إن خطبة آل رقية في الجاهلية كانت بمثابة دستور هام لعبدالقيس بعد الإسلام^(٧)، وفيهم الشاعر عمرو بن أسوي^(٨)، والمعدل بن غيلان الذي كان شاعراً وله أحد عشر ولداً وكلهم شعراء^(٩)، ومنهم كذلك زخارة الذي كان رأس عبدالقيس وسيداً فيها حتى مات^(١٠)، وفي وفد عبدالقيس إلى الرسول عليه السلام كان منهم سفيان بن خولي^(١١).

أما أنمار فقد ولد له كثيرون منهم الحارث، وسعد، وثعلبه، وإياد، وعوف، ومالك، وعائده، مع اختلاف في نسبهم عند النسابين، ولسنا بصدد بحث هذا الخلاف، لكن الذي يهمنا أن نقف عند بطنين هما الحارث وعوف^(١٢).

فمن الحارث كان بنو عامر وهم الذين قتلوا الضحيان من النمر بن قاسط^(١٣) ومنهم الريان بن حويص صاحب الهراوة (فرس عبدالقيس)^(١٤).

(١) ابن سعد: الطبقات ٤١٢/٥.

(٢) نفس المصدر: ٤١٠/٥.

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين ٩٦/١.

(٤) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٥٠٠/٢.

(٥) الجاحظ: البيان والتبيين ٩٧/١.

(٦) المصدر السابق نفسه.

(٧) المصدر السابق نفسه.

(٨) المرزباني: معجم الشعراء ص ٤١.

(٩) ابن دريد: الاشتقاق ص ٣٣٠.

(١٠) المصدر السابق نفسه.

(١١) ابن سعد: الطبقات ٤١٠/٥.

(١٢) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ٢٩٥.

(١٣) ابن حبيب: المغتالون في الجاهلية (نفائس المخطوطات ١٢٢/٦).

وفيه هدا ج بن مالك لاعب الميسر^(١) والشاعر ثعلبة بن عمرو الفارس الشهير^(٢).

ومن عوف بن أنمار الحواثر^(٣) ومنهم الربيع بن حوثة الذي قيل: إنه تولى البحرين زمن عمرو بن هند^(٤).

ومن عوف أيضاً بنو عصر^(٥) وفيهم الأشج^(٦) الذي امتاز بالأناة والحلم، وقد وفد على الرسول عليه السلام ومعه رجال من بني عصر، منهم عمرو بن المرجوم، وشهاب بن المتروك، وهمام بن ربيعة، وخزيمة بن عبد عمر، وجارية بن جابر، وعمرو بن شعيث^(٧) وفي مسند الإمام أحمد أن الرسول عليه السلام قال لوفد عبد القيس الذي رأسه الأشج «اللهم اغفر لعبد القيس»^(٨).

ومن عوف كذلك بنو جذيمة^(٩) ومنهم الجارود «بشر بن عمرو بن حنش بن المعلى»^(١٠) وكان خطيباً وحكيماً وسيداً من سادات العبيدين وأن جده حكم البحرين زمن الملك عمرو بن هند^(١١)، وتشير المصادر إلى أن الجارود والأشج امتازا برجاحة العقل والفكر والحكمة^(١٢).

(١) ابن حبيب: المغتالون في الجاهلية (نفائس المخطوطات ١٢٨/٦).

(٢) المفضل الضبي: المفضليات ٢٨١ والاشتقاق ص ٣٢٨.

(٣) ابن الكلبي: جمهرة النسب ص ١٦٩.

(٤) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٢٤٣/٣.

(٥) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ٢٩٦.

(٦) ابن حجر: الإصابة ١٧١/٢.

(٧) ابن سعد: الطبقات ٤١٠/٥ وتحفة المستفيد ٦٣/١.

(٨) مسند الإمام أحمد ٢٠٥/٤.

(٩) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ٢٩٨.

(١٠) ابن سعد: الطبقات ٤٠٧/٥.

(١١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٢٤٥/٣.

(١٢) العبيد: الأدب في الخليج العربي ص ١١.

في هذه العجالة^(١) لنسب عبدالقيس تناولنا أهم البطون والقبائل والشخصيات وعرفنا أنها قبيلة عدنانية استقرت على أرض البحرين واختلطت بغيرها من سكان المنطقة، وقد تمايزت بطونها فاشتهر بعضها بالحرب والقتال، والبعض الآخر بالسلم والإنصاف وبالحكمة وسداد الرأي، والبعض الثالث بالشعر والأدب.

وحسبي أن أذكر أن القبيلتين العظيمتين لكيزا وشنا شغلتا الناس بما كان لهما من تراث شعري ومجد حربي^(٢).

(١) انظر شجرة النسب.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية مجلد ١ ص ٧٣، ٧٤.

٢ - منازل عبدالقيس:

عرفنا أن قبيلة عبدالقيس تنحدر من العدنانيين وأن نسبها يعود إلى ربيعة.. وقبيلة ربيعة عاشت في الجاهلية في منطقة تهامة^(١) على ساحل البحر الأحمر من غرب الجزيرة العربية. لكن الحرب وقعت بين بطونها فأدى ذلك إلى ارتحال بعضها إلى أماكن أخرى في الجزيرة، فالبكري^(٢) يشير إلى أن بني عامر بن الحارث بن أنمار بن وديعة بن لكيز بن أفصى بن عبدالقيس أصابوا عامراً الضحيان من قبيلة النمر بن قاسط من ربيعة، وكان الضحيان منزل القبيلة وصاحب مرباعها^(٣)، وحكمها في خصوماتها وقد اعتدى على كعب بن عامر العبدى^(٤) فوثب العبدى على الضحيان وقتله، عندها قالت النمر وأولاد قاسط لبعدالقيس، وفيهم الرئاسة «يا إخواننا قتلتم صاحبنا وانتهكتم حرماننا فإما أن نصفتونا أو ناجرناكم»، وسعى المصلحون وقام السفراء بينهم فاصطالحوا على أن تتحمل عبدالقيس دية الرئيس، وهي عشر ديات، ويقوم بدفعها بنو عامر، ففعلوا بينما تراخت سائر بطون القبيلة مما أدى إلى إشعال نار الحرب من جديد ودخل الفناء والهلاك في النمر وقاسط.

تفرقت قبيلة ربيعة وتمايزت فارتحلت عبدالقيس متجهة صوب الشرق من الجزيرة العربية واستقرت على أرض البحرين بعد أن أرسلت روادها الذين أجمعوا على اختيار المنطقة، وتعود أسباب الاختيار إلى عدة نواح في مقدمتها^(٥): أن المناخ والتربة والموقع متشابهة في كل من تهامة والبحرين، وتوفر المياه وخصوبة الأرض في البحرين، وبيئة البحر في كل من تهامة والبحرين.

(١) البكري: معجم ما استعجم ص ٧٩، ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ٢٢٩، الجاحظ: البيان والتبيين ٩٦/١.

(٢) البكري: معجم ما استعجم ص ٨٠.

(٣) المرباع: ما يأخذه الرئيس وهو ربع الغنائم في الحرب زمن الجاهليين.

(٤) ابن حبيب: المغتالون في الجاهلية (نفاثات المخطوطات ١٢٢/٦).

(٥) كحالة: جغرافية شبه جزيرة العرب ١٦٠.

وكان يعيش على أرض البحرين يومها قبائل من إياد والأزد وتميم وبكر بن وائل^(١).
فاقتتلت عبد القيس مع تلك القبائل وأجلت بعضها عن البلاد واختلطت بالسكان
الذين ظلوا فيها، واقتسمت الأرض على النحو التالي^(٢):

أ - نزلت جذيمة بن عوف بن بكر بن أنمار بن عمرو بن وديعة بن لكيز بن أفصى بن
عبد القيس الخط وأنحاءها.

ب - نزلت شن بن أفصى بن عبد القيس أطراف الخط إلى العراق.

ح - نزلت نكره بن لكيز بن عبد القيس القطيف وما حولها.

د - نزل بنو عامر بن الحارث وقبائل من العمور^(٣) منطقة الأحساء وخالطوا أهل
هجر في ديارهم.

وجاء في «تاريخ الأحسائي»^(٤) أن عمرو بن الجعيد من بني شن هو الذي قاد جموع
عبد القيس من تهامة إلى أرض البحرين وهجر^(٥).

واجتمع المقيمون بأرض البحرين لصد القادمين الجدد، فتعبأت إياد لقتال قبيلة شن
بينما تصدت قضاة لبقية قبائل عبد القيس.

أما إياد فقد ظهرت على شن وانتصرت منها وقتلت الرئيسين سعد السعود الشني
والأدرم بن نهاد الشني بينما انتصرت عبد القيس على قضاة وهزمتها ومالت تعاون شناً
وأعملت في إياد السيف، فانهزمت الأخيرة إلى العراق وأوغلت في تقدمها إلى الشمال من
سواد العراق^(٦).

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥٥/٢، الميداني: مجمع الأمثال ٤٨٢/١.

(٢) البكري: معجم ما استعجم ص ٨١.

(٣) العمور هم بنو الديل، وبنو محارب، وبنو عجل أولاد عمرو بن وديعة بن لكيز.

(٤) الأحسائي: تحفة المستفيد ٥٦/١.

(٥) ابن حبيب: المحبر ص ١٣٥.

(٦) الأحسائي: تحفة المستفيد ٥٦/١.

وفي مقتل الأدرم وسعد الشنين قال الشاعر^(١):
لأي القتيلين النوائح والبكا
لسعد السعد أم لمقتل أدرما

ومن طريف ما يرويه البكري^(٢) أن إياداً كان يقال لها: «الطبق» لشدة رجالها
وإطباقتهم على أعدائهم ولذا يقول الشاعر:
لقيت شنّ إياداً بالقلنا
طبقاً وافق شن طبقه

ولم تكن إياد هي الوحيدة التي نازعتها عبدالقيس وغلبتها وأجبرتها على الرحيل
وإنما استطاع بنو عبدالقيس هزيمة قبائل أخرى من تميم والأزد وبكر بن وائل وفي ذلك
يقول شاعر العبيدين «عمرو بن أسوى»^(٣):
شحطنا إياداً عن وقاع فقلصت
وبكراً نفينا عن حياض المشقر

ويجمع المؤرخون^(٤) على أن ديار عبدالقيس ومنازلها في الأصل كانت بتهامة ثم
خرجت إلى البحرين وبها خلق كثير من البكرين وتميم والأزد، فزاحموهم في المواطن
وقاسموهم الأرض.

ويقول الجاحظ^(٥) «وشأن عبدالقيس عجيب وذلك أنهم بعد محاربة إياد تفرقوا
فرقتين الأولى: وقعت بالبحرين وشق البحرين وهم أشعر قبيل في العرب. والثانية: وقعت
بعمان وشق عمان وهم خطباء العرب».

(١) الإحسان: تحفة المستفيد ٥٦/١.

(٢) البكري: معجم ما استعجم ص ٨١.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) الطبري: تاريخ الرسول والملوك ٥٥/٢، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٣٩٢/١، القلقشندي: نهاية الأرب
ص ٣٣٨، كحالة: معجم القبائل ٧٢٦/٢.

(٥) الجاحظ: البيان والتبيين ٨١/١.

ومن قول الجاحظ ندرك أن قسماً من العبيدين سكن عمان، وفي دائرة المعارف الإسلامية^(١)، أن منازل نكره كانت تمتد حتى بينونة في الجنوب، وأن بطوناً من نكره والدليل وعوقة من العبيدين سكنت عمان، والمتقّب العبيدي أخبرنا عن قسم من النكريين في عمان^(٢).

وهكذا امتدت منازل العبيدين من العراق شمالاً، حتى عمان جنوباً وهي المنطقة التي أطلق عليها اسم البحرين قديماً، رغم أنه من الصعب تحديد الرقعة الجغرافية للبحرين آنذاك، لكن الجغرافيين القدامى من العرب أطلقوا اسم البحرين على هذه المنطقة^(٣).

وكان العرب يسمون الشاطئ الممتد من البصرة إلى عمان بالخط، ويطلقون عليه خط عبد القيس^(٤)، وكانت مدينة القطيف^(٥) عاصمة هذا الخط، وأحياناً أخرى تنتقل العاصمة إلى مدينة هجر^(٦).

وكان هذا الخط إقليمياً واسعاً، يضم الأحساء وهجر والقطيف وقطر وأوال^(٧)، وهي ذات المناطق التي تمتد ما بين البصرة شمالاً وعمان جنوباً.

وتشمل اليوم دولة الكويت، ودولة قطر، ودولة البحرين، ودولة الإمارات العربية المتحدة، والمنطقة الشرقية، والأحساء من المملكة العربية السعودية^(٨).

(١) دائرة المعارف الإسلامية مجلد ١ ص ٧٣.

(٢) انظر: شعر الحرب، ديوان المتقّب ص ١٠٥، الأجناد: المباحدة، عنودها: مخالفتها وثورتها.

(٣) كحالة: جغرافية شبه جزيرة العرب ٢٦١.

(٤) ياقوت: معجم البلدان ومعجم البكري ٥٠٣.

(٥) البكري: معجم ما استعجم ١٠٨٤.

(٦) البغدادي: مرآة الاطلاع ٢٠٧/٣.

(٧) المسلم: ساحل الذهب الأسود ص ١٧، وجغرافية كحالة ٢٦١.

(٨) الخصري: الخليج العربي ص ٢.

إن البحرين التي قطنها بنو عبد القيس، منطقة واسعة ممتدة على ساحل الخليج العربي، بين البصرة شمالاً، حتى عمان جنوباً^(١)، والحد الفاصل بينهما وبين عمان، جرفار^(٢)، وهي ما تعرف اليوم بمنطقة رأس الخيمة، وكان يتبعها قديماً جزر عديده منها:

أ - أوال: وهي جزيرة بناحية البحرين فيها نخل كثير وليمون وبساتين، كانت مأهولة بالسكان^(٣) وتنتج محاصيل زراعية متنوعة وهي الآن.. إحدى جزر البحرين الهامة.

وتبعد عن ساحل الأحساء مسافة خمسة وثلاثين كيلو متراً^(٤)، وهي اليوم ميناء هام لرسو السفن^(٥) ويقول فيها الشاعر تميم بن مقبل^(٦):

عمد الحداة بها لعارض قرية

فكأنها سفن بسيف أوال

ب - شفار: جزيرة بين أوال وقطر، فيها قرى كثيرة، وكانت من أعمال هجر^(٧).

ج - تاروت: في شرق القطيف، وهي اليوم جزيرة صغيرة، بها بساتين ونخيل ومياه عذبة^(٨).

د - قطر: تمتد على سيف الخط بين عمان والعقير^(٩)، وكانت مركزاً للنسيج^(١٠) والنجائب القطرية، وبها سوق تجارية هامة^(١١) وقطر اليوم شبه جزيرة كبيرة ودولة هامة من دول الخليج العربي.

(١) ياقوت: معجم البلدان ٣٤٦/١.

(٢) نفس المصدر ٥٠٧/١.

(٣) نفس المصدر ٢٧٤/١.

(٤) رقلة: جغرافية الوطن العربي ٣٧٩.

(٥) العبيدي: البحرين من إمارات الخليج العربي ٩٦ وفي تحفة المستفيد ٥/١.

(٦) ياقوت: معجم البلدان ٢٧٤/١.

(٧) نفس المصدر ٣٠٤/٣.

(٨) أبو الفداء: تقويم البلدان ٨٣.

(٩) الدباغ: جزيرة العرب ١٧٨/١.

(١٠) ياقوت: معجم البلدان ٣٧٣/٤.

(١١) الأحسائي: تحفة المستفيد ٢٣.

وبذلك تكون البحرين إقليمياً واسعاً فيه العيون والمياه^(١)، وتتبعه مدن وقرى كثيرة، وكان هذا الإقليم يخضع للساسانيين^(٢)، ثم بعض الأحيان للحيرة^(٣) وسيطر عليه فترة من الزمن بنو عبد القيس.

وقد ذكرت المصادر عدداً وفيراً من المدن والقرى، والحصون، والقلاع، والجبال والأنهار التي نزلتها عبد القيس وسائر بطونها، ونأتي الآن على أشهرها:

أ - القطيف: مدينة عظيمة بالبحرين، قريبة من الساحل، تبعد عنه مسافة ميل في الشمال الشرقي من الأحساء^(٤) وترسو السفن بعيداً عن ساحلها^(٥)، لأنه غير عميق ويدعى قراح^(٦)، تشتهر بجودة نخيلها وكثرتها^(٧)، كانت إحدى المدينتين الرئيسيتين والثانية هجر^(٨)، بل كانت عاصمة البحرين كلها حتى سمي الخليج العربي باسمها ف قيل بحر القطيف^(٩)، واسمها مشتق من القطف، نزلها الحطم البكري بعد رده وقاتل العلاء الحضرمي فيها الأعاجم، بها أطلال قديمة، وقنوات بحرية وفيها وقربها عاش شعراء عبد القيس وفي مقدمتهم المثقب العبدى وعمرو بن أسوى العبدى^(١٠)، وتقع القطيف اليوم على خليج يشمل جزيرة تاروت، وتضم مجموعة من المدن والقرى ومنها دارين وسنابس وصفوى وسيهات والجارودية.

ب - هجر: مدينة داخلية، بعيدة عن الساحل^(١١)، كانت أهم مدن البحرين حتى أنها سميت بها ذات يوم^(١٢).

(١) ياقوت: معجم البلدان ٣٤٦/١ وصحيح الأخبار ٢٣٨/٢ .

(٢) ياقوت: معجم البلدان ٣٤٦/١ .

(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٥٤٢/٣ .

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى ٥٦/٥ وصحيح الأخبار ١١٢/٣ .

(٥) الدباغ: جزيرة العرب ١٨٦/١ .

(٦) الأزهرى: تهذيب اللغة ٤٣/٤ ومعجم البكري ١٠٥٦ .

(٧) الهمداني: صفة جزيرة العرب ١٣٦ ورحلة ابن بطوطة ٢٨٠ .

(٨) البكري: معجم ما استعجم ١٠٨٤ .

(٩) المسلم: ساحل الذهب الأسود ١٧ .

(١٠) نفس المصدر ٢٦٨ .

(١١) البكري: معجم ما استعجم ١٣٤٦ ومعجم ياقوت ٣٩٣/٥ وصحيح الأخبار ٧٦/٤ .

(١٢) ياقوت: معجم البلدان ٩٥٣/٤ ومراصد الاطلاع ٣٠٧/٣ .

ذكرها الهمداني^(١) بأنها مدينة عظيمة، ووصفها ابن حوقل^(٢)، بأنها أكبر أعمال البحرين ومدنها كانت قصبتها، وأقام فيها مرزبان فارسي، وكانت مركزاً تجارياً هاماً وسوقاً مشهورة من أسواق العرب^(٣)، قاتل العلاء الحضرمي فيها الحطم البكري، وقد درست هجر، وموقعها الحالي مدينة الهفوف^(٤).. يتبعها عدد من المدن والقرى منها أسبذ التي ينسب إليها المنذر بن ساوى ملك البحرين ومدينتا الجريب والسعايم وغيرهما. وسميت بهجر نسبة إلى هجر بنت مكنف من العماليق الذين سكنوا تلك المناطق^(٥).

ح - المشقر: حصن في هجر^(٦) وصفه ابن الأعرابي بأنه مدينة عظيمة^(٧)، وسطه قلعة فيها بئر يتحلب إليها ماء هجر^(٨)، ويبدو أن المشقر كانت مدينة إدارية ومركزاً تجارياً^(٩) وبها سوق شهيرة، وحدثت فيها معارك ضارية بين العرب والفرس ودلالة ذلك يوم الصفقة الذي قتل فيه من بني تميم خلق كثير^(١٠) ويقال: إن الذي بنى المشقر هو معاوية بن الحارث بن معاوية الملك الكندي، وقد ورد اسم المشقر في شعر امرئ القيس^(١١).

وكانت هجر في القديم لإياد، ولما قدمت عبدالقيس البحرين أخرجوا إياداً منها^(١٢).

(١) الهمداني: صفة جزيرة العرب ١٣٦ .

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض ٣١ ومعجم البكري ١٣٤٦ .

(٣) المسلم: ساحل الذهب الأسود ٢٦٠ والأفغاني في أسواق العرب ٢٥١ .

(٤) الدباغ: جزيرة العرب ١٨٢/١ .

(٥) البكري: معجم ما استعجم ١٣٤٦ .

(٦) ابن دريد: جمهرة اللغة ٣٤٦/٢، وتهذيب الأزهري ٣١٤/١٨ وصحيح الأخبار ٥٩/٢ ومجمع الأمثال ٣٩٩/٢ .

(٧) البكري: معجم ما استعجم ١٢٣٣ .

(٨) ياقوت: معجم البلدان ١٤٣/٥ .

(٩) نفس المصدر: ٥٤١/٤ ومراصد الاطلاع ١٠٥/٣ .

(١٠) تاريخ ابن خلدون ٣٦٠/٢ وآثار البلاد للقرطبي ١١٠ .

(١١) ديوان امرئ القيس ٨٤ .

(١٢) ابن بليهد: صحيح الأخبار ٥٩/٢ .

وقال الشاعر يزيد بن المفرغ^(١):

تركت قريشاً إن أجاور فيهم
وجاورت عبد القيس أهل المشقر

د - جواثي: مدينة بالبحرين^(٢) فيها حصن باسمها وصفه البلاذري بأنه حصن البحرين^(٣)، أصبحت مدينة هامة في الإسلام ولها مسجد كبير جامع^(٤)، كثيرة الزروع والنخيل وقد قال فيها شاعر عبد القيس وفي مسجدها^(٥):

والمسجد الثالث الشرقي كان لنا
والمنبران وفصل القول في الخطب
أيام لا مسجد للناس نعرفه
إلا بطيبة والمحجوج ذو الحجب

وتقع جواثي اليوم شرقي مدينة القلالية في السعودية بالمنطقة الشرقية ولم يبق من آثارها سوى أطلال المسجد^(٦).

هـ - الخط: من مدن البحرين القديمة، وصفه ثعلب، بأنه جزيرة العرب وقال ابن السكيت^(٧): بأنه فرضة البحرين وقيل: الخط ما بين عمان والبحرين^(٨) وابن دريد يقول^(٩): بأنه سيف البحرين وعمان ومن مدن الخط القطيف والعقير وقطر^(١٠) ويذكر

(١) ياقوت: معجم البلدان ١٣٤/٥ .

(٢) البكري: معجم ما استعجم ٤٠١ والهمداني في صفة جزيرة العرب ١٧٨، والمسعودي في التنبيه والإشراف ٣٩٢.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان ٨٣ وصحيح الأخبار ٩١/٣ .

(٤) صحيح البخاري ١٦٥/٣ .

(٥) البكري: معجم ما استعجم ٤٠٢ وتحفة المستفيد ص ١١.

(٦) الأحسائي: تحفة المستفيد ص ١١.

(٧) ابن منظور: لسان العرب ٢٩٠/٧ .

(٨) ابن بليهد: صحيح الأخبار ١٥٠/٣.

(٩) ابن دريد: جمهرة اللغة ٦٧/١.

(١٠) البكري: معجم ما استعجم ٥٠٣.

(١١) الأنباري: شرح المفصليات ٥٧٦.

الأنباري أن الخط يطلق على ساحل البحرين^(١١).

والخط ميناء على الخليج العربي تمر به السفن الآتية من الهند، وإليه تنسب الرماح الخطية التي بجلب قناها من الهند بحراً، ثم تقوم فيها، وتباع إلى جميع أجزاء جزيرة العرب^(١)، وكانت هذه الرماح من أسلحة العرب المشهورة^(٢) كما يوجد في الخط نخيل كثير، ومياه جوفيه عذبة، وحصون كبيرة^(٣).

و - العقير: ميناء في البحرين جنوب القطيف^(٤)، كانت مركزاً تجارياً هاماً، ترسو فيه السفن القادمة من الصين والبصرة واليمن وعمان^(٥) ويعتبر العقير ميناء الأحساء الشهير. أهمل بعد إنشاء ميناء الدمام الحالي^(٦)، وكانت العقير شهيرة بالنخيل على طريق عمان - البصرة^(٧).

ز - الزارة: ميناء هام مشهور على الخليج العربي قرب القطيف ومن مدن البحرين المهمة^(٨). كانت عاصمة المنطقة الساحلية، كما كانت هجر عاصمة المنطقة الداخلية، ولذا أقام الفرس فيها المرزبان الفارسي، وكانت مركزاً إدارياً قوياً، بها سوق شهيرة^(٩) درست آثارها وفي موقعها اليوم بلدة الرمادة قرب قرية العوامية وسميت بالرمادة

(١) ابن رشيقي: العمدة ٢٢١/٢، والبكري في معجم ما استعجم ٥٠٤ ولسان العرب ٢٩٠/٧ والزمخشري في الجبال والامكنة ٥١ والأزهري في تهذيب اللغة ٥٥٧/١ .

(٢) النعالي: ثمار القلوب ٥٣٤ .

(٣) الأحسائي: تحفة المستفيد ١٠/١ .

(٤) ياقوت: معجم البلدان ٦٩٩/٣ .

(٥) الأحسائي: تحفة المستفيد ٢١ .

(٦) كحالة: جغرافية جزيرة العرب ٢٧٣ .

(٧) الهمداني: صفة جزيرة العرب ١٣٦ .

(٨) المسعودي: مروج الذهب ١١١/١ ومعجم ياقوت ٩٠٧/٢ .

(٩) المسلم: ساحل الذهب الأسود ٢٦٠ .

(١٠) المسلم: ساحل الذهب الأسود ٤٦ .

بسبب إحراقها^(١٠).

ح - دارين: ميناء مشهور بالبحرين^(١) تقع في الطرف الجنوبي من جزيرة تاروت شرقي القطيف وبعد فتح الزارة عبر إليها المسلمون وقاتلوا المرتدين^(٢) كانت من أسواق العرب الشهيرة بالمسك^(٣)، ودارين اليوم قرية من أعمال القطيف ساحلها لا يصلح لاستقبال السفن الكبيرة، هجرها أهلها بعد إنشاء ميناء الدمام الحديث^(٤).

ط - الأحساء: من مدن البحرين بقرب الساحل^(٥)، تبعد ميلين عن هجر^(٦)، وهي إلى الجنوب الغربي من القطيف، لها سوق خاصة بها^(٧)، قال عنها المقدسي^(٨): إنها قصبة هجر وأطلق عليها اسم البحرين، كثرة النخيل، عامرة السكان، غزيرة المياه والعيون أصبحت زمن القرامطة عاصمة البحرين وأهم مدنها بعد خراب العاصمة هجر^(٩).

ي - وهناك قرى أخرى منها: شط بني جذيمة: قرية ساحلية قريبة من حدود عمان^(١٠)، والسبخة: تقع بين عمان والبحرين وهي محطة على الطريق بين عمان إلى

(١) ياقوت: معجم البلدان ٥٣٧/٢، والبكري: معجم ما استعجم ٥٠٤ .

(٢) ابن سعد: الطبقات ٧٨/٢ .

(٣) الاحسائي: تحفة المستفيد ١٣/١ .

(٤) الدباغ: جزيرة العرب ١٧٩/١ وتحفة المستفيد ١٣/١ .

(٥) ابريليه: صحيح الاخبار ٦٤/١ .

(٦) ياقوت: معجم البلدان ١٤٨/١ .

(٧) الدباغ: جزيرة العرب ١٧٧/١ .

(٨) المقدسي: احسن التقاسيم ٩٣ .

(٩) الاحسائي: تحفة المستفيد ص ٤ .

(١٠) المسعودي: مروج الذهب ١١٠/١ .

(١١) ياقوت: معجم البلدان ٣٠/٣ .

(١٢) ياقوت: معجم البلدان ٢٧/٢ .

البصرة^(١١) ، وجبلية: قرية تقع شمال هجر^(١٢).

الظهران: ذكر المسعودي أنها من مدن البحرين وهي اليوم من المدن الساحلية الهامة ومركز بترول شهير^(١).

الجونان: قرية قرب عين محلم^(٢) ، وعسلج: قرية ذات نخل وزرع تسقيها قناة من نهر محلم^(٣)، وطريف: قال عنها البكري: إنها قرية بالأحساء غنية بالنخيل والمزارع تقع شرقي الهفوف^(٤) ، والرميلة: قرية من أعمال البحرين^(٥) ، وثيثل: قرية فيها مياه ونخيل شمال البحرين^(٦).

وأشارت المصادر إلى عدد من القرى والمدن التي سكنتها بطون عبد القيس وذلك على النحو التالي:

أ- منازل بني عامر بن الحارث بن أنمار بن وديعة بن لكيز من عبد القيس: السادرة: قرية لبني عامر تقع اليوم شرقي الهفوف^(٧) ، صلاصل: ماء لبني عامر بن عبد القيس^(٨)، والصلبان: واديان لبني عامر بن عبد القيس^(٩)، وحران الكبرى والصغرى^(١٠): قريتان

(١) نفس المصدر ٥٨١/٣ .

(٢) نفس المصدر ١٦٠/٢ .

(٣) نفس المصدر ٦٧٧/٣ .

(٤) البكري: معجم ما استعجم ٨٩١ .

(٥) ياقوت: معجم البلدان ٨٢٤/٢ .

(٦) البكري: معجم ما استعجم ١٢٩٢ .

(٧) ياقوت: معجم البلدان ٣٨٨/٣ .

(٨) نفس المصدر ٤١٩/٣ .

(٩) نفس المصدر ٤٢٠/٣ .

(١٠) نفس المصدر ٢٣٦/٢ .

(١١) نفس المصدر ٣٩٧/١ .

(١٢) البغدادي: مراصد الاطلاع ٦٤/٢ .

(١٣) ياقوت: معجم البلدان ٤١١/٣ .

بالبحرين لبني عامر بن عبد القيس ، وأوجار^(١١) ، وسوار^(١٢) ، الصفا^(١٣): نهر يتخلع من عين محلم وهي عين ماء جميلة في الأحساء وقيل عنه حصن قرب المشقر^(١) والصفاء اليوم قصبة المبرز في الأحساء^(٢) وقال فيه الشاعر^(٣):

وبهن أيام المشقر والصفاء
ومحلم يبكي على قتلائنا

ومحلم هذا نهر لعبد القيس بالبحرين^(٤).

وذكر ياقوت^(٥) في معجمه عدداً آخر من القرى والمنازل العبدية وهي: الدبيرة، كنبوت، الردم، المزيرعة، النقية، نها، المريداء (المرداء)، المجار، الرملة.

ب - منازل وقرى بني محارب بن عمرو بن وديعة بن لكيز من عبد القيس:

السهلة: قرية تقع قرب هجر^(٦)، والسليت: آثارها قائمة حتى اليوم^(٧)، والجرجاء (القرحاء) سوق تجارية قديمة على مقربة من العقير ميناء البحرين الشهير^(٨)، والكثيب:

(١) البغدادى: مرصد الاطلاع ١٥٩/٢ .

(٢) المسلم: ساحل الذهب الأسود ٤٨ .

(٣) ياقوت: معجم البلدان ٢٣٦/٢ .

(٤) ابن بلهيد: صحيح الأخبار ٣٨/٤ .

(٥) ياقوت: معجم البلدان ٤٧/٨ وصحيح الأخبار ٩١/٥ .

(٦) ياقوت: معجم البلدان ٢٠٥/٣ .

(٧) ياقوت: معجم البلدان ٢٤٢/٣ .

(٨) نفس المصدر ٥٣/٤ .

(٩) نفس المصدر ٤٣٨/٤ .

(١٠) نفس المصدر ٦٩٩/٣ .

(١١) نفس المصدر ٧٥٤/٢ .

(١٢) نفس المصدر ٥٦٦/٤ .

(١٣) نفس المصدر ٥٢٥/٢ .

(١٤) نفس المصدر ٤٩٦/٤ .

(١٥) نفس المصدر ٧٢٨/٤ .

(١٦) نفس المصدر ٦٣٨/٣ .

قرية بالبحرين ذكرها الشاعر ثعلبة بن عمرو العبدي^(٩)، والعقير: سبقت الإشارة إليها^(١٠).
والرجراجة^(١١). والمطلع^(١٢)، والطربال^(١٣)، والمرزى^(١٤)، وذو الناد^(١٥)، والعرجة^(١٦)،
والخرسان^(١)، والبحرة^(٢)، والذرائب^(٣)، والمالحة^(٤)، والحوجر^(٥)، والوجير^(٦)، والمنسلح^(٧)،
والحوس^(٨)، والنبطاء^(٩)، والجريب قرى فيها نخيل^(١٠).

أما حصون عبدالقيس فمنها: حصن المشقر، حصن الصفا، حصن جواثي،
حصن بيرين، وقد سبقت الإشارة إليها، ومن الصحاري: صحراء بينونة بين عمان
والبحرين^(١١)، ومن الرمال: رملة مرداء هجر^(١٢).

ونذكر من الجبال: الرمانتان^(١٣): جبال قرب هجر. باب^(١٤): جبل قرب هجر أيضاً.
الشبعان^(١٥): جبل وسط هجر. الرجا^(١٦): جبل وعين ماء بين كاظمة والسيدان.
الصليب^(١٧): جبل قرب كاظمة (في الكويت حالياً).

-
- (١) نفس المصدر ٤٢٣/٢ .
 - (٢) نفس المصدر ٥٠٦/١ .
 - (٣) نفس المصدر ٧١٨/٢ .
 - (٤) البغدادي: مراصد الاطلاع ٤٧/١ .
 - (٥ - ٨) نفس المصدر .
 - (٩) ياقوت: معجم البلدان ٧٣٦/٤ .
 - (١٠) ابن بليهد: صحيح الأخبار ٢٥٣/٣ .
 - (١١) ياقوت: معجم البلدان ٨٠٢/١ .
 - (١٢) البكري: معجم ما استعجم ١٢١١ .
 - (١٣) ياقوت: معجم البلدان ٦٣٢/٢ .
 - (١٤) نفس المصدر ٤٣٧/١ .
 - (١٥) ابن بليهد: صحيح الأخبار ١٤٦/٣ .
 - (١٦) الدباغ: جزيرة العرب ٢٥٥/٢ .
 - (١٧) ياقوت: معجم البلدان ٤١٥/٣ .
 - (١٨) ابن بليهد: صحيح الأخبار ١٨٥/٤ .

وأهم الوديان: - وادي الستار^(١٨): وهو وادي المياه في غرب الأحساء وطوله مئة ميل، وتربته زراعية، وقراه كثيرة.

- وادي الفروق^(١٩): شمال غرب هجر، كان أرضاً خصبة للرعاية وكان بنو عامر وأبناء العمور يرعون أغنامهم فيه. والسيدان^(٢٠): قرب كاظمة. ووالغ والصلبان^(٢١): في الأحساء.

المياه والعيون: في البحرين عيون كثيرة ومياه غزيرة وأهمها:

أ - عين محلم^(٢٢): وصفها الأزهرى بأنها فوارة^(٢٣)، مأوها كثير وحار، فإذا برد فهو عذب، تسقي نخيل جواثي وعسلج وقرى من هجر، ومن وصف الأزهرى يتبين أنها عين عذبة المياه، غزيرة، تتدفق بقوة^(٢٤)، وذكرت هذه العين في أشعار العرب فقال أعشى همدان^(٢٥):

ولما نزلنا بالمشقر والصفاء
وساق الأعراب الركاب فأبعدوا
بدأنا فغورنا مياه محلم
لعل بقايا جية القوم تنفد

والمحلم نهر بالبحرين ويسقي مع عين الصفا قرى هجر^(٢٦).

(١) البكري: معجم ما استعجم ١٠٢٤ ودائرة المعارف الإسلامية ص ٧٣ مجلد ١.

(٢) البكري: معجم ما استعجم ٧٧١.

(٣) ياقوت: معجم البلدان ١٠٩/١، ٤١٢/٣.

(٤) الهمداني: صفة جزيرة العرب ١٦٠.

(٥) البغدادي: مرصد الاطلاع ٥٠/٣.

(٦) نفس المصدر.

(٧) البكري: معجم ما استعجم ١١٩٣ وصحيح الأخبار ٣٨/٤.

(٨) نفس المصدر ١١٩٣.

(٩) ابن دريد: جمهرة اللغة ٢٢٧/٢.

(١٠) الأحسائي: تحفة المستفيد ١١.

ب - عين هجر: عين بالبحرين تسقي مناطق هجر^(٩).

ج - عين جواثي: عين غزيرة قرب مدينة جواثي^(١٠).

د - عين الزارة: ويعتمد عليها السكان في شربهم وسقي مزروعاتهم^(١١).

هـ - نهر العين بين الصفا والمشقر^(١٢).

وهناك عدد كثير من الآبار والبحيرات.

ولقد ورد القسم الأكبر من تلك المنازل والمدن وللقرى في أشعار عبدالقيس وأيضاً في شعر الجاهليين وغير الجاهليين من الشعراء، ونبدأ بزعيم الشعر في قبيلة عبدالقيس المثقب العبدى وهو يصف ظعائن صاحبتة فاطمة ويعدد الأماكن التي تعبرها^(٣) ، وهي

(١) ياقوت: معجم البلدان ٩٠٧/٢.

(٢) الهمداني: صفة جزيرة العرب ١٣٨.

(٣) ديوان المثقب العبدى ١٤٢، ١٤٤، ١٤٨ . البكري: معجم ما استعجم ٦١٠/٢، المواضع كلها من البحرين ما عدا فلجا.

(٤) البكري: معجم ما استعجم ٨٥٥.

(٥) ياقوت: معجم البلدان ٢٧٠/٢ (بين واقصة والقرعاء على ثمانية أميال من الأحساء).

(٦) البكري: معجم ما استعجم ٦٤٠/٢ ومعجم ياقوت ٢٨/٣ .

(٧) البكري: معجم ما استعجم ٦١٠/٢ وهي موضع بين كاظمة والبحرين وقيل الذرائح نهر بين كاظمة والبحرين (ديوان المثقب ١٤٨).

(٨) على الطريق بين البصرة واليمامة، وفي معجم البكري الفلج نهر صغير والأفلاج من أرض اليمامة وكذلك موضع على طريق البصرة ١٠٢٨/٣ .

(٩) البكري: معجم ما استعجم ١٠٨٢/٣ (موضع بين البحرين وعمان) وذكر أنها أكثر بلاد العرب نخيلاً وكان فيها لصوص من عبدالقيس وهم الرواطي وقال الشاعر فيهم:

تذكر ساداتنا أهلهم وخافوا عمان وخافوا قطر

وفي معجم ياقوت أن قطر بين البحرين وعمان ٣٧٣/٤ وقال ابن منذور قطر قصبه عمان.

(١٠) ديوان المثقب ص ٧١ .

ضبيب^(٤)، وشراف^(٥)، وذات رجل^(٦)، والذرائح^(٧)، وفلج^(٨)، أماكن في البحرين لعبدالقيس.

وفي قصيدة أخرى يذكر المثقب قطر^(٩) فيقول^(١٠):

كل يوم كان عندي جَلاً

غير يوم الحنو في جنبي قطر

والفضل العبدي يذكر في منصفته أماكن في البحرين لعبدالقيس منها:

طريف^(١)، آثال^(٢)، الفروق^(٣)، ويقول^(٤):

تلاقينا بغيبة ذي طريف

وبعضهم على بعض حنيق

فإنك لو رأيت غداة جئنا

ببطن آثال ضاحية نسوق

لدى الأعلام من تلعات طفل

(١) ياقوت: معجم البلدان ٣٤/٤ (موضع بالبحرين كانت لهم فيه واقعة).

(٢) البكري: معجم ما استعجم ١٠٥/١ جبل في البحرين.

(٣) البكري: معجم ما استعجم ١٠٢٤ الفروق بين اليمامة والبحرين، وقال أبو عبيدة الفروق عقبة دون هجر، وقال عنتره في حرب مع بني سعد:

ونحن منعنا بالفروق نساءنا نظرف عنها مشعلات غواشيا

(٤) الأصمعيات: ١٩٩ .

(٥) المفضليات: ص ١٠١ مفضلية ٨١ و١٣٠ .

ومـنـهـم مـن أـضـج به الفـرـوق

ويشير المـزق العـبـدي إلى أـمـاكن أخرى فيقول^(٥):

تطالع ما بين الرجا وقراقـر

عليهن سـربـال السـرـاب يـرـقـرـق

~~~~~

فـمـن مـبـلـغ النـعـمـان أن ابن أخته

على العين يعتاد الصفا ويمرق

وأشار ثعلبة بن عمرو إلى أـمـاكن غيرها فقال<sup>(١)</sup>:

لمـن دـمـن كـأنـهـن صـحـائف

قفار خلا منها الكثيب فواحف

~~~~~

أخي وأخوك ببطن النـسـير

ليس به من معد عـرـيب

وقال سويد بن الخـذاق^(٢):

بما فجرا يوم القطيف وفرقا

(١) المفضليات: ص ٢٨١، ٢٥٣ .

(٢) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٣٠٢.

(٣) ياقوت: معجم البلدان ٣٠/٣ وجغرافية كحالة ٤٧٥ وهي عين في البحرين وفي معجم البكري أنها جبل ١٠٥/١ .

(٤) ياقوت: معجم البلدان ٣١٨/٤ .

(٥) نفس المصدر ١٧٩/٤ عين فوارة بالبحرين تسقي نخيل جواثي.

(٦) نفس المصدر ٤١١/٣ نهر بالبحرين يتخلج من عين محلم.

(٧) نفس المصدر ٤٣٨/٤ وهي قرية لبني محارب من عبد القيس.

(٨) نفس المصدر ٣٤٣/٥ الواحف الأسود والأرض السوداء.

(٩) نفس المصدر ٢٨٥/٥ .

(١٠) انظر: منازل عبد القيس.

قبائل أحلافاً وحيأ حراما

فالأماكن الرجا^(٣)، وقرافر^(٤)، والعين^(٥)، والصفاء^(٦)، والكثيب^(٧)، وواحف^(٨)،
والنسير^(٩)، والقطيف^(١٠)، وكلها في البحرين لعبدالقيس.

أما الشعراء الآخرون الذين ذكروا منازل عبدالقيس ومواطنها فكثيرون ومنهم
الأخنس بن شهاب التغلبي يقول^(١):

لكيز لها البحرين والسيف كله

وإن يأتها بأس من الهند كارب

والشاعر عامر بن الطفيل يقول^(٢):

وعبدالقيس بالمرءاء لاقت

صباحاً مثلما لاقت ثمود



وقد نلنا لعبدالقيس سيبا

من البحرين يقتسم اقتساما

وامرؤ القيس يقول^(٣):

او المكرعات من نخيل ابن يامن

دوين الصفاء اللائي يلين المشقرا

(١) المفضليات رقم ٤١ ص ٣٠٤ .

(٢) ديوان عامر بن الطفيل ٤٩، ١١١ .

(٣) ديوان امرئ القيس ٨٤، ١٣٧ .

(٤) ديوان الأعشى ١٢٤ .

والأعشى يقول^(٤):

كأنها درة زهراء أخرجها

غواص دارين يخشى دونها الغرقا

فالأماكن البحران^(١)، السيف^(٢)، المرداء^(٣)، البحرين، الصفا^(٤)، المشقر^(٥)، دارين^(٦)
- كلها لعبد القيس.

وقد أشارت المصادر إلى جيران عبد القيس وهم:

١ - بكر بن وائل: سكنوا البحرين، وامتدت رقعة الأرض التي كانوا عليها من شمال
البحرين وحتى منطقة اليمامة^(٧)، ويبدو أن العشائر والبطون البكرية كانت بدوية ساهمت
بنصيب جيد في النواحي الحضارية، وكان موقف البكرين معادياً للإسلام ومنهم الحطم
البكري الذي قاتله العلاء الحضرمي^(٨) ومن هذه القبيلة اشتهر شعراء كثيرون في مقدمتهم
طرفة بن العبد.

٢ - تميم: من أكبر القبائل العربية، استوطنت بعض عشائرها البحرين وإلى الغرب

(١) ياقوت: معجم البلدان ٥٠٦/١ والبكري معجم ما استعجم ٢٨٨.

(٢) نفس المصدر ٢٩٨/٣.

(٣) نفس المصدر ١٠٣/٥ ومعجم البكري ١٢١١.

(٤) نفس المصدر ٤١١/٣.

(٥) انظر: منازل عبد القيس.

(٦) انظر: منازل عبد القيس.

(٧) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥٢٣/١، ومعجم البكري ٨٦.

(٨) البلاذري: فتوح البلدان ٨٣، والطبري: تاريخ الرسل والملوك ٩٦١/٤.

(٩) النجم: البحرين في صدر الإسلام ٤٣.

(١٠) البكري: معجم ما استعجم ٨٧.

(١١) دائرة المعارف الإسلامية مجلد ١ ص ٧٤.

(١٢) البكري: معجم ما استعجم ٨٧.

من منازل عبدالقيس^(٩) وكانت تعيش في الدهناء وهضبة نجد^(١٠)، ومن الذين خالطوا عبدالقيس في منازلهم في البحرين بنو سعد بن زيد مناه من تميم (وكانوا من أعدائهم)^(١١)، ونزلت طائفة من هؤلاء في عمان^(١٢) ومن بطونهم بنو دارم بن مالك بن حنظلة، والذين ينسب إليهم المنذر بن ساوى^(١٣).

٣ - بنو حنيفة: تتبعوا منابت الكأ ومساقط المياه، وانتجعوا مواقع الغيث على نفس طريق عبدالقيس وحلوا باليمامة^(١).

٤ - الأزد: قبائل عربية^(٢) جاءت إلى البحرين من تهامة^(٣)، وبعضها من اليمن ووصلوا إليها قبل العبديين^(٤) وتغلب العبديون عليهم وسيطروا على منازلهم، وكان قسم منهم يعيش في عمان^(٥).

ومن هنا ندرك أن عبدالقيس عاشت بين تلك القبائل وقبائل أخرى غيرها وتعاملت معها وكانت ذات شأن بينها.

أما عن الزمن الذي وطئت فيه أقدام عبدالقيس أرض البحرين، فيعود إلى القرن الثالث الميلادي وربما قبل ذلك بقليل^(٦)، فعلى أثر تضعضع الدولة الفارسية في إيران^(٧) وقيام ملوك الطوائف سيطرت على الخليج العربي، قبائل عربية، وهاجرت إلى المنطقة عبدالقيس، وكانت تعيش فيها يومها قبائل من قضاة والأزد^(٨).

(١) البكري: معجم ما استعجم ٨٦.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ٢٣٢/١ .

(٣) البكري: معجم ما استعجم ٨٦، صفة جزيرة العرب ٢٠٩.

(٤) البكري: معجم ما استعجم ٨٧.

(٥) نفس المصدر السابق.

(٦) الدكتور جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٤/٨٥.

(٧) المسلم: ساحل الذهب الأسود ٩٧.

(٨) الأحسائي: تحفة المستفيد ٥٦.

(٩) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ٣٩٣/١ وتاريخ الطبري ٥٥/٢ .

(١٠) الخليفة والحر: البحرين عبر التاريخ ٥٩.

وتأتي أول إشارة لعبد القيس على أرض البحرين زمن سابور ذي الأكتاف^(٩) إذ عندما كان صغيراً عبرت جموع من عبد القيس وغزت الفرس في أرضها وبقيت زمناً طويلاً فيها إلى أن اشتد ساعد الملك فعبر الخليج، ونكل بعبد القيس والقبائل الأخرى، وإذا ما علمنا أن سابوراً الفارسي حكم بين (٣٠٩ - ٣٧٩)^(١٠)، أدركنا أن عبد القيس - أغلب الظن - أتت إلى المنطقة في القرن الثالث الميلادي ويؤيد ما نذهب إليه من أن قسماً من مؤسسي الحيرة كانوا من عبد القيس بل ساهموا مساهمة فعالة في نشأتها^(١١)، وكما تشير بعض المصادر إلى أن غزو عبد القيس لفارس جاء بناء على رغبة ملك الحيرة امرئ القيس ابن عمرو الذي كان يطمع في تأسيس إمبراطورية عربية واسعة، تضم جميع المنطقة الشرقية وتشمل مختلف جهات الخليج العربي، ويكون مركزها الحيرة^(١٢).

أما فترة قبل الإسلام بقليل، فهي التي شهدت تقدم عبد القيس في سائر الحقول الحياتية والحضارية^(١٣).

وهكذا فإن الخليج العربي أرض عبد القيس في القديم لم يعرف له مكاناً غير العرب منذ العصور السحيقة^(١٤)، وسكن العرب شاطئيه وقاسوا الأمرين في سبيل الاحتفاظ به عربياً، وخلف هذا الخليج^(١٥) و«خط عبد القيس» لدى العرب والعبيدين ضميراً تاريخياً

(١) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١٦٩/٤ .

(٢) نفس المصدر ١٩١/٤ .

(٣) انظر: الحياة الاجتماعية.

(٤) الخصري: موسوعة الخليج العربي ص ٧.

(٥) الخليفة والحرير: البحرين عبر التاريخ ٦٥.

(٦) الخصري: موسوعة الخليج العربي ص ٨.

(٧) انظر: الحياة الدينية.

واجتماعياً^(٦)، وأقام العبيدون علاقات وثيقة بينهم وبين البحر أعطتهم أطيب الثمار وعوضتهم عن جفاف الصحراء وخشونة المفارة العربية، وبقيت عبدالقيس حتى مبعث النبوة قوية مسيطرة، محتفظة بأمكانها، وعندما بزغ فجر الإسلام كانت تسبق إليه عن قناعة ورضى واطمئنان^(٧).

٣ - الحياة الاجتماعية

عرفت جزيرة العرب لوتين من حياة القبيلة، فقبائل ترتاد مساقط الغيث، وتأتي منابت الكأ تسوق إبلها، وترعى ما شيتها، وتستخدم خيولها، في الغارات والغزوات فهم أهل الوبر، وقبائل استقرت في أماكن معينة، وبنت القلاع والحصون وزرعت الأرض وتاجرت مع غيرها وعرفت صناعات خفيفة فهؤلاء أهل المدر.

ولذا فلا يمكننا التسليم بأن كل القبائل في الجزيرة العربية كانت رعوية بدوية، وإنما توزع بعضها في طبقات حضارية متباينة المستوى، ومن تلك القبائل قريش، وطيء، وحنيفة، وجهينة، وسليم، وعبدالقيس^(٨)، كذلك فإن الجزيرة العربية ليست كلها صحراء، ففيها السهول والجبال والهضاب والوديان، وفيها كذلك المناطق الساحلية، وكانت اليمامة والبحرين، من المناطق الساحلية وقد استقر فيهما بنو حنيفة وبنو عبدالقيس وكانتا تزخران بالقرى والأودية والعيون^(٩).

وفي الأخبار أن قبيلة ربيعة ومنها عبدالقيس، نزلت بين دجلة والفرات، وامتدت حتى اتصلت بالبحرين واليمامة، وكان أكثر أهلها متصلين بالقرى فهم بادية حاضرة.

(١) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٨٦/١، ٢٧١/٢، عطوان في مقدمة القصيدة الجاهلية ص ٢٤.

(٢) شوقي ضيف: العصر الجاهلي ١٧.

(٣) الإصطخري: المسالك والممالك ٥٢.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٩٨٥/٢.

(٥) الزبيدي: تاج العروس ٣/٣٨٠.

(٦) ابن الأنباري: شرح القصائد الجاهليات ١٣٧.

ومن هنا فإن عبدالقيس استقرت على أرض البحرين، وكانت إلى حياة المدن أقرب منها إلى حياة الوبر، وأقامت المدن والقرى وعرفت الحصون والعيون^(٤) وزرعت الأرض وتاجرت بمنتجاتها وامتهنت عدداً من الصناعات الخفيفة^(٥)، وعبرت البحر ووصلت إلى مواطن حضارية مجاورة وبعيدة^(٦).

فعبد القيس مجتمع مستقر، عرف الحضارة، وتعامل مع الحضارات المجاورة وتعاطى التجارة والصناعة والزراعة، وكأي مجتمع، كان يواجه مشكلات معقدة ويصطدم باتجاهات متشابهة.

وكانت له حكومة ترعى مصالحه، وتقوم على خدماته، لكن الأخبار لا تحدثنا عن نظام الحكومات، ولا عن حياة المجتمع وطبقاته، والذي ندركه أن عبدالقيس كانت لها شخصية بارزة المعالم، واضحة الاتجاه، وأن مجتمعها قوي متماسك، كثير الرجال، غزير الموارد، وباختصار كان العبيد سادة البحرين^(١).

وتنقل لنا المصادر أن والي البحرين عند ظهور الإسلام هو المنذر بن ساوي العبيدي^(٢) وأن الربيع بن حوثة العبيدي اختاره عمرو بن هند والياً على البحرين^(٣) والمعلّى بن حنش العبيدي ولي البحرين كذلك^(٤)، وقلنا: إن الافكل كان سيد عبدالقيس بل وسيد ربيعة^(٥)، وجاء في الأخبار أن الأشج «المنذر بن الحارث»^(٦) ترأس وفد عبدالقيس إلى النبي عليه السلام في الوفادة الأولى، والجارود ترأس وفداً آخر في الوفادة الثانية^(٧).

(١) ابن قتيبة: المعارف ٩٣ جواد في المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٣٣١/٣ أحمد كمال زكي في الحياة الأدبية في البصرة ٧٢.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ١٠٧، ابن الاثير: الكامل في التاريخ ٣٦٨/٢، العبيدي: البحرين من إمارات الخليج ٣٣٢ وهو عامل كسري على البحرين.

(٣) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٢٤٥/٣ وفي رواية أخرى أنه ربيعة بن الحارث.

(٤) نفس المصدر: ٢٤٦٠/٣.

(٥) نفس المصدر: ٣٤٧/٣.

(٦) ابن سعد: الطبقات ٤١١/٥.

(٧) ابن سعد: الطبقات ٤٠٧/٥.

(٨) ابن دريد: الاشتقاق ٣٢٨.

وكان المرجوم - شهاب بن عبد القيس - سيداً وأميراً^(٨).

ومن أخبار هؤلاء الولاة وتلك الوفود ندرك أن عبد القيس عرفت نظام الحكومة ففيها الحكام والسادة والزعماء ورؤساء الوفود، ومع هذا فقد كان لكل قبيلة أو بطن من البطون العبدية مجلس محلي فيه الشيوخ والسادة وهم يمثلون بأوامر الحكومات والولاة والأمراء. وتوزعت مجتمع العبدية، طبقات منها : الطبقة الحاكمة وهم السادة والأشراف، والطبقة المحاربة وهم موضع اعتزاز القبيلة وفخرها، والطبقة التي تقوم بالزراعة والتجارة والصناعة والرعاية، وبعد ذلك طبقة العبيد والرقائق.

والرجل العبدية محارب صارم، ولوع بالانتقام، يحارب حاقداً كل من يحاول استعباده^(١) وبرمحه وسيفه يصون حقوقه ويحفظ مكانته يربي الخيول ويصنع الأسلحة، لكنه لم يكن يحارب من أجل السلب والغزو، وإنما في سبيل الحرية وطلب الوحدة^(٢)، وبقيت هذه الخصلة الجيدة حتى العصر الأموي فنجدهم طلاب وحدة^(٣)، ومن أبرز فرسانهم في الجاهلية ثعلبة بن عمرو^(٤) والريان بن حويص^(٥)، ويزيد بن الخذاق^(٦) وآخرون سنأتي إليهم عند دراستنا لشعر الحرب.

ويمتاز العبدية بشمائل أصيلة وصفات أخلاقية سامية، وأهمها: الكرم والوفاء، والإباء، والمروءة، والأمانة^(٧)، ويخبرنا المثقب عن ضيف طرق بابه في ليلة ماطرة وقام إليه يلقاه بالترحاب وينحر له ناقة سميكة^(٨):

(١) سيديو: تاريخ العرب العام ٣٢.

(٢) الخليفة والحرير: البحر في التاريخ ٦٢.

(٣) الدكتور أحمد كمال زكي: الحياة الأدبية في البصرة ٢٠٥.

(٤) ابن دريد: الاشتقاق ٣٣٠.

(٥) نفس المصدر: ٣٢٨.

(٦) المفضليات: ٢٩٥، ٢٩٧.

(٧) العبيد: تاريخ الأدب في الخليج ١٢ وعبود في الرؤوس ٧.

(٨) ديوان المثقب العبدية ١١٩.

(٩) ديوان المثقب العبدية: ص ٢٢٣، في رواية مترع الجفنة ويريد أنه يطعم الناس ويوسع عليهم، وربيعي الندى: مبكر الندى فهو قديم الكرم والعطاء، لطم: ليس في مجلسه سقه.

فلما أتاني والسماء تبلة
فلقيته أهلاً وسهلاً ومرحباً

فالعربي وإن انتقل إلى الحاضرة بقي الكرم عنده من أهم خصاله، وكان من رجال
عبد القيس البارزين في الكرم خالد بن أنمار الذي كان يحتفل بضيفانه في مجلسه، ويقدم
إليهم جفانه، ويبدل لهم ماله، وهو بهذا يصون عرضه ويحفظ سمعته^(١):

باكر الجفنة ربعي الندى
حسن مجلسه غير لطم
لا يبالي طيب النفس به
عطب المال إذا العرض سلم

وحافظ الإنسان العربي على عهده فقد قالت أعرابية لرجل^(٢): «مالك تعطي ولا تعد»
فقال لها «مالك والوعد»؟ قالت «ينفسح به البصر وينشر فيه الأمل، وتطيب بذكره النفس،
ويرضى به العيش»، واهتم العبدى بعهده والوفاء به اهتماماً كبيراً وذم كل من يخلف الوعد
ولا يفي به^(٣):

فإذا قلت نعم فاصبر لها
بنجاح الوعد: إن الخلف ذم

وهو أبي شجاع، يستجيب لاستغاثة الأقارب، فلا يقصر في الخطوب ولا هو فاسد المروعة^(٤):

وما التقصيرُ قد عَلمتُ معدَّ
وأخلاق الدنية من خاللي
فإني لا أضمن على ابن عمي
بنصري في الخطوب ولا نوالي

(١) النويري: نهاية الأرب في فنون العرب ٢٤١/٣ .

(٢) ديوان المتنبي العبدى: ص ٢٢٨ .

(٣) القالي: الأمالي ٢٠٤/٢ .

(٤) عبدالله المبارك: النثر في شرق الجزيرة العربية ٣٠ - ٤٠ والعبداني في سلسلة أبطال الإسلام ٢٨،
العبيدي في تاريخ الأدب في الخليج العربي ١٠ .

وفي ميدان الفكر والمعارف القديمة، فإن المتتبع للحياة الفكرية على أرض عبد القيس قبل الإسلام، يدرك أنها أخذت بحظ وافر منها وبلغت مدى بعيداً ويعود ذلك لعدة أسباب منها^(٤):

١ - الموقع الممتاز بين حضارات قديمة، والبيئة الطبيعية الجميلة على امتداد الخليج العربي.

٢ - الأجناس العديدة التي سكنت المنطقة وحطت إليها ثقافات وحضاراتها.

٣ - كانت بلاد عبد القيس ملتقى الديانات الوافدة والمهاجرة كالسيحية واليهودية والمجوسية.

٤ - المركز الاقتصادي وخاصة النشاط التجاري.

ومن هنا فقد عرفت الكتابة والترجمة وفنوناً أخرى كالغناء والرسم والتمثيل وارتادت الحيرة ذات المركز العلمي، والموطن الحضاري، وتأثرت بالمراسيم والعبادات في بلاد فارس بل كانت حضارة الفرس غالبية على إقليم العراق والجزيرة منذ عهد الساسانيين^(١). وأشار ثعلبة بن عمرو إلى الكتابة والرسم فقال^(٢):

أَكْبَ عَلَيْهِمَا كَاتِبٌ بِدَوَاتِهِ

يَقِيمُ يَدَيْهِ تَارَةً وَيُخَالِفُ

واستقبل الشعر مفردات فارسية وأعطى ألفاظاً عربية ويقول الممزق^(٣):

بَجَاءِ جَمُورٍ كَأَنَّ طَرِيقَهَا

بَسْرَةٌ بَيْنَ الْحَزَنِ وَالسَّهْلِ رَزْدَقُ

فهـ «رزدق» لفظة فارسية تعني المستوي والممتد وعند المثقب كثير من هذا سنشير إليه^(٤).

وعرف العبديون أنظمة الكفالات والعقود المكتوبة، فالممزق ينفي اشتراكه مع بعض

(١) أحمد كمال زكي: الحياة الأدبية في البصرة ١١٧.

(٢) الفضليات: ٢٨١.

(٣) نفس المصدر: ١٠١.

(٤) انظر: الدراسة الفنية عند المثقب.

(٥) الأصمعيات: ١٦٤.

(٦) الفضليات: ٢٩٦ (قصيدة يزيد)، وبيوان المثقب ١٢٤ (قصيدته النونية)، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٤٣٥/٥.

القبائل بكفالة ملزمة وعقد مكتوب^(٥):

فلا أنا مولاهم ولا في صحيفه كفلت عليهم والكفالة تَعْتَقِي

وتعامل العبيدون مع الآخرين بلغة سهلة ومتينة فيها لفظ مأنوس وكلمات حضارية، فقد أشارت أشعارهم إلى الجزائريين والبوابين وغير ذلك من شؤون الحياة اليومية^(٦).

وذكرنا أنهم امتازوا بالحكمة والفكر فالجارود العبدى كان حكيماً وخطيباً وشاعراً^(١)، ورثاب الشني، وبحيرا الراهب حكيمان^(٢) والأشج صاحب حلم وأناه^(٣). والمتقّب الشاعر رسول سلام في العبديين^(٤)، ولعل سرعتهم في قبول الإسلام وصعوبة ارتدادهم عنه يدل على صفاء الذهن وتنظيم الفكر عندهم^(٥)، وفي معرفتهم للوفود والسفارة بين القبائل والملوك وقيامهم بالدعوة إلى السلم والإصلاح ومساهمتهم في رأب الصدع، كل ذلك يعكس لنا مدى اتزانهم وذكائهم في معالجة المواقف والأمور ويدل على الفكر المتزن عندهم^(٦).

وساهم العبيدون مساهمة فعالة في الحركة الشعرية والأدبية على امتداد الخليج العربي وتركوا بصمات واضحة المعالم في سجل الشعر الجاهلي وفي بلاط المناذرة

(١) ابن سعد: الطبقات ٤٠٧.

(٢) المسعودي: مروج الذهب ٨٢/١، ٨٩ وفي الأغاني ٣٢٦/١٦ ذكر أبو اليقظان أن الناس سمعوا منادياً ينادي قبل بعثة الرسول عليه السلام (خير أهل الأرض.. رثاب الشني، وبحيرا الراهب وآخر لم يأت بعد).

(٣) ابن سعد: الطبقات ٥٥٨.

(٤) انظر: حياة المتقّب وشعره.

(٥) العدناني: سلسلة أبطال الإسلام ٢٩.

(٦) نفس المصدر.

(٧) انظر ديوان عبدالقيس.

(٨) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ٢٩٥.

(٩) ديوان ابن المقرب ص ٦٤.

(١٠) عبدالله المبارك: النثر في شرق الجزيرة العربية ٣٠ - ٥٢.

الأدبي^(٧)، وبرز منهم شعراء كثيرون في العصور الإسلامية أمثال الصلتان العبدى، وزياد الأعجم^(٨)، وابن المقرب الذي قال يفخر بقومه عبد القيس^(٩):

أيامهم في الجاهلية كلها

بيض تعير الخصم وجهاً أسوداً

وفي الخطابة والبلاغة برز منهم الكثير وتنازع الخطابة فيهم أسر عديده منها، آل رغبة وآل خوتعة وآل صوحان^(١٠) وفي الأخبار أنه كان ينصب منبر لصعصعة بن صوحان، أمام جماهير العرب فيدوي صوته في آفاق الدنيا^(١١)، والعرب تذكر من الخطب الشهيرة خطبة العجوز لبني رغبة، ومتى تكلموا فلا بد لهم منها أو من بعضها^(١٢)، وقال ابن الأعرابي، قال معاوية ابن أبي سفيان لصحار بن عياش العبدى «ما هذه البلاغة فيكم؟» فقال صحار: «شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا»^(١٣) وجاء في الأمالي^(١٤) أن صعصعة العبدى عندما سئل عن الأنساب أجاب «أما عبد القيس فأبطال زادة وجحاجة سادة وصناديد قادة، وأما أفصى بن عبد القيس فقد كانت رماحهم مشرعة وقذورهم مترعة وجفانهم مفرغة، وأما لُكيز فكان يباشر القتال ويعانق الأبطال ويبدد الأموال».

وفي العقد الفريد^(١٥)، أن عبد الملك بن مروان، قال يوماً لجلسائه «خبروني عن حي من أحياء العرب فيهم أشد الناس وأسخاهم وأخطبهم وأطوعهم وأحلمهم وأحضرهم جواباً».

فقالوا «ما نعرف هذه القبيلة، ولكن ينبغي لها أن تكون في قریش»، قال عبد الملك «إنها قبيلة مصقلة بن رغبة»، فقالوا «فهي إذن في ربيعة ونحن هم»، قال «نعم». فقالوا «ما

(١) حسن طالب: أدباء البحرين ٧.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين ٢٠٦/١، ٢١٨، تحفة الأعيان ص ١٤.

(٣) نفس المصدر: ٢٩٧/١، ١٨١/٢.

(٤) القالي: الأمالي ٣٩٣/٢.

(٥) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٣١٥/٣.

(٦) ضريحه في قرية عسكر بالبحرين (التحفة النبهانية ص ١٥).

نعرف هذا في عبدالقيس إلا أن تخبرنا به يا أمير المؤمنين»، قال عبدالمك «أما أشد الناس فحكيم بن جبلة، وأما أسخى الناس فعبدالله بن سوار، وأما أطوع الناس فالجارود بن بشر، وأما أحضر الناس فصعصعة بن صوحان^(١)، وأما أحلم الناس فالأشع العبدى».

وإن صحت هذه الروايات وتلك الأخبار فإن عبدالقيس قبيلة كانت لها بالفعل مكانة بارزة بين القبائل والملوك، وظلت تمثل هذه المكانة بعد الإسلام.

ولم تكن المرأة بأقل مكانة من الرجل في الحياة الاجتماعية، فتمتع بنصيب وافر من التقدير والاحترام، فقامت على خدمة بيتها وتربية أولادها وعملت في ميدان الصناعة والنواحي الاقتصادية الأخرى، وقد روت الأخبار أن ردينة وهي امرأة من البحرين ساهمت في صنع الرماح مع زوجها سمهر^(١) وخرجت المرأة العبدية إلى الحروب وشاركت في القتال وتحميس الأبطال وفخرت بشجاعة الفرسان فالشاعرة العبدية تقول^(٢):

أبوا أن يفروا والقنا في نحورهم
ولم يبتغوا من رهبة الموت سلماً
ولو أنهم فروا لكانوا أعزة
ولكن رأوا صبراً على الموت أكرماً

(١) الجاحظ: الحيوان ١٩٩/٧ العقد الفريد: ١٥١/١، الأغاني: ٨٢/١٥ .

(٢) البحتري: الحماسة ص ٣٧.

(٣) ابن حبيب: من نسب إلى أمه من الشعراء ١٢٦/٧ (نواذر المخطوطات) ١٢٦/٧ .

(٤) انظر: الحياة الاقتصادية.

(٥) انظر: شعر المثقّب في الظعائن.

وافتح العبيدون قصائدهم بالحديث إلى المرأة والتودد إليها وتسمى بعضهم باسمها، فالشاعر ثعلبة بن عمرو يطلق عليه ابن أم حزنة^(٣)، والمرأة العبدية سيدة ثرية تعتني بجمالها وسحرها وزينتها لم لا وبلاد عبد القيس مخزن أدوات الزينة وأسبابها، فالمسك الداري واللؤلؤ البحراني والثوب القطري والبرد الهجري كلها تصدر من البحرين^(٤)، وقد حدثنا المثقب في نونيته طويلاً عن المرأة العبدية وهي تأخذ زينتها وأبهى مظاهر سحرها عند رحيلها وسنتناول ذلك في شعر الظعائن^(٥).

واشتهر من نساء عبد القيس مارية بنت الجعيد^(١)، وبحر بنت الجارود^(٢)، وأم شوق^(٣)، وأم شيب^(٤)، وغيرهن إلى جانب الشاعرات العبديات^(٥).

وأقف عند ظاهرة الأسماء في عبد القيس ولست أدري لماذا تستوقفني هذه الظاهرة لولا هذا الحشد الكبير من الأسماء التي عرفها مجتمعهم ومنها المثقب والممزق والمطلع والمفضل والأفكل والجارود الهجرس ومصقلة وزخارة ولُكيز وشن ونكره واللبؤ وخوتعة وشأس، وكلها تسترعي الانتباه وتلفت الفكر، فهل من تعليل لهذه التسميات؟

ويورد ابن دريد^(٦) أسباباً مقبولة معتمداً على الاشتقاق فاللبؤ من لبؤة الأسد، والهجرس ولد الثعلب، وشن من القرية إذا يبست، والسقاء إذا تجلد، والأفكل بمعنى الأرعذ، والجارود من الجرد والهلاك، وزخارة من البحر الزاخر، ومصقله من صقل السيوف وخوتعة بمعنى الدليل، ولُكيز من الضرب والملاكمة، ونكره من الإنكار والغلظة

(١) عبدالله عفيفي: المرأة العربية في جاهليتها ص ٢٩.

(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٣/٣٦٥.

(٣) كحالة: معجم أعلام النساء ٣/٣١٥.

(٤) نفس المصدر: ٢/٢٨٥.

(٥) انظر: ديوان عبد القيس.

(٦) ابن دريد: الاشتقاق ٣٢٤ - ٣٣٤.

(٧) الهمداني: صفة جزيرة العرب ١٣٤.

(٨) القلقشندي: صبح الأعشى ١/٣١٢.

(٩) النبھاني: التحفة النبھانية ٢٠.

(١٠) ابن سعد: الطبقات ٥/٥٦٣.

وشأس من الغلظ وصلابة الأرض، ويذكر الهمداني^(٧) الأسماء التي تمت بصلة إلى النبات، وأما القلقشندي^(٨) فيقول: بأن الأسماء منقولة عن خيال العرب ومن مخالطتهم ومجاورتهم للحيوان كأسد، والنبات كحنظلة، والحشرات كحنش، والأرض كصخر.

ومن كل هذا كنا نميل إلى أن الكثير من أسماء البطون والقبائل والأفراد في عبد القيس إنما جاء من تأثير البيئة عامة سواء أكانت تمت بصلة إلى الحيوان أم النبات أم الصحراء أم البحر أم الأرض وبيئة البحرين خاصة فزخارة من البحر الزاخر والدؤل حيوان بحري^(٩)، والزراع من الزراعة^(١٠)، ومصقلة من صقل السيوف، ونكره ولكيز ومحارب من القتال والشدة والحرب غير ذلك.

ونضيف إلى أثر البيئة صفة التفاؤل، فالعرب تتفاعل بالأسماء^(١١) في الشدة، والصلابة والصبر «فصبرة»، جد الأفكل للصبر، «وحطمة» للشدة والتحطيم وغيرها من الأسماء الدالة على طباعهم وصفاتهم.

أما الشعراء فليس أمامنا إلا أن نلجأ إلى الشعر الذي كان سبباً في تسمياتهم رغم أن لهم أسماء لكن تلك التسميات غلبت عليهم فالمتقّب هو عائد والممزق: شأس والمطلّع: ربعة والحصيصة: عامر، وأسوق هنا أبيات الشعر التي قالوها وكانت سبباً في ألقابهم وتسمياتهم^(١٢)، يقول المتقّب:

ظهري بكلة وسدلي رقماً
وثقّين الوصاوص للعيون

ويقول الممزق:

فإن كنت مأكولاً فكن خير أكلٍ
وإلا فادركني ولما أمزق

(١) الجاحظ: الحيوان ٣٢٤/١، ٣٢٦.

(٢) السيوطي: المزهري في اللغة ٤٣٦، الثعالبي: لطائف المعارف ٧٦، الجاحظ: البيان والتبيين ٢/٢٨٨.

(٣) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ٢٧٣.

(٤) انظر: دراسة شعر المحرب.

ويقول المطلع:

فإن لم أزر سعدى بجرد كأنها
صدور القنا يطلعن من كل مطلع

ويقول الحصيص:

قد حصت البيضة رأس امرئ
جلد على الأهوال صبار

أما المفضل «عامر بن معشر» فقد فضله قصيدته^(٢) التي تعرف «بالمنصفة»^(٤).

ولا بد لي من التعرف على تقاليد مجتمعهم ومنها:

١ - الحبوس: حبس بعضهم الممتلكات، وجعلها وقفاً على الفقراء والمحتاجين،
وقدموا الخيل للإغارة بها واكتساب الرزق عليها، وروي أن الريان بن حويص^(١) جعل
فرسه - الهراوه - موقوفة على العزاب من قومه فكانوا يغيرون عليها ويستفيدون المال في
الزواج، وكان الواحد منهم يدفعها إلى الآخر إذا انتهى منها ولذا قيل «أعز من هراوة
الأعزاب» وفيها قال الشاعر^(٢):

فيا من رأى مثل الهراوة منكحاً
إذا بل أعطاف الجياد جروح

٢ - سباق الخيول: عرفت هذه الرياضة البدوية المفضلة في الجاهلية^(٣) وهراوة
عبد القيس كانت تأتي سابقة لمختلف الخيول طيلة عشر سنوات^(٤)، وما حرب داحس

(١) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ٢٧٨.

(٢) ابن الكلبي: أنساب الخيل ٩٠.

(٣) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦٨١/٤.

(٤) الألوسي: بلوغ الأرب ٩٧/٣، ١٠٢.

(٥) الأحسائي نسخة المستفيد ٢٣.

(٦) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١٢١/٧.

(٧) انظر: الحياة الاقتصادية.

والغبراء، إلا مثال فيه التنافس على هذه الرياضة ولا تزال منطقة الخليج حتى يومنا هذا تمارس رياضة الخيول والجمال وتقيم لها الاحتفالات واشتهر العبيدون بتربية الخيول والجمال خصوصاً النجائب القطرية منها، يقول جرير^(٥):

لدي قطريات إذا ما تغولت

بنا البيد غاولن الحزوم الفيافيا

٣ - الصيد: شأن سائر القبائل عرف العبيدون صيد البر فاصطادوا الظباء والغزلان ولكنهم كذلك مهروا في صيد البحر وكان (الكنعد) مأكولاً طرياً من السمك^(٦) عندهم واحترفوا الغياصة وصيد اللؤلؤ^(٧).

٤ - التمثيل: لا نشك في أن عبد القيس تأثرت بالمراسيم والعادات المتبعة لدى الفرس وفي بلاط المناذرة، فأخذوا منها، وشاركوا فيها، ففي ميادين الفن والحفلات، قام الممثل سعد القرقرة^(١)، بمنادمة النعمان بن المنذر والإشراف على برامج الترفيه والتسلية في حفلات السمر، وكان القرقرة من أهل هجر، ويقول عنه الزركلي^(٢) إنه كان يقول الشعر ويضحك النعمان وقيل له «ما رأيك إلا وأنت تزيد شحماً وتقطر دماً» فقال: «لأنني أخذ ولا أعطي وأخطئ ولا ألام فأنا طول الدهر مسرور ضاحك» وقيل^(٣) أوتي النعمان بحمار وحشي فدعا بسعد القرقرة وقال «احملوه على اليحموم» وأعطوه مطرداً وخلوا عن هذا الحمار حتى يطلبه، فقال سعد: «إني إذا أصرع عن هذا الفرس فمالي ولهذا» وأصر النعمان على أن يعمل بسعد كما أمر ورجاه سعد لكن ذلك لم يكن وركض الفرس وتعلق سعد بعرفه فضحك النعمان ثم أدرك سعد فأنزل عنه، ومن شعره:

(١) ابن منظور: اللسان ٨٩/٥، الثعالبي: ثمار القلوب ٨٤.

(٢) الزركلي: الأعلام ١٣٦/٣.

(٣) البكري: فصل المقال ١٧٧، السيوطي: شرح شواهد المغني ٢٨٦.

(٤) ديوان المنقب العبيدي ص ٢٠٠.

(٥) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٣١٧/٧.

(٦) البكري: معجم ما استعجم ١٣٦٧.

نحن بغرس الودي أعلمنا
منا بركض الجياد في السلف
يا لهف نفسي وكيف أطلعنه
مستمسكاً واليدان في العرف

وإلى جانب ذلك عرف العبيدون الحرس من الشرطة والبوابين^(٤) على قصور الملوك
كما استخدموا الحرس في تجارة القوافل^(٥) ومن الأدلاء الذين اشتهروا باجتياز المفازة
دعيميص الرمل العبدى^(٦).

٥ - التعاويذ والتمايم: عرف مجتمع عبدالقيس التمايم، واستعان بالتعاويذ،
والأنجاس، في شفاء المريض، كما علقت الأدوات النحاسية على صدره، وذهبوا في
اعتقادهم إلى أن تعليق الأقذار النجسة، تقي من العين والأرواح الخبيثة، وتبعد الموت، لكن
الممزنق العبدى أدرك أن تلك التمايم لا تفيد كما لا ينفع كذلك الكاهن والطبيب، إذا حضر
الموت^(١).

وكانوا يعلقون الحلي والجلال على اللديغ زاعمين أنه يفيد^(٢) ويصحو حتى لا
يصيبه الأذى^(٣):

فبت أضم الركبتين إلى الحشا

(١) البحري: الحماسة ٩٧ وانظر: ديوان عبدالقيس.

(٢) الحوفي: الحياة العربية في الشعر الجاهلي ٤٩٨، ٥٠٧.

(٣) ديوان المثقب ٢٣٨.

(٤) نفس المصدر ٢٤٩.

(٥) النويري: نهاية الأرب في فنون العرب ١١٧/٣.

(٦) ديوان المثقب ٣٢، تعزف جناته: الجن، منفهق: واسع، البرجد: الثوب.

كأنني راقي حية أو سليمها

وزعموا أن الإنسان إذا قتل ولم يطالب بثأره أحد خرج من رأسه طائر يسمى الهامة، وصاح على قبره: «اسقوني» إلى أن يؤخذ بثأره^(٤).

وعرفوا عذيف الجن^(٥) وهو صوت الرمال عندما تحملها الرياح وتعصف بها^(٦):

في لاحبٍ تعزفُ جنَّاته

مُنْفِهقِ القفرة كالبرجْدِ

وكان من أكبر كهانهم عمرو بن الجعيد وكذلك الرباب بن البراء.

٦ - المجالس: عرف العبيدون نظام المجالس، وناقشوا فيها مواقفهم وبحثوا أمورهم، وكانت مجالسهم على جانب كبير من الاتزان والتعقل والهدوء فهي ليست صاخبة الأصوات، ولا سفيهة الرجال، ويحدثنا المثقب عن مجلس خالد بن أنمار فيقول^(١):

مترع الجفنة، ربعي الندى

حسن مجلسه غير لطم

وفي مجلس يزيد بن الخذاق يتجمع العبيدون وهم يتحفزون للقتال ويقررون الهجوم على المناذرة^(٢):

فإن تبعثوا عَيْناً تمنى لقاءنا

تجد حول أبياتي الجميع جلوسا

ويتحدث الممزق عن مجلسه فيرى أن أبناء قبيلة نكره لا يردون الموت عندما يهجم

(١) ديوان المثقب العبيدي ٢٢٣.

(٢) المفضليات ٢٩٨.

(٣) البحري: الحماسة ٩٧.

(٤) ابن حبيب: أسماء المقتالين من الاشراف في الجاهلة (نوادير المحفوظات) ١١٧/٦ .

على الإنسان^(٣):

ولو كنت في بيت تسد خصاصه
حوالي من أبناء نكرة مجلس

وربما تداولوا في أمر الميسر الذي كان عادة مفضلة عند أغنيائهم، فيطعمون
المحتاجين ما ربحوه خاصة في أيام الشدة والجذب وأشهر من مارس هذه العادة من
رجال عبد القيس هداًج بن مالك وفيه يقول الشاعر العبدى بعد مقتله^(٤):

لعمري لقد أردت سيوف ابن ضجغم
غداة التقوا منا خطيباً وياسرا

ويقول زهير بن جناب:^(٥)

فجّعت عبد القيس أمس بجدها
وسقيت هداًجاً بكأس الأول

وكانت العادة عندهم إذا زاروا ملكاً أو وفدوا على عظيم، لبسوا أحسن ما عندهم من
ثياب، وتجميلوا بأبهى زينة وتحدثوا بأحسن الأحاديث وقد فعل مثل هذا الأشج العبدى،
حين وفد على الرسول عليه السلام^(١) فقد تخلف في الركاب عندما وصلوا المدينة وأخرج
ثوبين أبيضين لبسهما وأقبل يمشي حتى أخذ بيد الرسول عليه السلام وقبلها وكان
الأشج رجلاً تقتحمه العين فصعد فيه الرسول بصره ثم قال له «إن فيك خلتين يحبهما الله
ورسوله الحلم والأناة» فقال الأشج: «يا رسول الله، أتخلق بهما أو جبلني الله عليهما»،
قال «بل جبلك الله عليهما» وفي مسند الإمام أحمد رضي الله عنه أن الرسول عليه السلام
قال «اللهم اغفر لعبد القيس»^(٢).

(١) ابن سعد: الطبقات ٥/٥٥٨ .

(٢) الأنصاري: تحفة المستفيد ٦٣/١ ومسند الإمام أحمد ٤/٢٠٥ .

(٣) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٥/٢٩، ٣٤.

٤ - الحياة الاقتصادية

١ - الزراعة:

تقول أسطورة قديمة «إن الاله أنكى إله المياه العذبة، تجول في البحرين فوجدها أرضاً مقدسة، طاهرة، لا ينعب فيها غراب، لا أحد يمرض ولا يشيخ ولا يتألم، فبارك أنكى أرض البحرين بالماء العذب ومنحها كل فواكه الأرض، وصاح دع دلمون تصبح ميناء العالم كله»^(١).

هذه الأسطورة السومرية القديمة تقرر لنا وفرة المياه منذ العصور السحيقة في البحرين وتؤكد صلاحية أرضها للزراعة وكثرة الفواكه فيها، ويشير ياقوت الحموي^(٢) إلى أن البحرين بلاد واسعة فيها عيون ومياه غزيرة وذكر أبو الفداء^(٣) أن بها كروماً كثيرة ونخلاً ومزارع وعيوناً جميلة، والخضري^(٤) في بحثه عن الخليج العربي يذكر أن البحرين اشتهرت بإنتاجها الوفير من التمر، ويعدد القزويني^(٥) المحاصيل التي تزرع فيها ومنها الحبوب والموز والرمان والتين.

ومن كل هذا نرى أن البحرين اشتهرت بالزراعة فأرضها خصبة وهي واسعة شاسعة تغمرها المياه وتسقيها العيون ولذا كانت تزخر بالمدن والقرى العامرة بالسكان^(٦).

وكان طبيعياً أن تعمل عبدالقيس في هذا الميدان فتزرع النخيل وتعتني به وتقوم بزراعة المواد الغذائية، وهذا واضح في أخبارهم وأشعارهم فالمنذر بن ساوى حاكم عبدالقيس في البحرين غرس في أرض هجر نخلاً كثيراً^(٧).

(١) الخليفة والحر: البحرين عبر التاريخ ٦٦ والعدد الخاص عن البحرين ١٩٧٠، ودلمون: هي التسمية القديمة للبحرين.

(٢) ياقوت: معجم البلدان ٣٤٦/١.

(٣) أبو الفداء: تقويم البلدان ٩٩.

(٤) الخضري: البحرين حبة اللؤلؤ في عقد الوطن العربي ٢ - ١٠.

(٥) القزويني: آثار البلاد ٢٨٠.

(٦) انظر: منازل عبدالقيس.

(٧) العبيدي: البحرين من إمارات الخليج العربي ٣٣٢.

وعندما عاد وفد العبديين من المدينة بعد مبايعة الرسول عليه السلام أكثر من غرس النخيل^(١)، وصحار العبد^(٢) الخطيب قال في النخيل «إنا لنعلم أن الريح لتلقحه، وإن القمر ليصبغه، وإن الحر لينضجه» وهذا كلام رجل خبير بشؤون النخل وزراعته، وكان بنو عامر من عبدالقيس يسمون «عامر النخل»^(٣) لعنايتهم به ورعايتهم له.

وهذا شاعر يقول^(٤):

**ولست بسعدي على فيه حبرة
ولست بعبدى حقيبته التمر**

ويورد البلاذري^(٥) كتاب أهل هجر إلى العلاء الحضري «بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما صالح عليه العلاء بن الحضرمي أهل البحرين، صالحهم على أن يكفونا العمل ويقاسمونا التمر، فمن لم يف بذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» وفي كتاب آخر «أما بعد فإنكم أقمتم الصلاة وأتيتم الزكاة، ونصحتم لله ورسوله وأتيتم عشر النخل ونصف عشر الحب».

وكانت منطقة الأحساء - هجر - وسائر المناطق في البحرين تشتهر بنخيلها بل كانت المصدر الكبير لتموين الجزيرة العربية بالتمر^(٦) أما القطيف^(٧) عاصمة البحرين قديماً فاسمها مشتق من قطف النخيل والعنب لتوفرهما فيها.

وبعد، أفلا تكفي هذه الأدلة والإشارات إلى أن عبدالقيس عرفت الزراعة واهتمت بها.

(١) الأحسائي: تحفة المستفيد ٦٣/١ وقد أشار الرسول عليه السلام إلى أن البرني خير التمر وأنفعه في بلاد عبدالقيس.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين ٩٦/١ .

(٣) ابن دريد: الاشتقاق ٣٢٤ .

(٤) ابن دريد: جمهرة اللغة ٢١٩/١ .

(٥) البلاذري: فتوح البلدان ١٠٢ .

(٦) ابن سعد: الطبقات ٤١١/٥ والإصابة ١٧١/٢ .

(٧) ابن بليهد: صحيح الأخبار ١١٢/٣ وتقويم البلدان ٩٩.

والعرب تهتم بالنخيل وزراعته لأنه مادة الغذاء الرئيسية لديهم، وجزيرة العرب بيئة خصبة لزراعته ذلك لأنه يقاوم العطش ويكتفي بقليل من الماء ولذا أصبحت النخلة رمزاً شامخاً من رموز الصحراء^(١) وكانت بعض المناطق تشتمل على مزارع واسعة للنخيل واصبحت مضرب المثل في كثرة نخيلها وينابيع مائها وجمال هوائها كخيبر وهجر والبحرين والطائف والمدينة والأحساء وكانوا يقولون كحامل التمر إلى هجر^(٢).

ويحملهم منظر النخلة وقد تدلت عذوقها على عقد مقارنة جميلة بينها وبين ظعون الأحبة^(٣) ولشجرة النخيل قدسية بالغة فهي من أقدم الأشجار في العالم ويقال إن سكان البحرين الأوائل وهم الفينيقيون قد اهتموا بها وأن معنى فينيقيس هو نخلة^(٤) وعندما جاء الإسلام أبقى للنخلة مكانتها وأهميتها^(٥) وتزرع الآن في منطقة البحرين أكثر من مليون شجرة نخيل بأصنافها العديدة وأنواعها الكثيرة وتعرف البحرين في المصادر الحديثة بجزيرة المليون نخلة^(٦)، وأما هجر فتشتهر بتمرها وقديماً قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه «عجت لتاجر هجر وراكب البحر» مشيراً إلى الأخطار التي يتعرض لها كل منهما^(٧).

ولم تكن النخلة مصدر غذاء لدى العرب فحسب وإنما استخدمت جذوعها في عمل سقف البيوت والمنازل والحوانيت^(٨) ومن أليافها استخدمت الحبال ومن سعفها الحصر، كما استخدمت أخشابها في صناعة السفن^(٩) أما نواها فكان يستخدم علفاً للخيول والأبل والماشية ولهذا يقول المثقب العبدى^(١٠):

(١) القيسي: الطبيعة في الشعر الجاهلي ٧٠ .

(٢) الميداني: مجمع الأمثال ١٢٩/٢ .

(٣) القيسي: الطبيعة في الشعر الجاهلي ٧١ .

(٤) المسلم: ساحل الذهب الأسود ٦٦ .

(٥) القرآن الكريم.

(٦) موسوعة الخليج العربي ٢٥ .

(٧) الزبيدي: تاج العروس ٦١٤/٣ .

(٨) القيسي: الطبيعة في الشعر الجاهلي ٧١ .

(٩) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١٥/٧ .

(١٠) ديوان المثقب ١٧١ .

كساها تامكا قُرداً عليها

سوادي الرضيع مع اللجين

وليست النخلة هي الشجرة الوحيدة التي كانت تلقى اهتماماً في البحرين بل اشتهرت تلك البلاد بزراعة شتى أنواع الخضار والفواكه والحبوب وكانت الزراعة عندهم تشمل الحنطة والشعير والعنب والزيتون^(١)، فالأحساء شهيرة بجودة تربتها وكثرة مزروعاتها، ولهذا يشير أحد الشعراء العبيدين قائلاً^(٢):

ألا حبذا الأحسا وطيب ترابها

وركالها غاد علينا ورائح

وهذا الشاعر جرير في هجائه لعبد القيس يقول^(٣):

كم عمة لك يا خليلد وخالة

خضر نواجذها من الكراث

فالكراث والقيصوم والجثجاث نباتات سهلة في أرض عبد القيس وجرير هنا يعير خليلد عيني «الشاعر العبيدي» بأن قومه العبيدين أهل زراعة وكانت العرب تدم أهل الزراعة.

وكانت منطقة القطيف وتاروت تنتج أنواعاً جيدة من العنب وتزرع فيها الكروم^(٤)، أما هجر فكان يزرع فيها القطن^(٥)، وقيل: إنه استعمل في نسيج الثوب الهجري وزرع فيها النخيل وفي نخلها قال الشاعر^(٦):

(١) البكري: المسالك والممالك ٢١٧ .

(٢) المرصفي: رغبة الأمل ٩١/١ .

(٣) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ٢٨٥ .

(٤) أبو الفداء: تقويم البلدان ٨٣.

(٥) القزويني: آثار البلاد ٢٨٠ .

حبسن بين رملية وقف وبين نخل هجر الملتف

وكانت هجر الممول الرئيسي للجزيرة بالتمر^(١).

أما الموز والرمان والتين فينمو في أوال^(٢) وأشهر المناطق الزراعية قطر^(٣) وكاظمه^(٤) وهجر^(٥) والقطيف^(٦).

وعرفت أرض عبدالقيس شجر السدر والنبع، واستخدمته في صنع القسي^(٧)، وكان النبع دليل قوة، والسدر علامة ضعف، فالنبع شجر القمم والجبال، عوده أصفر، وإذا تقادم عهده يصبح أحمر اللوم، ويقول المفضل^(٨):

وجدنا السدر خواراً ضعيفاً
وكان النبع منبته وثيق

وعرفت منطقة عبدالقيس الأراك، والغرف، والرمث، والأثل، والطرفاء، من النباتات الصحراوية^(٩).

واشتهرت بلاد عبدالقيس بتربية النحل الذي كان يتغذى على تلك المزروعات والأشجار والبساتين فالمسيب البكري^(١٠) الذي عاش على أرض البحرين أشار إلى النحل كما وردت

(١) ابن سعد: الطبقات ٤١١/٥ .

(٢) القزويني: آثار البلاد ٢٨٠ .

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) البكري: معجم ما استعجم ٧٧٠ .

(٥) ابو الفداء: تقويم البلدان ٨٣ .

(٦) نفس المصدر السابق.

(٧) الزبيدي: تاج العروس ١٩/٨ .

(٨) الأصمعيات ١٩٩ .

(٩) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب ٨٤/٧ .

(١٠) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب ١١٤/٧ والشعر والشعراء ١٧٦/١ .

(١١) ديوان المثقب ١١٠ .

إشارات خفيفة لذلك في شعر العبديين من ناحية اليعاسيب^(١).

ولقد اشترك مع عبدالقيس في حقل الزراعة جيرانها فالحيرة عرفت الزراعة^(٢) واعتنت بها وكانت ملأى بمزارع النخيل والبساتين وتصدر الخمور إلى الجزيرة، أما اليمامة فكانت بلداً زراعياً اشتركت مع هجر في تموين الجزيرة بالتمور والحبوب^(٣) وعملت مدن أخرى في ميدان الزراعة فالأوس والخزرج في المدينة، وثقيف في الطائف، وطى في جبل سلمى وهذيل في مناطقها^(٤) ولذا فلا قيمة لما يقال أن العرب كانوا يهملون جانب الزراعة ولا يعتنون بها^(٥) فالحضر المستقرون لابد وأن يتعاطوا الزراعة.

أما الشعراء الذين أشاروا إلى الزراعة على أرض البحرين في منطقة عبدالقيس فمنهم امرؤ القيس وفي أخباره أنه رحل إلى الحيرة ماراً بالبحرين فوصف نخلها وبساتينها التي كانت لبني الربداء من آل يا من ويبدو أن ابن يامن هذا كان إقطاعياً كبيراً يملك السفن والأراض الواسعة لزراعة النخيل^(٦).

سوامق جبار أثيث فروعه

وعالين قنواناً من البسرا حمرا

وأشار الأعشى إلى نخل ابن يامن فقال^(٦):

فلما استقلت قلتُ : نخل ابن يامن

(١) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب ٨٥/٧ .

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) عطوان: مقدمة القصيدة الجاهلية ٤١ - ٥٢ .

(٥) ديوان امرئ القيس: ص ٩١ المكرعات: النخل الذي غرس في الماء، ابن يامن: بحار مشهور من عدولي بالبحرين، وهو تاجر وصاحب مزارع، الصفا والمشرق: من منازل عبدالقيس، سوامق: مرتفعات، أثيث: ملتف، القنوان: قطوف النخل، البسر: التمر، أقر: ثبت ونضج.

(٦) ديوان الأعشى: ص ١٠ .

أَهْنُ أُمِّ اللّاتِي تُرَبْتُ يَتَرَبُّ

واشتهرت عين محلم ومنطقتها بالنخيل فقال بشر بن خازم^(١):

كَأَنَّ حُدُوجَهُمْ لَمَّا اسْتَقْلَوْا

نَخِيلٌ مُحَلَّمٌ فِيهَا يَنْوُوعُ

وذكر المتلمس الضبعي المزارع والأرض الخصبة في معرض حديثه للنعمان ملك الحيرة الذي هدد بحرق المزروعات^(٢) :

هَلُمَّ إِلَيْهَا قَدْ أَثِيرَتْ زُرُوعُهَا

وعادت عليها المنجنون تكس

وكانت قبيلة إباد في أرض البحرين وبعد رحيلها إلى العراق مشهورة بالزراعة.

ومن الأخبار والأشعار ندرك أن العرب اهتموا بالزراعة ولم يأنفوا منها لكن الطبقة التي كانت تعمل في الحقل الزراعي هي غير المحاربين ومن هنا جاء احتقار الفرسان للزراعة فالمزارع ليس رجلاً للحرب.

ولا أحب أن أغادر ميدان الزراعة دون أن أعرج على أبيات ثعلبة بن عمرو^(٣) الذي رسم لنا لوحة بديعة الألوان والأشكال لأرض واحف الزراعية في البحرين، فقد وصف الأمطار وما تحدثه العهود في الأرض الزراعية إذ تترك فيها رسوماً وزخارف من الخطوط والألوان وبعد الشتاء تلبس الحلة الخضراء وكأنما خطتها يد رسام ماهر^(٤):

فَمَا أَحْدَثَتْ فِيهَا الْعُهُودُ كَأَنَّمَا

تَلْعَبُ بِالسَّمَانِ فِيهَا الزَّخَارِفُ

(١) ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي ص ١٣٠.

(٢) ديوان المتلمس الضبعي: ص ١٢٣.

(٣) المفضليات ٢٨١.

(٤) انظر: ديوان عبدالقيس.

أكب عليها كاتب بدواته يقيم يديه تارة ويخالف

٢ الصناعة:

قامت في البحرين - أرض عبد القيس - صناعات عديدة وأشهرها .

١ - الأسلحة: صنعت عبد القيس الأسلحة والمعدات الحربية الضرورية هجومية ودفاعية كالرماح والدروع وصدرتها إلى أنحاء الجزيرة العربية^(١).

وكانت إحدى مدن خط عبد القيس^(٢) هي التي تقوم بصنع الرماح ولذا دعت بالخطية نسبة إلى تلك المدينة.

وقد اختلف في المقصود بالخطية أو الخط، فالأصمعي يقول: ^(٣) « الخطية جزيرة في البحرين، ترفأ إليها السفن من الهند»، والفيروز أبادي يذكر^(٤) أن الخطية مرفأ بالبحرين تباع فيه الرماح، ويرى ابن سيده^(٥) أن الخطية مرفأ السفن بالبحرين وقيل: هي قرية في البحرين كانت السفن ترفأ إليها في القديم .. ويقول صاحب لسان العرب^(٦) الخط أرض تنسب إليها الرماح الخطية. قيل وهو خط عمان، وقال أبو منصور وذلك السيف كله يسمى الخط ومن قراه القطيف والعقير وقطر وقال الجوهري: إن الخط موضع باليمامة وهو خط هجر تنسب إليه الرماح الخطية لأنها تحمل من بلاد الهند تقوم فيه^(٧) وقال شارح ديوان

(١) ابن دريد: جمهرة اللغة ٦٧/١.

(٢) انظر منازل عبد القيس.

(٣) ديوان عامر بن الطفيل ١٣٧.

(٤) نفس المصدر السابق.

(٥) ابن منظور: لسان العرب ٢٩٠/٧.

(٦) نفس المصدر السابق.

(٧) نفس المصدر السابق.

(٨) ديوان حسان بن ثابت ١٣١.

(٩) الخصري: موسوعة الخليج العربي ص ٧.

حسان^(٨) بن ثابت: الخطي الرمح المنسوب إلى الخط، ويقول صاحب موسوعة الخليج العربي^(٩) : اشتهرت الخطية بصناعة الرماح وتفوقت فيها على القطيف وقطر.

وأياً كان الخلاف بين هذه الأقوال فالذي نطمئن إليه:

أولاً: أن مكاناً في خط عبد القيس - ولعله الخطية^(١) هو الذي كان يبيع الرماح.

ثانياً: وهذا المكان مرفأ شهير، ترفأ إليه السفن وهي تحمل القنا^(٢) لتثقيف الرماح وتصنيعها.

ثالثاً: سكان هذا الخط من العبيدين هم الذين كانوا يقومون بتثقيف الرماح وصناعتها ثم بيعها.

ويؤيد ما نذهب إليه أن الأعشى أشار صراحة إلى الرماح العبدية عندما قال^(٣):

ونحن رددنا الفارسيين عنوة

ونحن كسرنا فيهم رمح عبدل

ولا قيمة لما يقال من أن سفينة وقعت إلى الخط فيها رماح وأرقت بها في بعض السنين فقل لتلك الرماح - الخطية - ثم عم كل رمح هذا النسب إلى اليوم^(٤). ولا يعقل أن يتحدث الشعر الجاهلي عن الرماح الخطية حديثاً طويلاً لمجرد سفينة وقعت إلى الخط ذات مرة وفيها رماح^(٥).

(١) في قطر حالياً مدينة تسمى الخطية قريبه من جزيرة البحرين فيبدو أنها نفس المكان الذي كان مرفأ للسفن ومصنعاً للرماح في الجاهلية.

(٢) المفضليات ٦٩١.

(٣) ديوان الأعشى ص ٣٥٥.

(٤) ديوان عامر بن الطفيل ١٣٧.

(٥) انظر: صفحة ٥٣.

(٦) صالح العلي: التنظيمات الاجتماعية في البصرة ٢٧١.

وما دامت الأخبار تؤكد أن السفن تحمل القنا وترفأ إلى الخط أو الخطية في بلاد
عبدالقيس وأنهم كانوا يستوردون الحديد من بلاد فارس^(٦) فلا نستغرب قيام هذه
الصناعة خاصة وأن المواد الخام الحديد والقنا لصناعتها متوفرة عندهم.

وإذن فلا مناص من أن نقول بصنع الرماح في أرض عبدالقيس في العصر
الجاهلي.

وأكبر صفة مميزة لهذه الرماح أنها من النوع الأسمر وورد ذكرها كثيراً في شعر
الجاهليين فعامر بن الطفيل يقول فيها^(١):

وأسمر خطي وأبيض باتر
وزعف دلاص كالغدير المثوب

ويحدث الشعر بأن الرمح الخطي طويل فحاتم الطائي يصف طول الرمح الأسمر بأنه
يربو على عشرة أذرع^(٢):

وأسمر خطياً كأن كعوبه
نوى القسب قد أركى ذراعاً على العشر

والرمح الخطية أيضاً حادة السنان، متوقدة الظبابة فالأعشى يقول فيها^(٣):

تخال ذوابل الخطى في حافاتهما أجما

ويصفها عمرو بن كلثوم^(٤) بأنها لينّة، سهلة النفاذ، سريعة الاختراق:

بسمر من قنا الخطي لدن

(١) ديوان عامر بن الطفيل ١٥٢.

(٢) شيخو: شعراء النصرانية ٢٠٤.

(٣) ديوان الأعشى ٤٣.

(٤) شرح المعلقات للزوزني ١٢٤.

(٥) الأخفش: كتاب الاختيارين ٦٦٨.

(٦) الرمح قسمان: العالية - مقدمة الرمح من جهة السنان، والسافلة - أول الرمح من جهة الزج.

ذوابل أو بيض يعتليننا

وهذه صورة رائعة للرماح العبدية^(٥) في الخط فاسنتها بيضاء وأعاليتها قوية حادة،
وأسافلها شديدة صلابة^(٦):

رماح من الخطي زرق نصالها

حداد أعاليها، شداد الأسافل

وذكر العبديون رماحهم بأنها عالية وطويلة وحادة السنن، وأكثرها من ذكرها في
أشعارهم فشاعرهم يقول^(١):

وسمر من الخطي ذات أسنة

وبيض كأمثال البروق بواتر

وفي حكيم عبدالقيس رثاب الشني يقول الشاعر^(٢):

رثاب وإنى للبرية كلها

بمثل رثاب حين يخطر بالسمر

ومالك بن عروة يقول^(٣):

فلا تستريثونا فإننا كأننا

وسمر العوالي فيكم اليوم أو غدا

وتحدث ثعلبة بن عمرو حديثاً طويلاً عن الأسلحة العبدية سنذكرها في شعر
الحرب^(٤).

(١) ابن الشجري: الحماسة الشجرية ٦/١.

(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٢٠٥/٣.

(٣) البحتري: الحماسة ٣٠.

(٤) انظر: شعر الحرب.

(٥) ابن رشيق: العمدة ٢٣٣/٢، بلوغ الأرب ٦٤/٢.

أما أنواع الرماح فهي: ١ - الخطية، ٢ - الردينية، ٣ - السمهرية، ٤ - الخرصانية.

فالخطية هي الرماح التي تحدثنا عنها وذكرنا أنها سمراء، ملساء لينّة، صلبة الطعن، حادة السنان، طويلة، متقنة الصنع^(٥).

والردينية نسبة إلى امرأة^(١) كانت تقوم الرماح بالخط في البحرين وذكرت الخنساء الرماح الردينية وهي ترثى أخاها صخرًا فقالت^(٢):

ولم يعد في خيل مجنبه القنا

ليروي أطراف الردينية السمر

والسمهرية نسبة إلى سمهر^(٣) وهو زوج ردينة اما الخرصانية فنسبة إلى خرصان وهي قرية بالبحرين تباع فيها الرماح^(٤).

وهذه الرماح كلها من صنع العبيدين لعدة أسباب أهمها:

أن الرماح الردينية سمراء ، وأن ردينة امرأة من الخط فهي من سكان عبدالقيس وزوجها سمهر وكان الاثنان يتقفان الرماح ويبيعانها، والخرصان بلد في البحرين، وهذه الأنواع تختلف عن غيرها من الرماح الهندية لقول الشاعر^(٥):

بأيديهم سمر شداد متونها

من الخط أو هندية أحدثت صقلا

(١) النويري: بلوغ الأرب ٦٤/٢.

(٢) البحري: الحماسة ٢٧١.

(٣) السهيلي: الروض الأنف ٢١٢/٢، وفي العمدة ٢٣١/٢.

(٤) كحالة: جغرافية شبه جزيرة العرب ٢٦١ .

(٥) البكري: معجم ما استعجم ٥٠٣/٢ .

(٦) المفضليات: ٤٢٦ وتاريخ جواد علي ٤٢٦/٥ .

(٧) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١٤٧/٧، ٢٥٧ .

فالرماح الخطية في قراءة لهذا البيت غير الرماح الهندية ، فقد قيل: إن الرماح تصنع من القصب الهندي^(٦) ويجري تثقيفها في الخط ونحن لا نستبعد أن تكون أخشاب عمان قد استعملت في صنع الرماح الخطية^(٧).

ومن أنواع الرماح وأصنافها وموادها الخام جاز لنا أن نعتقد أن الخط (أو الخطية) احتل مركزاً هاماً في صناعة الرماح.

وقيل: إن الأقبان هم الذين كانوا يعملون في الصناعات عموماً^(٨) ولكن الذي نريد ذكره أن بعضاً من قبيلة عبدالقيس قام بصنع الأسلحة إذ لا يعقل أن يتولى الأقبان صنعها دون غيرهم بل أذهب إلى الاعتقاد في أن العبيدين استخدموا في مراكز صناعاتهم هؤلاء الأقبان من العبيد فتعلبة بن عمرو كان يصنع أسلحته ويخزنها لوقت الحاجة وهو يقول^(٩):

وصفراء من نبيع سلاحي أعدها

وأبيض قصال الضريبة جانف

ومن أدلة اهتمام العبيدين بهذه الأسلحة وصناعتها أن أسماء شخصياتهم جاءت من الصقل والتثقيف كما في مصقلة بن رقة^(١٠)، ويؤكد الدباغ أن صناعة الرماح اشتهرت في قطر^(١١).

والعبيدون أمة حرب^(١٢)، يستخدمون الرماح من أسلحة الهجوم أكثر من غيرها، فالرمح سلاح الفرسان والصعاليك ذكره الشعراء مقترناً بخيولهم لعروة بن الورد^(١٣)

(١) نفس المصدر السابق ٤٢٤/٥ .

(٢) المفضليات: ٢٨١ .

(٣) ابن دريد: الاشتقاق ٣٢٧ .

(٤) الدباغ: قطر ماضيها وحاضرها ١٣٤ .

(٥) انظر: شعر الحرب.

(٦) يوسف خليف: الصعاليك ٢٠٢ .

يتحدث عن رمحه الخطي الأسمر، وجواده الشهير :

وأسمر خطي القناة مثقف

وأجرد عريان السراة طويل

وإلى جانب الرماح من الأسلحة الهجومية صنع العبيدون الدروع من الأسلحة الدفاعية وتروي الأخبار^(١) أن الحطمة بن محارب من عبدالقيس هو الذي كان يصنع الدروع وسميت حطمية نسبة إليه.

وتذكر بعض المصادر^(٢) أنه الحطم بن محارب بينما يرى البكري^(٣) أنه هزير بن زيد من بني شن وأنه من مدينة الخط في البحرين.

والذي أراه أن رجلاً من عبدالقيس ومن خط عبدالقيس وهو حطمة بن محارب كان يصنع الدروع ويبيعها وقد ورد ذكرها في أشعار الجاهليين وفي المفضليات:

مضاعفة جدلاء أو حطمية

تغشى بنان المرء والكف والقدم

ومن كل ما ذكرنا في الرماح الخطية والدروع الحطمية يتبين لنا أن.. منطقة الخط في البحرين قد بلغت مستوى جيداً في صناعة هذه الأسلحة وأن العبيدين سكان الخط في البحرين هم الذين مهروا في هذه الصناعة الهامة.

٢ - صناعة السفن: عرفت عبدالقيس هذه الصناعة، وساعد على قيامها موقع البحرين ومنازل العبيدين على طول امتداد الخليج العربي، أهم طريق للمواصلات بين الشرق والغرب واحتكاك العبيدين وسكان البحرين بشعوب عرفت الملاحة وعبرت البحار كالهنود والصينيين والفرس ولذا يمكننا أن نقول: إن طبيعة منازل عبدالقيس فرضت جواً

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٣/٣٠٥، والمفضليات: ٦١٣ .

(٢) الألوسي: بلوغ الأرب ١/٦٦ .

(٣) البكري: معجم ما استعجم ٢/٥٠١ .

(٤) النجم: البحرين في صدر الإسلام ٨٤.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١/٣٩٧، والأحسائي: تحفة المستفيد ١/٥٧ .

من الاتصال بالبحر^(٤).

وفي حملة عبدالقيس على بلاد فارس أيام سابورزي الأكتاف^(٥)، عبرت جموع العبيدين في سفن بحرية إلى تلك السواحل واحتلتها، ويبدو أنه كان لديها أسطول صغير من السفن يستخدم في الغزوات والحروب والتجارة، وإلا كيف نفسر عبور العبيدين إلى تلك السواحل؟ وشجعت الدولة الساسانية التجارة والملاحة البحرية في البحرين وأنشأت موانئ منها الخط^(٦).

وفي حروب الردة، وعندما لحق المسلمون بالحطم البكري في أرض داريين كانوا يركبون السفن^(٧) وفي الاخبار أن عثمان بن العاص والي البحرين في الإسلام أبحر إلى ساحل عمان^(٨)، فمن أين جاءت سفن المسلمين هذه؟

وليس صحيحاً ما قيل عن العرب في الجاهلية أنهم لم يملكوا سفناً لعبور البحر، وأنهم كانوا يخافون خوض غماره، وركوب مياهه^(٩)، ويعلل ابن خلدون عدم ركوب البحر أنهم لم يكونوا مهرة في ركوبه، وإن ثقافتهم عنه كانت قليلة^(١٠)، والحقيقة التي لا مناص منها أن قلب الجزيرة العربية كان بعيداً عن البحر فلم يلق منها ومن شعرائها عناية واهتماماً، أما المناطق الساحلية كالبحرين واليمامة وأرض الخليج فقد عرف سكانها هذا الخلق العظيم وركبه من عبدالقيس خلق ضعيف نشيط، وكان من البحرين وعمان ملاحون مهرة^(١١).

وتؤكد النقوش السومرية صلات بحرية بين البحرين والعراق وأن الخشب كان يجلب

(١) سعاد ماهر : البحرية في مصر ٥٦ .

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٣٧٠/٢ .

(٣) البلاذري: فتوح البلدان ٣٧ .

(٤) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٢٤٣/٧ .

(٥) سعاد ماهر : البحرية في مصر الإسلامية ٦٣ .

(٦) نفس المصدر ٦٨ .

(٧) نفس المصدر ٥٦ .

(٨) الخليفة الحمر : البحرين عبر التاريخ ص ٥٠ .

من عمان لصناعة السفن والإبحار بها^(٧).

وتذكر الأخبار^(٨) أن الخليج العربي عرف الازدهار التجاري منذ القرون الأولى للميلاد عندما كانت موانئه تعج بالحركة وتستورد البضائع والمنتجات من الهند والصين، ويرى المؤرخ أمانبوس^(٩) أن عرب الخليج كانت لهم عدة موانئ وأنهم كانوا على مقدرة فائقة في استغلال ثروات البر والبحر، وكانت الأخشاب التي تبني منها السفن عندهم تستورد من الهند، وتجلب في بعض الأحيان من المناطق الشجرية والغابات في أرض عمان وعبد القيس^(١٠).

وكانت لعبد القيس موانئ بحرية عديدة واشهرها الخطية أو الخط^(١١) والعقير^(١٢)، ودارين^(١٣)، والزارة^(١٤)، وغيرها^(١٥)، فالبحر والموانئ والموقع كلها تضعنا أمام حقيقة صنع العبيدين للسفن وركوبهم البحر.

ويؤكد ويلسون^(١٦) حقيقة وجود عدد من الجزر البحرية في الخليج العربي وقد اشتهرت بصناعة السفن وفيها موانئ شهيرة كالخطية وعدولى^(١٧) وأراك في البحرين.

ويشير جواد علي إلى أن عدولى اشتهرت بصناعة السفن^(١٨) واستخدموا طرقاً

(١) الخصري: موسوعة الخليج العربي ١٧.

(٢) سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية ٥٥.

(٣) ابن دريد: الجمهرة ٦٧/١، الهمداني: صفة جزيرة العرب ١٧٩.

(٤) ياقوت: معجم البلدان ٦٩٩/٣، والهمداني: في صفة جزيرة العرب ١٣٦.

(٥) ياقوت: معجم البلدان ٥٣٧/٢، وفي معجم البكري ٥٠٤.

(٦) نفس المصدر ٩٠٧/٢، وفي مروج الذهب ١١١/١.

(٧) انظر: منازل عبد القيس.

(٨) الخصري: موسوعة الخليج العربي ٧.

(٩) قيل: إنها قرية بالبحرين وقيل هي أسماء سفن وقيل اسم رجل أو قبيلة، جواد علي ١٠٨/٨.

(١٠) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١٢١/٨.

(١١) بشير يموت: شاعرات العرب ٩٧.

(١٢) النجم: البحرين في صدر الإسلام ص ٥.

للمواصلات بين العراق والبحرين وكانت سفن بني عباد وسفن أوال هي التي تقوم على هذه الطرق^(١١)، واشتهر أيضا الشراع الداري نسبة إلى دارين في التجارة والمواصلات^(١٢).

ويتحدث الشعر عن السفن فيورد المثقب في نونيته السفينة المدهونة الطويلة والتي تمخر عباب البحر وتشق أمواجه^(١).

يشق الماء جؤجؤها وتعلو

غوارب كل ذي حذب بطين

وفي نفس النونية وصف طعائن فاطمة فقال^(٢):

وهن كذاك حين قطعن فلجاً

كأن حدوجهن على سفين

وفي ناقلته التي تحمله وتمضي في تمايلها يقول^(٣):

كأني وأقتادي على حمشه الشوى

يجور صراري بها ويقيمها

وفي أماكن سيرها وعبورها يقول^(٤):

على طرق عند البراعة تارة

توازي شريح البحر وهو قعيدها

(١) ديوان المثقب ص ١١٨، الغرواء: السفينة الطويلة، والماهرة: السليحة، والدهين: المدهونه، والغوارب:

الأمواج، والحذب: المرتفع، والبطين: الواسع.

(٢) ديوان المثقب ص ١٤٨.

(٣) نفس المصدر ٢٤٩، الصراري: الملاحون.

(٤) نفس المصدر ٩٣، شريم البحر: خليج والبراعة: أرض.

فالمفردات القرواء الدهين، غوارب البحر، السفين، الصراري، شريم البحر، كلها ألفاظ بحرية وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على أن البحرين عرفت البحر واستخدمت السفينة واشتهرت بالملاحة.

وجاء ذكر السفن والبحر في شعر الجاهليين فعمر بن كلثوم يقول^(١):

ملأنا البر حتى ضاق عنا
وماء البحر نملؤه سفينا

فكيف لعمر بن أن يملأ البحر بالسفن لولا المعرفة التامة، بالبحر وصناعة السفن وامتلاكها؟ ومن المعروف أن ابن كلثوم رحل إلى الحيرة، والتقى بالملك ابن هند ويقال إنه هو الذي قتله^(٢).

وطرفة بن العبد يتحدث عن سفن عدولى وسفن ابن يامن فيقول^(٣):

كان حدوج المالكيه غدوة
خلايا سفين بالنواصف من دد
عدولية أو من سفين ابن يامن
يجور بها الملاح طوراً ويهتدي

ويضيع استغرابنا إذا ما علمنا أن عدولى ميناء لعبد القيس شهير بصناعة السفن وأن ابن يامن ملاح عبدي له سفن كثيرة^(٤).

(١) الزوزني: شرح المعلقات ٩٧.

(٢) الزوزني: شرح المعلقات ٩٧.

(٣) ديوان طرفة بن العبد ٦، عدولية: سفن منسوبة إلى قرية بالبحرين اسمها عدولى في أسفل من أوال وأوال أسفل من عمان. ابن يامن: ملاح من أهل حجر.

(٤) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١١٨/٨.

(٥) ديوان عمرو بن قميئة ص ٦٠.

وذكر الملاح العدولي الشاعر عمرو بن قميئة فقال^(٥):

هل ترى غيرها تجيز سراعاً

كالعدولي رائحاً من أوال

وحدثنا ابن مقبل عن سفن أوال^(١):

مال الحداة بها لعارض قرية

فكانها سفن بسيف أوال

فابن كلثوم أشار إلى البحر والسفن وطرفة بن العبد تحدث عن السفن العدولية وسفن ابن يامن وعرو بن قميئة ذكر السفن العدولية كذلك وابن مقبل أشار إلى سفن أوال، ونفهم من شعر ابن قميئة أن خطأً بحرياً كان بين عدولي وأوال^(٢)، ومن شعر ابن مقبل نطمئن إلى أن أوال مرفأ هام ومركز تجمع للسفن.

إن الأخبار والأشعار التي ذكرناها، تنهض الدليل على أن العبيدين عرفوا السفينة معرفة تامة وخاضوا غمار البحر، يصطادون أسماكهم، ويستخرجون لؤلئهم، ويتاجرون فيه بالسلع المتنوعة، ويعبرونه للقتال والحرب، ولا يعقل أن يعرف العبيد السفينة ويركبها ويستخدمها في مواصلاته، وشؤون حياته، ثم يقف عاجزاً عن صناعتها ولو بشكل يسير الأمر الذي يجعلنا نقول بصناعة السفن البسيطة من قبل العبيدين على أرض البحرين^(٣).

٣ - صناعة اللؤلؤ:

(١) ديوان تميم بن مقبل: ص ٢٥٦.

(٢) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١١٨/٨، عدولي: قرية بالبحرين وقيل اسم سفينة ضخمة وقيل اسم قبيلة وقيل اسم رجل يتخذ السفن صناعته والذي يبدو أنها مدينة اشتهرت بصناعة السفن.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) السعودي: مروج الذهب ١٤٨/١، ١٠٩.

(٥) العريض: من تراث البحرين الشعبي ٧٩ - ١٠٠.

(٦) نفس المصدر السابق.

تعتبر صناعة اللؤلؤ وصيده، من أقدم الصناعات التي عرفت بها البحرين وأشاد باللؤلؤ فيها الرحالة العرب، كالأديسي والمسهودي^(٤)، وذكره ياقوت وأبو الفدا^(٥) وتكثر مزارع اللؤلؤ وأماكن الغوص حول البحرين وفي الأحساء وقطر ودولة الإمارات العربية المتحدة^(٦). وهناك سفن خاصة لرحلات الغوص، كما أن مهنة الغوص ظلت إلى ما قبل خمسين عاماً المهنة الأولى والمفضلة عند عرب الخليج، ولا نجافي الحقيقة إذا قلنا: إنها مهنة قاسية وشاقة بل لا يعدلها أي عمل آخر عند أهل الخليج^(١).

وأشرنا إلى أن العبيدين أعظم من امتطى البحر في العصور القديمة^(٢) فاستخرجوا منه اللؤلؤ واستخدموه في صناعاتهم، ويقول لويون^(٣) : إن بلاد البحرين أشهر مغاوص اللؤلؤ في العالم وياقوت^(٤) يقول: إن فيها مغاصاً مفضلاً على غيره، والخضري^(٥) يؤكد شهرة البحرين منذ القديم باللؤلؤ الطبيعي الممتاز، ويذكر المسعودي^(٦) «إن في بحر العرب مغاصات الدر والياقوت والعقيق»، وكان الغوص من أهم الموارد الاقتصادية وكان تجاره يحصلون على أرباح خيالية ويشكلون الطبقة الرأسمالية، واستخدم اللؤلؤ حلياً للمرأة وزينة لها، ويسافر العرب إلى البحرين وأماكن بيع اللؤلؤ فيبتاعون حلياً لنسائهم^(٧)، واستخدمت المرأة الدر والياقوت والمرجان والذهب والفضة والزمرد وغيرها من أصناف الحلي.

وكان الذهب موجوداً في أرض البحرين وبالقرب من منطقة الكويت الحالية^(٨) وقد ذكر المثقب العبدى زينة المرأة والذهب يطوق عنقها ويتموج على ترائبها^(٩):

ومن ذهب يـلـوح على تـريـب

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) الدباغ: قطر ماضيها وحاضرها ١٢٩.

(٣) العريض: من تراث البحرين الشعبي ١٥٧.

(٤) ياقوت: معجم البلدان.

(٥) الخضري: الخليج العربي ٧ - ١٠.

(٦) المسعودي: مروج الذهب ١/١٠٩.

(٧) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١٩٠/٥ .

(٨) نفس المصدر ٢٥١/٧ .

(٩) ديوان المثقب ١٥٩.

(١٠) نفس المصدر ٦٣.

كلون العاج ليس بذي غضون

وذكر كذلك اللؤلؤ عندما وصف دموعه فقال^(١):

مُرْمَعَاتُ كَسْمَطِي لَوْلُؤٍ
خُذِلَتْ أَخْرَاطُهُ فِيهِ مَغَر

وكانت أهم مراكز صناعة الحلي واللؤلؤ والطبوق في البحرين دارين^(١) وللمسك الداري شهرة في كافة أنحاء الجزيرة العربية^(٢)، وقال الأعشى يصف غواص دارين^(٣) الذي يصيد اللؤلؤ من البحر :

كأنها درة زهراء أخرجها
غواص دارين يخشى دونها الغرقا

وذكر المسيب بن علس وهو من شعراء البحرين الغوص في رائيته الشهيرة وهو يصف الدرة البحرية وما يعانيه الغواص من مشقة في الحصول عليها، وقد تسابق التجار في شرائها^(٤) :

كجمانة البحري جاء بها
غواصها من لجة البحر
نصف النهار، الماء غامره
وشريكه بالغيب ما يدري
يعطي بها ثمناً فيمنعها

(١) ياقوت: معجم البلدان ٢٩٩/٤ .

(٢) نفس المصدر ٥٣٧/٢ ومعجم البكري ٥٣٨ .

(٣) ديوان الأعشى ١٢٤ .

(٤) لويس شيخو: شعراء النصرانية ٣٥٦ .

(٥) المفصلية: ١١٥، أعلى بها ثمناً: اشتراها بثمان كثير، شحنت العظام: دقيقها وهو يعني الفأض، اللبان: الصدر وإنما جعل الزيت على صدره لجفوفة ماء البحر وملوحته، الأقارب: الأمواج، اللحم: السمك (يقال سمك القرش)، وهذا الجمع لم يذكر في المعاجم.

ويقول صاحبه ألا تشري
وترى الصراري يسجدون لها
ويضمها بيديه للنحر

وفي ميمية المخبل السعدي حديث عن الغوص وصائد اللؤلؤ وكيفية استخراج الدرر
الثمين الغالية^(٥):

كعقيلة الدر استضاء بها
محراب عرش عزيزها لـ العجم
أعلى بها ثمناً وجاء بها
شخت العظام كأنه سهم
بلبانه زيت وأخرجها
من ذي غوارب وسطه اللؤم

وقال الأعشى يصف استخراج المرجان^(١):

من كل مرجانة في البحر أخرجها
غواصها ووقاها طينها الصدف

وتشير الدراسات الحديثة إلى جودة لؤلؤ البحرين في القديم والحديث، فيضرب
المثل بنفاسة اللؤلؤ ولذا قيل «أنفس من لؤلؤ البحرين» ولا عجب فكل جزر البحرين وعلى
امتداد الخليج لآلئ جميلة في وسط الماء وهي تمد يدها باللؤلؤ إلى كل القبائل الضاربة في
قلب الصحراء.

٤ - صناعة النسيج:

(١) ديوان الأعشى: ١١٢.

(٢) العريض: من تراث البحرين الشعبي ١٠٩.

(٣) صالح العلي: الأنسجة في القرنين ١٩، ٢٠ مجلة أبحاث ٤/٥٥٥.

(٤) القزويني: آثار البلاد ٢٨٠.

ذكرت الأخبار أنواعاً من المنسوجات سمي كل نوع باسم البلد الذي ينتجه، وأشارت كذلك إلى وجود تقاليد معينة في تلك الصناعة^(٢)، ومن المحتمل أن تكون بعض المعامل قد وجدت على أرض البحرين لأسباب عدة وفي مقدمتها. ١ - ثراء العبيدين فهم أمة تجارية، ٢ - الأيدي العاملة^(٣) فهم كثيرون العدد، ٣ - وفرة المواد الأولية لصناعة النسيج فالقطن يزرع في هجر^(٤) وصوف الماشية كثير والحريز يؤتى به من الهند والصين^(٥) وأهم انواع الأنسجة.

أ - المنسوجات القطرية: وهي أكثر منسوجات البحرين ذكراً فقد اشتهرت قطر من مناطق عبدالقيس بهذه الصناعة^(١) والثوب القطري اشتهر ما عرفت به قطر وتدعى المنسوجات القطرية بالثياب^(٢) والبرود^(٣) والاردية^(٤) وقد روي أن الرسول عليه السلام لبس أثواباً قطرية^(٥) وكذلك السيدة عائشة^(٦) ويروى عنها أنها قالت «كان على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبان قطريان» ولبس الثوب القطري الصحابة ومنهم عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعبدالله بن عمرو بن العاص^(٧).

ويذكر ابن الأثير^(٨) أن الثوب القطري ضرب من البرود فيه حمرة وله أعلام، وهو خشن، وقيل: إن الأثواب القطرية حلل جياذ، تحمل من قبل البحرين^(٩) وقد اشتهرت قطر

(١) الخصري: الخليج العربي ٧، ٨.

(٢) مسند ابن حنبل ١٤٧/٦.

(٣) طبقات ابن سعد ٢٣٧/١.

(٤) الجاحظ: البيان والتبيين ١٢١/٣.

(٥) مسند ابن حنبل ٢٤/٥.

(٦) نفس المصدر.

(٧) ابن سعد: الطبقات ٢٣٤/١، ١٢/٢، ١٦/١.

(٨) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث ٢٦٢/٣.

(٩) نفس المصدر السابق.

(١٠) النجم: البحرين في صدر الإسلام ٨٣.

(١١) ابن سعد: الطبقات ١٨/٢.

(١٢) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ٩٧.

بنسج مثل هذه الأثواب ذات اللون الأحمر والمخطط وصدرتها إلى أنحاء الجزيرة العربية، واستخدمت الأقمشة القطرية وغيرها في تغطية الأحداج وظعائن النساء، ويذكر عبدالرحمن النجم في كتابه عن البحرين^(١) ميزات الثياب القطرية فهي ثياب غليظة، خشنة، حمراء اللون، تصبغ خيوطها قبل النسيج.

ب - المنسوجات الهجرية: يذكر ابن سعد^(١١) أن هوزة بن علي الحنفي كسا سليطاً العامري، أثواباً من نسيج هجر ويشير ابن سلام^(١٢) إلى أن أولاد عامر بن عوف أهدوا الحطيئة أثواباً من نسيج هجر ويروي أن مخزومة العبدي جلب أثواباً هجرية وباعها في مكة^(١)، فالمنسوجات الهجرية كالقطرية تصدر وتباع في أنحاء الجزيرة.

ومن الأثواب الهجرية معقد البحرين^(٢)، وروي أن أبا موسى الأشعري كسا في كفارة اليمين، ثوبين من معقد البحرين^(٣).

وبالإضافة إلى المنسوجات القطرية والهجرية ذكرت المصادر منسوجات دارين^(٤) ومنسوجات الظهران^(٥)، وكانت معامل النسيج تنزع من البيئة أشكال الأثواب والأقمشة التي تقوم بنسجها واشتهر من بين هذه الأشكال والرسومات خف الناقة ودق النبرة وغيرها^(٦).

وإلى جانب الأثواب صنعت عبدالقيس الملاحف^(٧)، وقد أخذ عمرو بن عبدالقيس معه

(١) رياض الصالحين ٥٢٨ .

(٢) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث ١١٣/٣ .

(٣) تفسير الطبري ٢٥/٧ .

(٤) النقائض: ٦٤/١ .

(٥) ياقوت: معجم البلدان ٥٨١/٣، ومراسد الاطلاع ٢٢٤/٢ .

(٦) العريض: تراث البحرين الشعبي ١٢١ .

(٧) رياض الصالحين ٥٢٨ .

(٨) انظر : التجارة.

(٩) سفرنامه ٩٣ .

(١٠) انظر : شعر الظعائن عند المثقب.

(١١) المفضليات ٢٩٧، السديس: لباس خشن ترتديه المرأة، السندس: لباس من الحرير.

ملاحف إلى الحجاز، وباعها في تجارة^(٨)، والفوط التي تصنع بالأحساء وتستعمل للخدم والجمالين^(٩)، كما نسجت البحرين الأشرعة للسفن والأحداج للظعائن ومنها الأنماط والكلل والستائر^(١٠).

وذكر المثقب العبدى الديباج وهو من البضائع الثمينة التي يتنافس الأغنياء في اقتنائها وهو أثمن من الحرير كما أورد يزيد بن الخذاق لباس السديس الذي ترتديه المرأة في الشتاء وهو لباس خشن^(١١).

وداويتها حتى شتت حبشية

كأن عليها سندساً وسديسا

وليست البحرين هي التي صنعت الثياب واشتهرت بالنسيج وإنما قامت صناعات النسيج في اليمن كذلك واشتهرت اليمن بتصدير ثوب الخال وهو ناعم كما صدرت الوصائل وهي أثواب حمراء^(١)، وقيل : إن الرقم الذي يستعمل في الحدودج من أثواب اليمن.

ويورد ابن خلدون^(٢) أن النسيج وحاكة الأثواب أمور اشتهر بها الحضر من العرب، ويبقى أمامنا بعد ذلك أن نطمئن إلى أن البحرين بلاد عبد القيس عرفت صناعة النسيج واشتهرت بها.

صناعات أخرى:

عرفت البحرين صناعات أخرى كالخمور التي تصنع من العنب المتوفر بكثرة في هجر والقطيف وغيرها^(٣) وبيع في الحانات وأشهرها حانة ريمان^(٤) في هجر ونهى

(١) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١٦٩/٨ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ٨٩١/٢ .

(٣) البكري: معجم ما استعجم ١٠٨٣ .

(٤) العمري: مسالك الأبحار ٣٨٨/١ .

(٥) صحيح مسلم ١٥٧٩/٣ .

(٦) العريض: التراث الشعبي في البحرين ١٦٣ .

(٧) الأحساقي: تحفة المستفيد ٦٣/١ .

الرسول عليه السلام وفد عبدالقيس عن شرب الخمر^(٥).

وتشير الدلائل إلى أنهم عرفوا صناعة الفخار واستخدموها في حياتهم كما ورد ذكر الدباغة والجلود والنجارة والخضاب عندهم^(٦).

والذي لا بد من الإشارة إليه أن عرب عبدالقيس لم يأنفوا من الصناعة بل استخدموها في حياتهم واستقرارهم والدفاع عن بلادهم وهذا ما أوجب لهم منزلة رفيعة فاستحقوا احترام القبائل ونالوا محبة الرسول عليه السلام^(٧).

وليس من المغالاة في شيء إذا قلنا: إنه لا توجد قبيلة ارتبط مصيرها بالبحر والإنتاج الصناعي أكثر مما ارتبطت به قبيلة عبدالقيس فقد أضفى البحر عليها والصناعة فيها كثيراً من الملامح في طباعها وأمزجتها وتفكيرها^(٨).

٤ - التجارة عند عبدالقيس:

مارس الجاهليون التجارة وبشكل واسع، فهي الحرفة الوحيدة التي لم ينظروا إليها نظرة ازدراء واستهجان، بل اعتبرت من أشرف الحرف قدراً وأرفعها منزلة^(٩)، وعمل بنو عبدالقيس في ميدان التجارة، وذكر أن الهجريين كانوا من كبار الرأسماليين بل نافسوا السبائيين وكانوا معهم أغنى شعوب الجزيرة، لا سيما وأن منطقة عبدالقيس اشتهرت بالصناعة فقامت تسوق منتوجاتها^(١٠).

ويذكر صاحب ساحل الذهب^(١١) أن المنطقة العبدية في البحرين اشتهرت منذ أقدم

(١) العبيدي: البحرين من أمارات الخليج العربي ١٦٠.

(٢) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٥٤٧/٤.

(٣) الأحسائي: تحفة المستفيد ٦٤/١.

(٤) المسلم: ساحل الذهب الأسود ٢٠١.

(٥) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٥٤٧/٤.

(٦) نفس المصدر السابق.

(٧) الأحسائي: تحفة المستفيد ٦٠/١.

(٨) ابن سعد: الطبقات ٤١١/٥، ٥٥٨/٥، ابن قتيبة: المعارف ٣٢٨.

العصور بتجارته، في التوابل والعطور واللؤلؤ إلى جانب الصناعة وزراعة النخيل، وأشرنا إلى أن منطقة هجر كانت الممول الأول للمواد الغذائية للجزيرة وكان الأعشى وقبيلته يمتارون التمر من هجر^(٥) وحمل العبيدون منتوجاتهم الزراعية والصناعية وتاجروا بها مع البلدان المجاورة وقد مرَّ ركب من عبد القيس بأبي سفيان فقال لهم «أين تريدون» قالوا «نريد المدينة» فقال لهم «ولماذا» قالوا «نريد الميرة هنا» فهم يتاجرون مع المدينة^(٦).

وتروي الأخبار أن عمرو بن عبد القيس، كان تاجراً كبيراً، وهو ابن أخت الأشج وزوج ابنته^(٧)، وقد أرسله مع قافله تحمل التمور إلى مكة للتجارة فيها^(٨)، وفي رواية أخرى أنه بعث معه تمرّاً يبيعه وملاحف^(٩)، وكان ابن يامن الهجري تاجراً كبيراً له عدد من السفن والمزارع ويتاجر مع البلاد البعيدة^(١٠).

وأشار الأعشى إلى تجار دارين في منطقة عبد القيس^(١١).

يمرون بالدهنا خفافاً عيابهم

ويخرجن من دارين بجر الحقائب

وكذلك قال امرؤ القيس في تجار جواثي^(١٢):

ورحنا كأننا من جواثي عشية

نعالي النعاج بين عدل ومُشَنَّق

كل هذا يؤكد اشتغال عبد القيس في ميدان التجارة.

(١) الأحسائي: تحفة المستفيد ٦٠/١ .

(٢) ابن الأنباري: شرح القصائد الجاهليات ١٣٧، البكري: معجم ما استعجم ١٢٣٣ .

(٣) المبرد: الكامل في اللغة ١٥٥/١ .

(٤) ديوان امرئ القيس ٩٣٠ .

(٥) الخليفة والحرير: البحرین عبر التاريخ ٣٩.

(٦) المسلم: ساحل الذهب الأسود ٢٠٢ .

(٧) الخضري: الخليج العربي من ٧.

(٨) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٢٥١/٧ .

وقبل عبدالقيس على أرض البحرين كان الجرهاءيون وأهل الأحساء سادة الملاحة في الخليج العربي، وكانوا وكلاء تجارة، فأصبحوا أثرياء، وملكوا أسطولاً للتجارة البرية^(٥) وفي القديم لعبت البحرين دور الوسيط التجاري والحضاري بين الشرق والغرب^(٦)، كما أشارت المصادر إلى أن العرب كانوا يملكون سفناً في الخليج العربي^(٧)، وأشار المؤرخون إلى أن البحرين وعمان والكويت (دلمون وماجان وملوخوا) اشتهرت بالسفن والنخيل^(٨) فعُمان فيها المعادن والغابات، والكويت فيها الذهب والعاج، والبحرين ميناء ضخم وفيها صناعات شهيرة^(٩).

اما التجارة فيمكننا تقسيمها إلى ناحيتين:

أ - التجارة الداخلية:

قامت أسواق تجارية محلية في مناطق عبدالقيس والبحرين لأسباب عديدة منها توفر المنتجات الزراعية والصناعية^(١)، وكثافة السكان، وكثرة الاستهلاك^(٢)، وتيسير المواصلات ومن هذه الأسواق ما يلي:

أ - سوق المشقر: أقيمت قبل الاسلام في المشقر^(٣)، وهي سوق سنوية تقام بداية الأول من جمادى الآخر وتستمر شهراً كاملاً^(٤) تؤمها القبائل العربية ويرتادها تجار الفرس والحيرة وكانت السوق لعبدالقيس وترد إليها فيها تميم^(٥) وكان رئيس السوق

(١) انظر : الصناعة والزراعة.

(٢) انظر : منازل عبدالقيس.

(٣) التوحيدي: الامتاع والمؤانسة ٨٤/١، الأفغاني: أسواق العرب ٢٥١ .

(٤) تاريخ البغوي: ٣١٣/١ .

(٥) ابن حبيب: المحبر ٢٦٥ .

(٦) الأفغاني: أسواق العرب ٢٤٢ .

(٧) ابن حبيب: المحبر ٢٦٦ .

(٨) البلاذري: فتوح البلدان ٨٤.

(٩) الهمداني: صفة جزيرة العرب ١٨٠، والأفغاني: أسواق العرب ٢٥١ .

(١٠) القلقشندي: صبح الأعشى ٤١٠/١ .

(١١) الهمداني: صفة الجزيرة العربية ٢٣٦، الأفغاني: أسواق العرب ٢٥١ .

المنذر بن ساوى العبدي الذي يقوم بالتعشير فيها^(٦) وكانت قبيلة عبدالقيس تقوم على تنظيم السوق وإجراء المعاملات وإدارة جميع مرافق السوق^(٧).

ومن الجدير بالذكر أن الأعراب الذين كانوا يفدون إلى هذه السوق تعجبهم بيئة البحرين فيمكثون زمناً طويلاً، وقد لا يعودون إلى بلادهم ولذلك تعددت الأجناس والطوائف في منطقة هجر، وأدى ذلك إلى وضع مرزبان فارسي لأخلاط الفرس^(٨).

ب - سوق هجر: وهي أيضاً سوق سنوية، قامت قبل الإسلام^(٩) في شهر ربيع الآخر^(١٠) برأسها المنذر بن ساوى العبدي ملك البحرين وفيها يتم تعشير التجار^(١١).

وفي هذه السوق كان يتم تبادل السلع التجارية خصوصاً المواد الغذائية كالتمر وكذلك المنسوجات الهجرية^(١) وكان يقوم على تنظيم هذه السوق وإدارتها بنو محارب من عبدالقيس^(٢) ويظهر أن هذه السوق كانت تقام قبل سوق المشقر بزمان يسير.

ج - الأسواق الأخرى: في البحرين ومنطقة عبدالقيس أسواق محلية صغيرة منها سوق الأحساء على كثيب الجرعاء^(٣)، وسوق الزارة التي كانت تؤمها القبائل العربية المجاورة^(٤)، ومن أسواق الخليج العربي المشهورة^(٥)، وسوق دارين^(٦) التي اشتهرت بالمسك والذي يجلب إليها من الهند^(٧) وقد ذكر ياقوت^(٨) أن بين دارين والساحل مسيرة يوم، ثم

(١) ابن سعد: الطبقات ٧٠/٢ .

(٢) الهمداني: صفة جزيرة العرب ١٣٦ .

(٣) ابن حوقل: صورة الأرض ٣٤/١ .

(٤) ياقوت: معجم البلدان ٩٠٧/٢ .

(٥) العبيد: تاريخ الأدب في الخليج ١١ .

(٦) ابن منظور: لسان العرب ٢٠٠/٤ .

(٧) تاريخ ابن خلدون ١٩٧/٤ .

(٨) ياقوت: معجم البلدان ٥٢٧/٢ .

(٩) البكري: معجم ما استعجم ٥٠٤ .

(١٠) ابن حبيب: المحبر ٢٦٥، الأفغاني: أسواق العرب ٢٥٢ .

سوق الخط التي اشتهرت ببيع الرماح^(٩) الخطية وأخيراً ينتقل العرب بعد أسواق البحرين إلى أسواق عمان كسوق دبا^(١٠) التي تقام في رجب وتستمر أسبوعاً وسوق صحار وسوق الشحر^(١١).

وكانت هذه الأسواق الداخلية والمحلية بمثابة المعارض الاقتصادية الهامة وأيضاً كانت مؤتمرات اجتماعية كبيرة، تبحث فيها شتى النواحي الأدبية والسياسية والعلاقات الخارجية، فالسوق الجاهلية متجر الناس، ومقر عقودهم التجارية، وشركاتهم، ثم هي مرتاد رؤسائهم، ومنتجع قبائلهم وعشائهم، وهي فوق كل ذلك منبرهم الخطابي ومهرجانهم الشعري.

ب - التجارة الخارجية:

وقد ساعد على ازدهار التجارة الخارجية أمور عديدة في مقدمتها موقع البحرين الهام على الساحل الغربي للخليج العربي، وسهولة المواصلات البرية والبحرية، وكثرة المنتجات المحلية من زراعية وصناعية، وأخيراً حركة الاستيراد والتصدير مع الجزيرة العربية، والأقطار الأخرى كالهند والصين وغيرها، وقد تاجرت عبد القيس ومناطق البحرين مع الجزيرة العربية والحجاز واليمامة والبصرة وفارس والهند^(١).

التجاره مع الحجاز: كانت علاقة البحرين بالحجاز وثيقة جداً فقد صدرت البحرين إليها التمور^(٢)، كما تحدثت المصادر عن صلات تجارية بين هجر والمدينة

(١) المسلم: ساحل الذهب الأسود ١٧١.

(٢) ابن سعد: الطبقات ٤١١/٥.

(٣) صحيح البخاري ٢١١/١.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ٤٧/٥.

(٥) ابن سعد: الطبقات ١٦/١، مسند ابن حنبل ٢٤/٥.

(٦) ابن سعد: الطبقات ١٨/٥.

(٧) سفرنامه ٩١.

(٨) أبو الفداء: تقويم البلدان ٩٩.

المنورة حيث صدرت هجر إلى يثرب الملاحف والتمر^(٣) وكانت عبدالقيس تقوم بهذه التجارة^(٤) وأشارت المصادر إلى تصدير المنسوجات القطرية.. والهجرية إلى مكة والمدينة قبل الاسلام وبعده^(٥).

التجاره مع اليمامة: صدرت البحرين إلى اليمامة المنسوجات الهجرية فهذه الحنفي كسا سليطاً العامري أثواباً هجرية^(٦) وتجار اليمامة يشترون الأديم من فلج ويحملونه إلى الحسا لبيع فيها^(٧).

ويذكر أبو الفداء^(٨) أن أهل الأحساء والقطيف كانوا يصدرون التمر إلى الخرج، وهو وادٍ في اليمامة بينما تصدر اليمامة إلى الأحساء الحنطة^(٩).

التجارة مع العراق: كانت الأبله ميناء العراق الرئيسي^(١٠) وفيه ترسو السفن القادمة من البحرين وكان التجار الداريون يغدون إليها للمتاجرة بالمسك الداري^(١١) كما كان تجار الأحساء وهجر يحملون معهم منسوجات بلادهم إلى العراق وسواها^(١٢).

التجارة مع بلاد فارس: أشار البكري^(١٣) إلى أن البحرين تاجرت مع فارس، فجلبت منها الميرة وصدرت إليها التمر^(١٤) واستورد الخط الحديد من فارس^(١٥) لاستخدامه في صناعة الرماح وأشرنا إلى أن تجار الفرس كانوا يفدون إلى سوق المشقر^(١٦).

(١) البلاذري: فتوح البلدان ٣٤١.

(٢) صالح العلي: التنظيمات الاجتماعية في البصرة ٢٣١.

(٣) تفسير الطبري ٢٥/٧ .

(٤) البكري: المسالك والممالك ٢١٨.

(٥) نفس المصدر السابق.

(٦) صالح العلي: التنظيمات الاجتماعية في البصرة ٢٣١.

(٧) التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة ٨٤/١.

(٨) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١٧٥/١ .

(٩) المبرد: الكامل في اللغة ١٥٦/١ .

(١٠) البكري: معجم ما استعجم ٥٣٨ .

(١١) الخليفة والحمز: البحرين عبر التاريخ ٤١٠ .

التجارة مع الهند: قامت علاقات تجارية بين البحرين والهند منذ أقدم العصور فسفن الهند كانت تفرغ بضائعها في ميناء جرّها^(٨) وفي زمن عبدالقيس كانت السفن تفرغ حمولتها في ميناء الخطية على الخط حيث تصنع الرماح، وسفن أخرى كانت ترسو في ميناء دارين^(٩) تحمل الطيوب والمسك إليها، فدارين تستورد إذن المسك من الهند وتصنعه ثم تتاجر به في أنحاء الجزيرة^(١٠).

الطرق التجارية: استخدم العرب في البحرين عدداً من طرق المواصلات التجارية وهي قسمان:

الطرق البحرية: سير العبيدون تجارتهم عبر الخليج العربي فقد تاجروا مع الهند والصين^(١١)، وجنوب غرب الجزيرة، فال يامن من عبدالقيس الذين أشار إليهم طرفة بن العبد كانت لهم سفن تجارية تبحر في الخليج العربي^(١) وكانت سفن العبيدين تصل إلى العراق في الشمال كذلك^(٢).

لقد تاجرت عبدالقيس مع الهند والصين واليمن والحبشة وبلاد فارس والعراق^(٣)، وتشير المصادر إلى وجود صلات تجارية بين البحرين والحبشة وبين منطقة عبدالقيس وأقصى الهند والصين^(٤).

الطرق البرية: طريق البحرين - اليمامة - مكة.

يقول الهمداني^(٥) «بين اليمامة والبحرين عشرة أيام» ويصف تلك الطريق البرية

(١) ابن الأنباري: شرح القصائد الجاهليات ١٣٧ .

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ٣٤١ .

(٣) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٢٦١ .

(٤) نفس المصدر.

(٥) الهمداني: صفة جزيرة العرب ١٣٦ .

(٦) سفرنامه: ٩٢ .

(٧) أبو الفداء: تقويم البلدان ٩٧ .

(٨) الإصطخري: مسالك الممالك ٢٨، البغدادي: مراصد الاطلاع ١٣٠/١ .

(٩) البغدادي: مراصد الاطلاع ٣٥٩/١ .

فيذكر الأماكن التي يمر بها التاجر على النحو التالي: البحرين، خرشيم عن اليمين، والرمانتان عن الشمال، ويمضي إلى مزقة فالموارد فالفروق فالخوار فالصليب، وبعد ذلك يصل إلى منطقة الدهناء ويصل ماء العرمة، ويسير في السهباء، فيصل إلى الروضة، ثم يرد الخضرمة بداية اليمامة، ويخرج من اليمامة إلى خرية وبعد ذلك يتابع المسير إلى مكة. ويذكر خسرو^(٦) أن المسافة بين اليمامة والأحساء أربعين فرسخاً، ويذكر أبو الفداء^(٧) أنها على أربع مراحل.

طريق البحرين - العراق، أشارت المصادر إلى هذه الطريق، التي كان يسلكها أهل هجر^(٨) والبحرين في نقل تجارتهم إلى الشمال حيث العراق والحيرة، والقبائل العربية على امتداد الطريق ومئات القرى والأودية^(٩) وكانت هذه الطريق قريبة إلى ساحل البحرين، وقد وصفها لغدة^(١٠) وعدد الأماكن التي يمر بها التاجر فهو بعد خروجه من الأحساء يمر في الأجواف وهي مجموعة قرى كثيرة ومياه، ثم يمضي إلى بطن غر، فالستار^(١١)، وهي أيضاً قرى كثيرة وبعدها إلى الطريفة، فالعتيد، فطويلح، التي فيها قرية تثيل الشهيرة^(١٢) وبعد ذلك يصل إلى الشيطان منطقة الأودية، فالوريعة، وقربها وادي السيدان^(١٣) ثم يصل إلى كاظمة^(١٤) ويمضي بعدها إلى ميناء الأبله ويدخل أرض العراق، وبين البحرين والعراق

(١) لغدة: بلاد العرب ٣٤٤ .

(٢) ابن بليهد: صحيح الأخبار ١٨٥/٤ .

(٣) البكري: معجم ما استعجم ٧٧١ .

(٤) نفس المصدر السابق.

(٥) الدباغ: جزيرة العرب ٢٥٥/٢ .

(٦) ياقوت: معجم البلدان ٥٠٧/١ .

(٧) البكري: معجم ما استعجم ٥٠٣، ولسان العرب ٢٩٠/٧ .

(٨) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١٧٦/١ .

(٩) نفس المصدر.

(١٠) المبرد: الكامل في اللغة ١٤١/١ .

(١١) الهمداني: صفة جزيرة العرب ١٣٦ .

(١٢) المبرد: الكامل في اللغة ١٥٥/١ .

(١٣) ابن الأنباري: شرح القصائد الجاهليات ١٣٧ .

(١٤) البلاذري: فتوح البلدان ٣٤١ .

(١٥) نواذر المخطوطات ٣٩٨/٨ .

أكثر من ١٥ مرحلة وبعض المؤرخين يرى أن المسافة أكثر من خمسة عشر يوماً^(٦).

وهناك طرق تجارية سلكها بنو عبد القيس في تجارتهم طريق الحيرة - مكة والتي تمر في ميناء الخطية^(٧) ثم طريق العراق - عمان^(٨) مروراً ببلاد عبد القيس وفي مثل هذه الطرق كانت بلاد عبد القيس تعتبر محطات استراحة وأشهر هذه المحطات هجر والعقير وقطر^(٩).

أما الموانئ العبدية التي استخدمت في ميادين التجارة، فهي الخطية ميناء قطر ومركز الصناعة في البحرين^(١٠) والعقير ميناء في الاحساء^(١١) وميناء دارين الذي أشرنا إليه^(١٢).

وهناك موانئ أخرى كان ينزلها العبديون كعدولى في البحرين^(١٣) وعمانة في عمان والأبلة في العراق^(١٤)، والجار في الحجاز^(١٥).

ويجب أن لا نغفل دور الحيرة كمحطة عبديّة في شركات ووكالات تجارية كبيرة.

أما قائمة البضائع والمنتجات العبدية والصادرات والواردات فعلى النحو التالي:

- ١ - المواد الغذائية وأهمها التمر ويصدر إلى أنحاء الجزيرة العربية.
- ٢ - المنسوجات القطرية والهجرية إلى مكة ويثرب والعراق وفارس.
- ٣ - الرماح الخطية والدروع الحطمية وتباع في جميع أجزاء الجزيرة.
- ٤ - اللؤلؤ وأدوات الزينة والذهب إلى الهند وسائر الجزيرة.
- ٥ - الطيوب والمسك والكافور والتمور تجلب من الهند وتصنع في دارين وتباع في الجزيرة خصوصاً يثرب.

٦ - الإبل القطرية والنجائب العبدية.

٧ - يستورد الحديد من بلاد فارس.

(١) الثعالبي: لطائف المعارف ٨٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٣٧٨/٢.

٨ - يستورد القنا من بلاد الهند.

٩ - يستورد الحرير من الهند والصين.

١٠ - يستورد الخشب من عمان.

ومن المفيد أن نشير إلى أن الحجاز - وفيها قريش - كانت ذات باع طويلة في ميدان التجارة وكان ساداتها يتاجرون، فأبوطالب كان يبيع العطر وأبوبكر باع الأتواب وأبوسفيان تاجر بالزيت وعمل سعد بن أبي وقاص في النبل^(١) وخديجة بنت خويلد كانت تاجرة مشهورة.

وتاجر الفرس وكانت لهم قوافل كبيرة تعبر جزيرة العرب وقد روى ابن الأثير^(٢) أن قبيلة تميم أغارت على لطائم كسرى وقوافله التجارية الذاهبة إلى اليمن فانتهبتها.

عندها أوعز كسرى لعامله على البحرين^(٣) أن يصنع طعاماً لبني تميم ويخبرهم أن كسرى أرسل إليهم ميرة حسنة (والميرة هي الحنطة) فحضرُوا إلى حصن المشقر^(٤) وجعل الوالي يدخلهم رجلاً رجلاً ويضرب أعناقهم حتى أحسوا بالمؤامرة واقتحموا الحصن ليجدوا أنفسهم أمام مذبحه رهينة وعرفت تلك المذبحة باسم يوم الصفقة^(٥).

وتاجر الأشج من عبدالقيس^(٦) فقد أرسل ابن أخته وزوج ابنته عمرو بن عبدالقيس ومعه ملاحف وتمر إلى مكة فلقي الرسول عليه السلام ورأى علامات النبوة وعاد ليخبر الأشج وأسلم الاثنان^(٧).

واستخدم العبيدون الأدلاء واشتهر منهم دعيميص الرمل العبدي^(٨) والأريقط^(٩) ودفَعوا

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٢٢٤/٥ تاريخ ابن خلدون ٣٦٠/٢ .

(٢) الهمداني: صفة جزيرة العرب ١٧٨ .

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٩٨٤/٢ .

(٤) ابن سعد: الطبقات ٥٥٨/٥ .

(٥) المصدر السابق ٥٥٨/٥ .

(٦) البكري: معجم ما استعجم ١٣٦٧ .

(٧) الأحسائي: تحفة المستفيد ٦١/١ .

(٨) الفضليات: ص ٢٩٧ .

(٩) الأنصاري: النوادر في اللغة ص ٦٦، ودائرة المعارف الإسلامية ص ٧٤.

المكوس والضرائب غير المدن والقرى والطرق والمحطات والحدود التي كانوا يعبرونها.
وأشار الشاعر العبدى يزيد بن الخذاق إلى المكوس التجارية والتجارة البحرية
كما قلنا^(٨).

وبعد، فيبدو أنني أطلت وقفتي مع الحياة الاقتصادية وما ذلك إلا لأنني أشعر أن
عبد القيس عاشت في مستوى حضاري جيد، هذا من جانب، ومن جانب آخر أردت أن
أثبت أن العبديين عرفوا الزراعة وحذقوا الصناعة ومهروا في التجارة، وفي ذات الوقت
كانت بعض بطون القبيلة تضرب في أعناق البادية، وبتون الصحراء المتاخمة للبحر، تنتقل
مع ماشيتها وترعى أغنامها، فهي بطون رعوية، لكنني لم أقف عند ناحية الرعاية لأنها أمر
طبيعي في حياة كل عرب الجزيرة^(٩).

٥ - الحياة الدينية:

دان أهل البحرين قبل الإسلام بعدد من الديانات، منها الوثنية والنصرانية واليهودية
والمجوسية والأسبذية وغيرها، وقد دخلت بعض تلك الديانات إلى البحرين بحكم موقعها
التجاري وصلتها بالأقطار الأخرى.

١ - الوثنية:

ذكرت المصادر الأصنام التي عبدت في البحرين ومن قبل عبد القيس وهي:

أ - الصنم ذو اللبا: كان بالمشقر وسدنته بنو عامر بن الحارث من عبد القيس^(١)

(١) ابن حبيب: المحبر ٣١٧، وياقوت في معجم البلدان ٤/٣٤٥ .

(٢) نفس المصدر ٣١٧ .

(٣) دروزه: تاريخ الجنس العربي ١٠٢/٥ .

(٤) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/٢٨٢ .

(٥) نفس المصدر السابق.

(٦) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/٢٨٧ .

وكانت له تلبية على النحو التالي «لبيك اللهم لبيك، لبيك رب فاصرفنا عنا مضر وسلمنا لنا هذا السفر، واكفنا اللهم أرباب هجر^(٢)» وفي تاريخ دروزه^(٣) أن هذا الصنم كان يدعى المشقر ولعله أخذ هذه التسمية من المكان الذي كان فيه ذو اللبا وهو المشقر.

ب - الصنم قيس^(٤): وكان في هجر، ثم نقل إلى أوال في البحرين، وأطلق عليه اسم المحرق، ذلك لأن القرابين البشرية كانت تقدم إليه وهي محروقة^(٥)، فغلب عليه اسم المحرق، ولا زالت في البحرين إلى الآن جزيرة تسمى المحرق ويعتقد أنها نسبت إلى هذا الصنم، ونسبة إلى الصنم قيس سميت القبيلة - قبيلة عبدالقيس - وربما سمي امرؤ القيس نسبة إلى هذا الصنم أيضاً، أما جواد علي فيقول^(٦): «قيس اسم صنم قديم نسيت عبادته وصار علماً لأشخاص ويعتقد أيضاً أن قيساً هذا له علاقة «بقوس» وربما كان اسم إله من آلهة أدوم والقبائل العربية الأخرى.

ومناطق البحرين الحالية وتسميات مدنها وقراها وجزرها مثل المنامة، وعوالي، والمحرق وعذارى كلها أسماء لأماكن مقدسة وتتعلق بالشعائر الدينية الوثنية، ومن هنا أطلق على البحرين اسم الأرض المقدسة^(١)، فالمنامة مكان النوم والراحة، وهي تدعى أحياناً بالمنعمة، وعوالي معبد في مرتفع عال من الأرض، والمحرق من الحريق واحتراق الجثث المقدمة قرابين للآلهة، وعذارى مكان لاستحمام العذارى، وهذه الألفاظ جميعها لها دلالت جنائزية، وطقوس دينية، مما يحملنا على القول: إن الصنم قيس كان موجوداً على هذه الأرض وإن عبدالقيس قد عبده.

(١) الخليفة والحمز: البحرين عبر التاريخ ٩٦، موسوعة البحرين للخضري ص ٢٢.

(٢) ابن الكلبي: الأصنام ص ١١١ التحفة النبهانية ص ١١.

(٣) نفس المصدر: ص ١٠٧، ١١١.

(٤) هداية سلطان: نوازع العرب وسجاياهم ص ٣٦.

(٥) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٢٩٢/٦.

(٦) ابن الكلبي: الأصنام ١٠٨.

(٧) ديوان المتقرب ٢٧٠.

وهناك أصنام أخرى عبدتها البحرين وعبد القيس، ومنها الصنم «عوض» وكان من أصنام بكر بن وائل، وأطلق عليه اسم المحرق أيضاً^(٢) والصنم أوّال الذي نسبت إليه جزيرة أوّال في البحرين^(٣) وعبدت عبد القيس الصنم أوّال مع قبيلة بكر بن وائل.

وتشير هداية سلطان^(٤) إلى أن الجاهليين اقتبسوا عبادة الأصنام والأوثان من الأمم المجاورة، وأن جميع الأصنام التي عبدت في البحرين كانت شأن أصنام الجاهلية تقريبهم زلفى من الله.

وظاهرة الانتساب إلى الاصنام واضحة مألوفة على أرض الجزيرة العربية، ومنها عبد القيس وامرؤ القيس وعبد اللات، وعبد ود، وعبد الشارق، وعبد مناف^(٥).

ولابد لنا من أن نذكر الصنم جلسد^(٦) الذي كان يعبد قديماً وقد ذكره الشاعر المثقب العبدى حين قال^(٧):

فبات يجتاب شُقارى كما
بيقر من يمشي إلى الجَلَسَدِ

وكان للعرب حجارة تطوف بها يسمونها «الأنصاب» ويسمون الطواف حولها دوار.

وقد أشار المثقب العبدى إلى ذلك فقال^(٨):

يطيف بنُصْرِبهم حُجْنُ صغارٍ
فقد كادت حواجبهم تشيب

(١) ابن الكلبي: الأصنام ص ٤٢ .

(٢) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٣٣٦/٦ - ٣٩٨ .

(٣) صالح العلي: محاضرات في تاريخ العرب ١٧٠/١ .

(٤) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٥٨٣/٦ .

(٥) نفس المصدر السابق ٥٨٣/٦ .

(٦) نفس المصدر السابق ٥٨٣/٦ .

(٧) موسوعة الخليج العربي ٧ - ٢٠ .

(٨) ابن قتيبة: المعارف ٦٢١ .

وكان للأصنام عبدالقيس بيوت يتقربون إليها ويطوفون بها وينذرون حولها ويحبسون عليها وربما حجت العرب إليها وجاءتها القبائل الأخرى إلى مناطق هجر والمشرق^(٢).

٢ - النصرانية:

تسربت النصرانية إلى البحرين على يد البعثات التبشيرية المسيحية^(٣) وقد ساعد على ذلك، النواحي التجارية خصوصاً من ناحية العراق^(٤)، ولقد دان المناذرة بالنصرانية قبل عبدالقيس^(٥)، وكان المذهب النسطوري هو السائد في البحرين^(٦) وفي مطلع القرن الثالث الميلادي وفدت بعثة مسيحية إلى البحرين^(٧) وبذلك أصبحت الحيرة والبحرين تتبعان المسيحية، وعلى ذات المذهب النسطوري، وانتشرت المسيحية وبكثرة في قبائل ربيعة، فابن قتيبة^(٨) يقول: «كانت النصرانية في ربيعة وغسان وقضاعة واعتنقت عبدالقيس النصرانية وكذلك بكر بن وائل» وكان من أشرف النصارى عند ظهور الإسلام الجارود العبدي سيد عبدالقيس^(٩)، وقد أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، وكذلك كان المنذر بن ساوى العبدي نصرانياً فأسلم^(١٠).

وروي أن رئاب الشني وبحيرا الراهب كانا على دين المسيح^(١١).

(١) ابن سعد: الطبقات ٥/٥٠٧.

(٢) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/٥٤٢.

(٣) المسعودي: مروج الذهب ١/٨٢، ٨٩.

(٤) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/٥٢١.

(٥) شيخو: النصرانية وآدابها ١/٧١.

(٦) نفس المصدر السابق ١/٧١.

(٧) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/٥٨٣.

(٨) نفس المصدر السابق.

(٩) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/٥١١.

(١٠) صالح العلي: محاضرات في تاريخ العرب ١/١٧١.

(١١) البكري: معجم ما استعجم ٨٤.

(١٢) البلاذري: فتوح البلدان ٧٩.

وقد تمركزت النصرانية على أرض البحرين، وفي مناطق قطر وهجر ودارين وسماهيح^(٤)، ففي قطر كانت أسقفية وتسمى بيت قطرايا، وكان على قطر أسقف هوتوما^(٥)، أما دارين فقد تأسست أسقفيتها عام ٤١٠م^(٦) وفي هجر كانت أسقفية أخرى ويتبعها الخط^(٧).

ومن هنا ندرك أن الأديرة والكنائس والأسقفيات، انتشرت في البحرين ومناطق عبدالقيس كما كانت منتشرة أيضاً في الحيرة^(٨).

٣ - اليهودية:

تسربت إلى البحرين عن طريق التجارة^(٩) ونظراً لشدة طقوسها الدينية لم تلق رواجاً بين العرب بشكل واسع^(١٠)، فلم يكن لليهود هجر أثر واضح قبل الإسلام، ويبدو أنهم قد عملوا في ميادين التجارة والصناعة، ويقال: إن الملاح ابن يامن كان يهودياً وهو تاجر كبير له عدد من السفن^(١١)، وعندما أسلم العبيدون بقي اليهود يدفعون الجزية^(١٢).

ويرد ذكر اليهود ودفعهم الجزية، في الكتب المتبادلة بين الرسول عليه السلام وأهل البحرين وعبدالقيس، فقد أرسل المنذر بن ساوى العبدى والي البحرين كتاباً إلى الرسول عليه السلام بإسلامه وتصديقه وقال «إني قرأت كتابك على أهل هجر فممنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضي مجوس ويهود فأحدث لي في ذلك أمر». ويروى أن الرسول عليه السلام رد عليه بكتاب وفيه «ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية»^(١٣).

(١) ابن سعد: الطبقات ١٩/٢، الزرقاني: شرح الزرقاني ٣٥٢/٣، البلاذري: فتوح البلدان ٨٠.

(٢) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٥١٣/٦.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان ٨٠.

(٤) ابن سعد: الطبقات ١٩/٢.

(٥) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦٩٣/٦.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان ٨٥.

(٧) ابن سعد: الطبقات ١٩/٢، البلاذري: فتوح البلدان ٨٠، الزرقاني: شرحه ٣٥٢/٣.

ومن هذه الكتب المتبادلة بين الرسول عليه السلام وحكام البحرين تبين لنا أن اليهودية كانت موجودة قبل الإسلام في منطقة البحرين خاصة في أرض هجر.

وفي الأخبار^(٧) أن اليهودية تواجدت في مناطق كثيره من الجزيرة العربية كان أشهرها اليمن ويثرب وخيبر واليمامة والبحرين، وأماكن أخرى.

٤ - المجوسية:

دخلت إلى البحرين من بلاد فارس^(٣)، وكان في منطقة هجر كثير من المجوس^(٤)، ولهم نفوذ لقربهم من إمبراطورية الساسانيين^(٥)، وكان لهم مرزبان فارسي^(٦)، ويقال انه أسلم ومعه قليل من قومه بعد أن كتب الرسول عليه السلام كتاباً إلى مجوس هجر^(٧)، وجاء فيه «أما بعد من شهد منكم أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فله مثل ما لنا، وعليه مثل ما علينا، ومن أبى فعلية الجزية، على كل رأس دينار على الذكر والأنثى، ومن أبى فليأذن بحرب من الله ورسوله»، وتسربت المجوسية إلى اليمن واليمامة وعمان، وفي الأخبار أنها تفشت في بني تميم جيران عبد القيس^(١)، ولذا قال فيهم أوس بن حجر^(٢):

والفارسية فيهم غير منكرة

فكلهم لأبيه ضيزن سلف

(١) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/٦٩٣ .

(٢) ديوان أوس بن حجر ٧٤، ديوان الضيزن: الرجل يأتي أمه وخالته.

(٣) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/٦٩٤ .

(٤) ابن سعد: الطبقات ٢/١٩ .

(٥) البلاذري: فتوح البلدان ٨٠.

(٦) صالح العلي: محاضرات في تاريخ العرب ١/١٧١ .

(٧) البلاذري: فتوح البلدان ٨٠.

(٨) نفس المصدر السابق.

(٩) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/٦٩٤ .

(١٠) ابن حزم: جمهرة انساب العرب ٢٣٢ .

وكان المجوس شأن اليهود يعملون في التجارة والصناعة والزراعة.

وتعاليم المجوسية تدين بالنور والظلمة، والخير والشر، فالخير من فعل النور، والشر من فعل الظلمة، وهم يعبدون النار^(٣).

ومن المعلوم أن هذه الديانة تتعارض وأخلاق العرب وعاداتهم ولذا فإن أتباعها قليلون، وكان المجوس كاليهود يؤدون الجزية^(٤).

أما الديانة الأسبذية^(٥)، والتي عرفت في بني تميم فأغلب الظن أنها ذات المجوسية، إذ لم ترد معلومات مفيدة حول هذه الديانة وتعاليمها^(٦)، وقد اشتقت اسمها من الأسب وهو الحصان، وأطلق عليها عبادة الخيل^(٧)، ويقال: أنه دان بها بنو عبدالله بن دارم من تميم، وفي بعض المصادر أن المنذر بن ساوي كان إسبدياً^(٨)، ويذكر أبوعبيدة أن أسبذ قائد فارسي لكسرى على البحرين^(٩)، وأسبذ كذلك قرية في هجر^(١٠).

ويقول جواد علي : إنه لا علاقة بين المجوسية والأسبذية، ورأيه أن الأسبذية تعني الفرسان، وأن المنذر بن ساوي كان أسبدياً أي بدرجة فارس وهي من درجات الشرف والرفعة في الجيش الساساني^(١١).

وقد أشرنا إلى أن المنذر حكم البحرين من قبل الفرس قبل الإسلام.

ويتضح لنا أن الأسبذية رتبة عسكرية فارسية، وهي للرجل الفارس الذي يركب الفرس والحصان، ولا يخفى ما يلقاه الفارس من مكانة وقداسة، ولهذا حدث تحريف وتداخل بين رتبة الفرس والحصان، وديانة الفرس فأصبحت الرتبة لتقديس الفرس وعبادة الخيل، ولذا

(١) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/٦٩٤ .

(٢) المصدر السابق ٦/١٠١ .

(٣) سورة العنكبوت آية ٦١.

(٤) ديوان المثقب ١٠١، أجلاها: يداها ونفسها، قصيدها: سمنها ولحمها.

(٥) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٣/٣٠٥ .

(٦) نفس المصدر السابق.

قيل : أن الأسبذية هي عبادة الخيل.. وإلا فأين تعاليم هذه الديانة وأتباعها وقادتها؟.

الأمر الذي يجعلنا نمضي إلى الرأي القائل بأنها رتبة عسكرية، لا ديانه أساسية.

وعرفت أرض عبد القيس التوحيد والموحدين فبين العرب كان الكثيرون منهم^(٢)، وأشار القرآن الكريم^(٣) إلى هذا «ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله»، وورد ذكر الله وقدرته ومشيتته في شعر العبددين فالمتقرب يقول^(٤):

وَأَيَقَنْتُ إِنْ شَاءَ إِلَهْ بَأْنَهْ

سَيَبْلَغْنِي أَجْلَادُهَا وَقَصِيدُهَا

وفي «العقد الفريد»^(٥) أن رثاب الشني كان ممن وحد الله في الجاهلية، وفيه قال الشاعر^(٦):

رَثَابُ وَأَنْى لِلْبَرِيَّةِ كُلِّهَا

بِمِثْلِ رَثَابٍ حِينَ يَخْطُرُ بِالسَّمْرِ

وقد أشرنا إلى أن رثاب الشني وبحيرا الراهب كانا على دين المسيح ويروى أنهما

(١) نفس المصدر السابق، مروج الذهب ٨٢/١، ٨٩، ١٠٢/٢ .

(٢) ابن سعد: الطبقات ٥٥٨/٥، وقال البعض كانوا اثني عشر رجلاً في الطبقات وعن الواقدي أنهم عشرون رجلاً وعن أبي خيرة الصباحي قال «كنا أربعين راكباً» ويورد السهلي أسماء ثمانية أشخاص وابن كثير يورد أنهم ثلاثة عشر راكب، وابن حجر يقول خرج الأشج في ستة عشر رجلاً من أهل هجر.

(٣) ابن سعد: الطبقات ٥٥٧/٥، ابن حجر: الإصابه ١٧١/٢ «كان الأشج - أشج عبد القيس - واسمه المنذر بن عائد بن الحارث العابدي صديقاً لراهب ينزل بدارين فكان يلقاه في كل عام فلقية عاماً بالزيارة فأخبر الأشج أن نبياً يخرج بمكة يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه علامة، يظهر على الأديان، ثم مات الراهب فبعث الأشج ابن اخته من بني عامر واسمه عمرو» وقد أوصاه الأشج بأن يحصل على المعلومات الرديه وعاد عمرو فأخبر خاله بما رآه وسمعه فأسلم الأشج وكتب إسلامه إلى أن سافر في الوفد.

(٤) الحلبي: السيرة الحلبية ٢٤٩/٣ .

(٥) سيرة ابن هاشم ٢٤٢/٤، البلاذري في فتوح البلدان ٨٠ .

(٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٩٦٧/٤، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٣٧٠/٢، البلاذري: فتوح البلدان ٨٠ - ٨٥ .

كانا من الموحدين^(١)، ويعود السبب في أمر التوحيد والموحدين إلى نواحي الفكر والحكمة عند الشننين والنكريين.

وهكذا تأثرت منطقة البحرين وأرض عبدالقيس بمختلف الديانات مسيحية ويهودية ومجوسية ودان أرباب الفكر والحكمة بالتوحيد، وقد عرفنا أن العبيدين كانوا وثنين.

وعندما جاء الإسلام، وجد بين العبيدين عقولاً ترحب بنوره، وصدوراً تتعاطف مع سلامة المشبع بحرية الإنسان، وعدله الذي تفتقده بقية الأديان، فسارعوا إلى اعتناقه، وسافرت وفودهم إلى المدينة، وكان عددهم في الوفادة الأولى قرابة العشرين^(٢) رجلاً برئاسة الأشج^(٣) «المنذر بن الحارث»، وعددهم في الوفادة الثانية ستة عشر رجلاً^(٤) برئاسة الجارود، وبعد وفاة الرسول عليه السلام وارتداد القبائل عن الإسلام تمسك العبيدون بالإسلام بفضل جهود الجارود العبد^(٥) الذي كان حسن الإسلام، صلباً على دينه، وقاتل العبيدون المرتدين مع العلاء الحضرمي في هجر قتلاً مجيداً^(٦).

٦ - العلاقات الخارجية:

مواطن عبدالقيس ومنازلها التي أسلفنا الحديث عنها، توسطت أقطار الحضارات القديمة فتناولت منها ما ينفعها، واغترفت ما يفيدها وأقامت علاقات وثيقة، وصلات وطيدة مع الأمم المجاورة والقبائل المتاخمة وأهمها:

١ - بلاد فارس:

(١) الحوفي: الحياة العربية في الشعر الجاهلي ١٠٧ .

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ٧٨، الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٦٧/٣، تاريخ ابن خلدون ٦٢٢/٢ .

(٣) الخليفة والحر: البحرين عبر التاريخ ٧١/١ .

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٣٩٨/١ .

(٥) نفس المصدر السابق وعاد سابور بعد ذلك وصالح عبدالقيس.

يحدث التاريخ بصلة قديمة بين العرب والفرس قبل إمارة الحيرة، وفي القرن الميلادي الثاني كان على مدينة قرب دجلة والفرات حاكم عربي من قضاة^(١)، وقبل الإسلام كانت البحرين تابعة للدولة الساسانية الفارسية^(٢)، ودخلت تحت سيطرة المناذرة في فترات من الزمن^(٣).

وتأتي أول إشارة لعلاقات عبدالقيس والفرس أيام سابور ذي الأكتاف، فابن الأثير^(٤) يحدثنا عن مهاجمة عبدالقيس لسواحل بلاد فارس وغلبة أهلها، ومكث الفرس حيناً من الزمن لا يغزون فيه أحداً لصغر ملكهم، وعندما ترعرع سابور، اختار جيشاً عظيماً عبر به البحر إلى الخط، وأعمل السيف في أهل البحرين، وقتل الكثير من عبدالقيس ولم يلتفت إلى غنيمة وإنما استمر في خطته واجتاح قبائل تميم وبكر بن وائل وقتل رجال تلك القبائل حتى سالت دماؤهم ثم قصد قبائل اليمامة وصعد إلى منطقة الشمال، حيث قبيلة تغلب وكان ينزع أكتاف الرجال فسمي «بذي الأكتاف» ولم يقف عند هذا الحد وإنما قام بتغيير وتبديل مواطن ومنازل بعض القبائل على أرض البحرين^(٥).

ومن هنا ندرك الصلة بين فارس وعبدالقيس فالعبديون عندما أنسوا في أنفسهم القوة والمنعة عبروا الخليج وتغلبوا على الفرس، وجواد علي^(٦) يشير إلى أن هذا الهجوم العبدي جاء نتيجة ضيق المعاش وضنك الحياة بينما تؤكد مصادر أخرى^(٧) أن امرئ

(١) تاريخ ابن خلدون ٥٥/٢ .

(٢) الحمير والخليفة: البحرين عبر التاريخ ٧٣/١ .

(٣) البلاذري: فتوح البلدان ٧٨ .

(٤) البكري: المسالك والممالك ٢١٨ .

(٥) صالح العلي: التنظيمات الاجتماعية في البصرة ٢٣١ .

(٦) البكري: المسالك والممالك ٢١٩ .

(٧) ياقوت: معجم البلدان ٥١١/١ .

(٨) المسعودي: مروج الذهب ٢٤٥/١ .

(٩) البلاذري: فتوح البلدان ٨٠ وابن الأثير في الكامل ٢١٥/٢ .

(١٠) النجم: البحرين في صدر الإسلام ١١٧ .

القيس ملك الحيرة أوعز لعبد القيس وقبائل أخرى بمهاجمة السواحل الفارسية واحتلالها، طمعاً في امبراطورية عربية واسعة.

وكان للفرس جالية كبيرة في هجر والبحرين، وحامية من الجيش لحفظ الأمن الداخلي، وكانت وراء أبناء الفرس تدميرهم بأسباب القوة والنفوذ^(٣) وقد رأينا أن فارس كانت تؤم الأسواق العبدية، وتتاجر فيها^(٤)، وقامت التجارة بين البلدين فالعبيدون استوردوا الحديد من فارس^(٥)، وفارس ترسل الميرة والحنطة إلى الجزيرة مارة بأرض البحرين^(٦)، كما وضع الفرس ولاية على البحرين ذكر منهم المكعبر الفارسي «أزاد فيروز»^(٧) والمرزيان في هجر^(٨).

وكان الفرس يستعملون ولاية من العرب على منطقة البحرين والقبائل العربية المتاخمة، وقد عرفنا من ولاتهم قبل الإسلام المنذر بن ساوى العبدى^(٩) وهذا الإجراء الفارسي يرجع إلى رغبة الفرس في تأمين حدودهم الغربية وضبط القبائل العربية لضعف ادارتهم وسلطتهم العسكرية هناك^(١٠).

أما الجاليات الفارسية فلها حاكم فارسي - المرزيان - يدير شؤونها ويختص بها^(١١) وتحت امرته قوة عسكرية محدودة وليس له سلطة أو، نفوذ كبير على العرب، ويتضح ذلك في المراسلات التي قامت بين يثرب والبحرين فقد أرسل النبي عليه السلام كتاباً إلى المنذر بن ساوى العبدى يطلب إليه فيه الإسلام كما أرسل كتاباً آخر إلى مرزيان هجر^(١٢).

ومن المعلوم أن الفرس كانوا يواجهون الدولة البيزنطية العظيمة فجهودهم العسكرية

(١) ابن سعد: الطبقات ١٩/٢ .

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) صالح العلي: محاضرات في تاريخ العرب ٦٤/١ .

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٤٨٢/١ .

(٥) البلاذري: فتوح البلدان ٨٥ ، سلسلة أبطال الإسلام للعناني ص ٣٧.

(٦) الأحسانى: تاريخ الأحساء ٦٩.

(٧) العناني: سلسلة أبطال الإسلام ٣٧.

كلها كانت موجهة لصد هجوم الروم، ولذلك ساندوا دولة الحيرة في أطراف العراق^(٢)، لتكون سداً منيعاً أمام تقدم الروم، وهجمات العرب.

وفي ذي قار^(٤) كانت جموع عبدالقيس تقاتل إلى جانب البكرين والعرب وتهزم الفرس وتنتصر عليهم.

وبعد الإسلام عبر العلاء الحضرمي بجيوش عبدالقيس وبعض القبائل البحر واحتل بلاد فارس^(٥) ويعيد التاريخ نفسه، وتتثبت أقدام العبيد مرة ثانية على شاطئ الخليج من جهة فارس، وقاد الجيوش المنتصرة، يؤمها ثلاثة من عبدالقيس : الجارود العبدى، وسوار بن همام العبدى، وخليد بن المنذر العبدى^(٦).

وهكذا لم يترك العبيدون فرصة للنيل من الفرس والدفاع عن مواطنهم ومنازلهم، وقد وقفت البحرين حصناً شامخاً، أمام توغل جيوشهم في أرض الجزيرة العربية وصمدت صموداً جباراً، ترد هجماتهم بل وعندما كانت تجد الفرصة سانحة تعبر البحر إليهم في عقر دارهم^(٧). ولا يحدثنا الشعر العبدى عن هذه العلاقة مع الفرس.

وعندما جاء الإسلام ودوى صوته قوياً في جنبات الجزيرة هبت عبدالقيس تلبية ندائه وتدخل في دين الله أفواجاً.

٢ - مع المناذر في الحيرة:

- (١) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١٥٨/٣ .
- (٢) نفس المصدر السابق ١٥٨/٣ .
- (٣) نفس المصدر السابق ١٦٩/٣ .
- (٤) السهيلي: الروض الأنف ٥٣/١ .
- (٥) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١٦٩/٣ .
- (٦) نفس المصدر ١٨٧/٣ .
- (٧) الخليفة والحر: البحرين عبر التاريخ ٥٩ .
- (٨) نفس المصدر: ٧٥ .
- (٩) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١٩٨/٣ .

تقع الحيرة على ضفة الفرات الغربية من العراق^(١)، ساهم الفرس في إنشائها، وكانت لهم عليها سيادة وسلطان^(٢) وسكانها مزيج وخليط من قبائل عربية: (٣) التنوخيون والعباد والأحلاف وسائر العرب من القبائل الأخرى ، وتشير المصادر إلى أن عبد القيس ساهمت في إنشاء الحيرة^(٤).

قصورها عجيبة، منازلها جميلة، اشتهرت بمعاهدها العلمية وحوانيتها التجارية، بنيت على نمط فارسي ولههدف عسكري، فقد وقفت سداً منيعاً أمام هجمات الروم وغزوات العرب على حدود الدولة الفارسية^(٥).

بدأ حكم ملوك اللخمين في الحيرة بعمر بن عدي^(٦)، حيث أقر الفرس النظام السياسي لهذه الدولة، وتتابع ملوكها وأشهرهم امرئ القيس بن عمرو^(٧) الذي عاصر سابورا ذا الأكتاف وسعى لتكوين إمبراطورية عربية مستعينةً بعبد القيس ذات القوة لتنفيذ أماله وتحقيق أمانه^(٨)، وبالفعل فإن دولة الحيرة ضمت في أيامه العراق وأطراف الشام ونجداً والبحرين والحجاز وسواحل فارس واليمن وقد سجل على قبره أنه أخضع قبائل عربية عديدة وامتد نفوذه إلى البحرين^(٩).

وتحدثنا الأخبار أن البحرين كانت تابعة لدولة المناذرة ربيبة الدولة الفارسية وأن عمرو بن هند ملك الحيرة أوعز إلى وإليه على البحرين يومها بمقتل طرفة بن العبد على أثر هجائه له^(١٠).

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٢٤٤/٣ .

(٢) أمالي المرتضى: ١٨٣/١، رسالة الغفران: ٣٣٨ .

(٣) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ١٣٧ .

(٤) المرزباني: معجم الشعراء ٢٠١ .

(٥) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٢٣٢/٣ .

(٦) نفس المصدر ٢٤٦/٣ .

(٧) كحالة: معجم القبائل العربية ٧٢٦/٢ .

فالشريف المرتضى، ذكر أن عاهل البحرين هو المعلى بن حنش العبدي^(٢) وتزعم روايات أخرى أن الذي قتل طرفة هو الربيع بن حوثره العبدي وكان عمرو بن هند قد عينه والياً على البحرين^(٣).

وروايات أخرى تشير إلى المكعبر الوالي الفارسي وكان عامل عمرو بن هند على عمان والبحرين^(٤).

أيا كان الأمر فالذي نفهمه أن البحرين ومناطق عبد القيس في هذا الوقت كانت تابعة وخاضعة لسلطة المناذرة^(٥).

وقبل الإسلام كانت الحيرة وبصرى إمارتان عربيتان، يفد إليهما الشعراء ويلقون من ملوكهما كل ترحاب وتشجيع ورعاية، وقد وفد على البلاط المنذري أكثر الشعراء الجاهليين ومنهم عمرو بن قميئة، والمسيب بن علس والمنخل اليشكري وعمرو بن كلثوم، والحارث اليشكري، والمتقّب العبدي، والنابعة الذبياني^(٦).

واتصل العبديون اتصالاً مباشراً بثلاثة من ملوك الحيرة، وهم عمرو بن هند، وقابوس بن هند، والنعمان بن المنذر، ابن أخي عمرو بن هند والملقب (بأبي قابوس)^(٧).

أما العلاقات بين الحيرة والبحرين أو بين المناذرة والعبديين فكانت عدائية من جانب وسلمية من جانب آخر، وقد حدثنا الشعر أن كتائب المناذرة وأشهرها، دوسر^(٨)،

(١) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٢٤٧/٣.

(٢) الأنباري: شرح المفضليات ٥٧٦.

(٣) المفضليات ٢٩٦.

(٤) نفس المصدر ٢٩٧.

(٥) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٣٨٧، وانظر : ديوان عبد القيس.

(٦) انظر : شعر الحرب.

والجأء^(٢) كانت تجتاح أرض العبيدين وتوجعهم قتلاً، وتسوق أسراهم، وتفتك برجالهم،
ولذا نجد ثورات متتالية من العبيدين، وهجاء مرأ من شعرائهم.

وأشعل هذه الثورة العاتية، والهجاء المر، الشاعران يزيد وسويد الشنيان، فيزيد يرى
بأن النعمان خائن مخادع^(٣).

وفي قصيدة أخرى طلب إلى المناذرة، بأن يرفعوا أيديهم عن عبدالقيس ويوقفوا
هجماتهم عليهم^(٤):

أقيموا بني النعمان عنا صدوركم
وَأَلَا تَقِيمُوا كَارِهِينَ الرُّؤُوسَا

ولم يكن سويد أخو يزيد، بأقل حماسة منه في هجاء المناذرة وإيذائهم، إذ يصف
عمرو بن هند بالظلم وحب العدوان^(٥).

وفي شعر العبيدين إشارات كثيرة، إلى هذه العلاقة العدائية سنفصل الحديث في
شأنها عند دراستنا لشعر الحرب^(٦).

أما العلاقة السلمية فتقول بها بعض المصادر^(١)، ويبدو أن موقف المثقب العبيدي
الشاعر وسفارته إلى المناذرة، هي التي أوجبت تلك العلاقة، فقد مدح المثقب المناذرة، ومن

(١) كحالة: معجم القبائل ٧٢٦/٢.

(٢) ديوان المثقب العبيدي: ٦٨.

(٣) نفس المصدر ١٠٢ .

(٤) انظر : شعر السلم.

(٥) المبرد: الكامل في الأدب ٣٧٥/١ ، الدكتور صالح العلي: محاضرات في تاريخ العرب ٨٥/١ .

ممدوحيه الملك عمرو بن هند^(٢):

واضح الوجه، كريم نجره
ملك السيف إلى بطن العشر

وقال في النعمان أبي قابوس^(٣):

فإن أبا قابوس عندي بلاؤه
جزاء بنعمى لا يحل عنودها

ويؤكد المثقب في أشعاره علاقة طيبة بين العبيدين والمناذرة، لم لا، وهو الرئيس في قبيلته، السفير منها إلى الحيرة، داوي الجراح، وينهي الخصام، وفي دراستنا لشعر السلم والإصلاح، سنأتي على الكثير من جهوده في هذا الميدان الإنساني^(٤).

٣ - العلاقات مع الجزيرة العربية:

أ - مع كندة: استطاعت مملكة كندة أن تفرض سلطانها على مساحات واسعة من أرض الجزيرة العربية، بعد أن اتخذ حجر بن عمرو هضبة نجد، مركزاً له ومنطلقاً لتوسعاته، وسيطرته على القبائل العدنانية^(٥).

وفي منتصف القرن الخامس الميلادي، ثارت قبائل معد العدنانية تغلب وبكر وائل، وعبد القيس وعنزة، وضبيعة، والنمر بن قاسط، بقيادة كليب بن وائل واستطاعت أن تتخلص من حكم اليمن، وبذلك تقلص حكم كندة على تلك القبائل، غير أن الحرب قامت بين قبائل معد وحدثت حرب البسوس بين بكر وتغلب واستمرت أربعين عاماً، وهناك تمزقت روابط الألفة بين القبائل وانفرطت وحدتها وأخذت كل

(١) الخليفة والحر: البحرين عبر التاريخ ٨٠/١ .

(٢) الخليفة والحر: البحرين عبر التاريخ ٨٠/١، صالح العلي: محاضرات في تاريخ العرب ٨٥/١، ديوان المثقب العبيدي: ص ٢٥٧.

منها تسعى إلى استقلالها^(١).

وفي مطلع القرن السادس الميلادي، تمكن الحارث بن عمرو الكندي من السيطرة على معظم القبائل العدنانية ثانية، وامتد سلطانه إلى الحجاز واليمن، وأصهر إلى تغلب وعقد صلحاً بين بكر وتغلب، واشترك في الصلح رجالات القبائل، ومن بينها جد المثقب العبدى، وبذا تكون عبد القيس قد لعبت دوراً كبيراً في الإصلاح^(٢)، واشتركت في هزيمة اليمن، شأنها شأن سائر قبائل ربيعة، ودخلت تحت سيطرة كنده بعد أن وزع الحارث بن عمرو أولاده على القبائل وذلك على النحو التالي: حجر بن الحارث على بني أسد وغطفان، وشر حبيل بن الحارث على بكر بن وائل ويطون من تميم، ومعد يكرب بن الحارث على تغلب والنمر بن قاسط وسعد بن زيد مناة، وعبد الله بن الحارث على عبد القيس، وسلمة بن الحارث على قيس.

جرى هذا التوزيع بعد أن تفاسدت القبائل وجاءت إلى الحارث الكندي وهو يستولي على الحيرة وطلبت إليه التدخل في الأمر ووضع حد لنزاعاتها وخلافاتها، وهكذا تكون كنده في مطلع القرن السادس الميلادي قد سيطرت على قبائل معد العدنانية سيطرة تامة.

وسرعان ما تبدل الحال عندما عاد المنذر بن ماء السماء إلى عرشه في الحيرة حيث أخذ يساعد القبائل على رفض سيطرة كنده^(٣)، حتى استطاعت أن تتخلص من حكم الكنديين لتدخل في طاعة اللخمين مع الحفاظ على روح الاستقلال الداخلي لكل قبيلة من

(١) ابن الأنباري: شرح القصائد الجاهليات ص ٥، محمد جاد المولى: أيام العرب في الجاهلية ١١٢.

(٢) الخليفة والحرير: البحر في التاريخ ٨٣/١.

(٣) حتى: تاريخ العرب ١٢٠/١، الأصفهاني: الأغاني ٢٥٨/١٤.

تلك القبائل، ويقال : إن المنذر هو الذي أصلح بين بكر وتغلب في حرب البسوس حوالي عام ٥٢٥م^(٢).

وخلال فترة القرنين الخامس والسادس للميلاد كانت عبدالقيس مثل بقية القبائل تسعى للحفاظ على استقلالها وسيطرتها على المناطق التي نزلتها، وليكون لها صوت مسموع ومركز قوي بين سائر القبائل العدنانية، أما الشعر فلا يحدثنا بشيء عن علاقة عبدالقيس وكندة^(٣).

ب - مع القبائل الأخرى: يحدثنا الشعر عن قليل من الأيام بين عبدالقيس وغيرها من القبائل فهي تارة مهزومة، وتارة أخرى منتصرة، تحارب مرة، وتلجأ إلى الإصلاح مرة أخرى، وهذه أهم الصلات والعلاقات مع القبائل:

مع بكر بن وائل: قامت الحرب بين عبدالقيس ولجيم بن صعيب بن بكر بن وائل في أرض ذي طريف انتهت بهزيمة لجيم وانتصار عبدالقيس، وحديثنا عن ذلك المفضل العبدى في منصفته الشعرية عندما قال^(٤):

فأبقينا ولو شئنا تركنا
لجيماً لا تقود ولا تسوق

ونقلت إلينا المصادر أن الجارود العبدى أغار على البكرين في الجاهلية

(١) العسقلاني: الإصابة ٢٢٦/١.

(٢) ابن دريد: الاشتقاق ٣٣١.

(٣) ديوان المتلمس للصيرفي ص ١٥١.

(٤) المصدر السابق ص ١٥٠، يرحض: يغسل.

(٥) ياقوت: معجم البلدان ١٣٤/٥ .

(٦) قرية في البحرين لعبد القيس.

(٧) ياقوت: معجم البلدان ١٤٢/٦ .

وجردهم ومن هنا سمي بالجارود العبدى^(١)، وقال المفضل يومها «كما جرد الجارود بكر بن وائل»^(٢).

وحسبى أن أشير إلى أن رجال عبدالقيس من الحوثر هم الذين قتلوا طرفة بن العبد البكري^(٣)، وفي ذلك يقول المتلمس الضبعي^(٤) خال طرفة مشيراً إلى دفع دية طرفة:
لن يرحض السؤات عن أحسابكم
نعم الحوثر إذ تساق لمعبد

مع عبس: يبدو أن العبديين انتصروا على العبسيين عندما هاجم العبسيون أرض عبدالقيس في منطقة القطيف ويظهر أن الشاعر العبسي عنتر دخل هذه الحرب إذ يقول الشاعر العبدى عمرو بن أسوى^(٥):

وتركن عنتر لا يقاتل بعدها
أهل القطيف قتال خيل كنفع

مع تميم: في يوم عينين^(٦) خرج بنو منقر ممثارين من هجر، فعرضت لهم عبدالقيس، فاستعان بنو منقر ببني مجاشع فدافعوا عنهم ضد عبدالقيس واستطاع المنقريون والمجاشعون الانتصار على العبديين، وقال الشاعر بعد ذلك:^(٧)

ونحن منعنا يوم عينين منقراً
ولم ننب في يومي جدود من الأسل

وكانت تقوم غارات عديدة بين العبديين وبين بني تميم بحكم الجيرة فقد أغار قيس بن عاصم ببني سعد على عبدالقيس وهزمهم أكثر من مرة^(٨).

(١) الأغاني: ٨١/١٤ .

(٢) المرداء أرض بهجر، ياقوت ٧٤٠/٤ .

(٣) ديوان عامر بن الطفيل ٤٩ .

(٤) المصدر السابق ١١١ .

(٥) الأغاني: ٣١٠/١٦ .

(٦) أبو تمام: الوحشيات ١٢٦ وانظر : ديوان عبدالقيس.

مع قيس: في يوم مرداء هجر^(٢) قال الشاعر عامر بن الطفيل مشيراً إلى هزيمة
عبد القيس^(٣):

وعبد القيس بالمرداء لاقت
صباحاً مثلما لاقت ثمود
صبحناهم بكل أقب نهد
ومطرده يقدر الحديد
وأبيض يخطف القطران غضب
رقيق الحد زيننه عمود

وفي قصيدة أخرى أشار عامر بن الطفيل إلى أن القيسيين أخذوا سبايا من
البحرين من عبد القيس إذ يقول^(٤):

وقد نلنا لعبد القيس سبباً
من البحرين يقتسم اقتساماً

هناك أيام أخرى كثيرة لكنها لم تلق اهتماماً من قبل المؤرخين اشتركت فيها
عبد القيس مع القبائل الأخرى في الجزيرة ومنها «يوم النشاس»^(٥) بين بني عامر من
عبد القيس وأهل اليمامة ويوم «فاعة المنقى» الذي أشار إليه ثعلبة بن عمرو عندما قال^(٦):

كأني يوم فاعة المنقى
على أني كظمت لها أميم

ويوم «ذات الرمث» الذي أشار إليه شاعر من عبد القيس^(١):

(٣) المفضليات: ١٢١، وانظر: ديوان عبد القيس.

(٤) ابن حبيب: أسماء المغتالين (نوازل المحفوظات) ١١٧/٦ .

(٥) المبرد: الكامل في الأدب ١٤١/١ .



الفصل الثاني

١ - الشعراء:

أنجبت قبيلة عبدالقيس عدداً كبيراً من الشعراء كانوا بين أشعر أهل المدن فقد قال أبو عبيده^(١) «اتفقت العرب على أن أشعر أهل المدن، أهل يثرب، ثم عبدالقيس، ثم ثقيف»، وأيد ذلك الجاحظ عندما ذكر أن العبديين، الذين نزلوا البحرين أشعر قبيلة في العرب^(٢). وقد استطعنا أن نجمع شعر نيف وأربعين شاعراً وشاعرة يقف في مقدمتهم المثقب العبدى أشهر شعراء القبيلة، ومع المثقب شعراء آخرون، وهذه إحصائية بأسمائهم وهم:

- ١ - عامر بن معشر «المفضل».
- ٢ - شأس بن نهار «الممزق».
- ٣ - يزيد بن الخدّاق.
- ٤ - سويد بن الخدّاق.
- ٥ - ثعلبة بن عمرو.
- ٦ - عمرو بن أسوى.
- ٧ - الجمال العبدى.
- ٨ - جذل بن أشمط.
- ٩ - عمرو بن سلمة بن جبير.
- ١٠ - عمرو المحاربي.
- ١١ - أنس بن مساحق.
- ١٢ - حدّار بن ظالم.

(١) الأصفهاني: الأغاني ١٢٢/٤، ١٣٧/٤ .

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين ٨١/١ .

- ١٣ - مالك بن ثعلبة.
١٤ - توبة بن مضرس.
١٥ - مسعود بن سلامة.
١٦ - سلمة بن أبي حبابة.
١٧ - مالك بن عروة.
١٨ - ربيعة بن توبة.
١٩ - نشبة بن عمرو.
٢٠ - أسامة بن ربيعة.
٢١ - مويلك بن قابس.
٢٢ - النعمان بن حنظلة.
٢٣ - عروة بن سنان المحاربي.
٢٤ - أبو عفراء المحاربي.
٢٥ - الجعشم بن عوف.
٢٦ - حريث بن الزبيرقان.
٢٧ - ربيعة بن ليث.
٢٨ - عامر بن زيد مناة.
٢٩ - عمرو بن حنثر.
٣٠ - شهاب بن العيف.
٣١ - عبدالله بن جنح النكري.
٣٢ - شعراء مجهولون من عبدالقيس.
٣٣ - الشاعرة أخت سعد بن قرط.
٣٤ - الشاعرة ابنة حكيم بن عمرو.
٣٥ - الشاعرة أم النحيف العبدية.
٣٦ - شاعرات مجهولات من عبدالقيس.

٢ - مصادر شعرهم:

من الأمور التي تواجه الباحثين في مصادر الشعر الجاهلي فقدُ كثير من مجموعات شعر القبائل، التي تزخر بأسمائها كتب التراجم والأنساب، فلم يصل إلينا منها إلا صدى ضئيل، وبالإضافة إلى ذلك فقد تركزت عناية الرواة والشراح حول المشهورين من الشعراء، ومن هنا فقد توزع الشعراء المقلون والمغمورون بين مصادر شعرية أخرى، تناولت المختارات الشعرية والتراجم وكتب الثقافة العربية المختلفة^(١).

وشعراء عبد القيس من المقلين في الجاهلية، فكان علينا أن نفتش عن المصادر التي حفظت لنا شعرهم، وأن نطمئن من بداية الطريق، إلى أنه ليس هناك ما يمنع من أن يكون الشاعر المقل، جيد الإنتاج، أصيل النظم، مطبوع الشعر، فقد اعتبر بعضهم من فحول الشعراء^(٢)، فهو مقل فيما وصل إلينا من شعره، ولذا فإن شعر هذه الفئة المقلّة، على قدر كبير من الجودة والأصالة الشعرية.

ومصادر شعر العبديين عندي ثلاثة، أولها دواوين الشعر، وثانيها المصادر القديمة، وثالثها الدراسات الحديثة.

١ - دواوين الشعر:

ذكر الرواة دواوين القبائل، التي بلغ عددها أكثر من ستين ديواناً^(٣) بينها ديوان عبد القيس^(٤)، لكن هذا الديوان لم يصل إلينا فقد طوحت الأيام أشعاره، ومزقت عوادي الزمان أوراقه، وبعثرت قصائده، وكان شأنه شأن الكثير من الشعر الجاهلي، الذي لم يصل إلينا.

(١) يوسف خليف: الشعراء الصعاليك ١٥١، ١٥٤ .

(٢) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ٢٧٨ .

(٣) ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي ص ٤٥٣ .

(٤) الأمدي: المؤتلف والمختلف ص ٧٠، ٢٥٥ .

ولم يبق لنا من بين دواوين القبائل إلا ديوان هذيل^(١) الذي لقي عناية فائقة، فقد تصدى لدراسته وشرحه في القديم كثيرون، وفي العصر الحديث درس أحمد زكي شعر هذيل في العصرين الجاهلي والإسلامي، وما دام الأمر كذلك في شعر العبديين، فقد أخذت في جمع شعرهم ورحت أبحث عن قصائد ديوانهم، في بطون الكتب وسائر المصادر والمظان التي حفظت لنا تراث الجاهليين، والدراسات التي تناولت هذه الفترة من أدبنا العربي.

أما دواوين شعراء عبد القيس، فكان مصيرها أيضاً مصير دواوين القبائل التي ضاعت ولم يصل إلينا منها شيء، والديوان الوحيد الذي نجا من عملية الضياع هو ديوان المثقب العبدى، ونجد أول ذكر لهذا الديوان عند أبي بكر الأموي «ت ٥٧٥هـ» فقد ذكر قول أبي علي القابي «قرأت شعر المثقب علي ابن دريد»^(٢) وذكر شعر المثقب البكري^(٣)، وفي خزانة الأدب للبغدادى كان ديوان المثقب من المراجع التي اعتمد عليها صاحب الخزانة^(٤) واختار المفضل من شعر المثقب ثلاث قصائد: الدالية رقم ٢٨ والنونية رقم ٧٦ والميمية ٧٧ في المفضليات.

وقد بقي لنا من ديوان المثقب أربع مخطوطات، لا يعرف تاريخ نسخها ولا اسم ناسخها، الأولى في دار الكتب المصرية برقم ٥ أدب م، والثانية بمكتبة عاشر أفندي بالأستانة رقم ٨٦٧، والثالثة في دار الكتب المصرية رقم ٦ لغة شن وهي بقلم الشنقيطي، والرابعة في دار الكتب المصرية رقم ٥٦٥ أدب وبخط محمود سامي البارودي^(٥).

(١) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ٨٢/١ .

(٢) ديوان المثقب: ص ٢٦.

(٣) نفس المصدر.

(٤) البغدادى: خزانة الأدب ٩/١ «بولاق».

(٥) ديوان المثقب: تحقيق الصيرفي ص ٢٨.

وقد قام بتحقيق ديوان المثقب الشيخ محمد حسن آل ياسين ١٩٥٦ ضمن مجموعة نفائس المخطوطات، وفي عام ١٩٧١ أصدر الأستاذ حسن كامل الصيرفي ديوان شعر المثقب محققاً تحقيقاً علمياً، فيه جهد كبير، واهتمام عظيم.

٢ - المصادر القديمة:

وقيمة هذه المجموعة أنها من أهم مصادر الشعر الجاهلي^(١) وتضم:

المختارات الشعرية، والحماسات، والمصادر التاريخية والجغرافية، والمصادر اللغوية والأدبية.

أ - المختارات الشعرية: لعلنا لا نغالي إذا ما قلنا: إن أهم وثيقتين شعريتين، لشعر المقلين من الشعراء الجاهليين^(٢)، هما المفضليات للمفضل بن محمد الضبي الكوفي والأصمعيات لعبد الملك بن قريب والمعروف بالأصمعي البصري وهو تلميذ الضبي في المنهج والاتجاه.

فالمفضليات أقدم وثيقة اختيارية^(٣)، أقدم عليها المفضل من كتب الاختيارات الشعرية الجاهلية، وكان سبب اختيارها أن تكون مرجعاً للخليفة المهدي، ومصدراً ثرياً في أوقات فراغه، للاطلاع على النواحي الأدبية والميادين الشعرية^(٤)، فقد أشار المنصور على المفضل أن يختار أجود قصائد المقلين ليدرب بها المهدي ويعلمه رائع الشعر وخالصه.

وتضم هذه المفضليات مئة وثلاثين قصيدة شعرية، لسبعة وستين شاعراً.

(١) ناصر الدين: مصادر الشعر الجاهلي ص ٥٧٢.

(٢) الدقاق: مصادر التراث العربي ص ٤٤، والمفضليات: شرح شاکر وهارون ص ٩.

(٣) نفس المصدر.

(٤) الأنباري: شرح المفضليات ص ١.

منهم سبعة وأربعون جاهلياً، وستة إسلاميين، وأربعة عشر مخضرمات، وجميع الأشعار، ذات إسناد صحيح، ورواية كاملة واستقصاء دقيق^(١).

ويقول الأنباري^(٢) «أملى علينا أبو عكرمة هذه القصائد المختارة للمفضل الضبي إملاء مجلساً مجلساً من أولها إلى آخرها وذكر أنه أخذها عن محمد بن زياد الأعرابي» ولم يكن يكتفي بذلك، وإنما كان يستعين بالرواة ويرجع إلى علماء اللغة أمثال أبي عمر الكرخي وأبي بكر العبدي والطوسي.

وقام بشرح المفضليات كثيرون، ومنهم الأنباري ت ٣٠٥ هـ، وابن النحاس ت ٣٢٨ هـ، والمرزوقي ت ٤٢١ هـ، والتبريزي ت ٥٠٢ هـ، والميداني ت ٥١٨ هـ^(٣).

وميزة المفضليات أن رواتها ثقات، وهي تصف بيئة الجاهليين وتقاليدهم^(٤)، ويقول المحدثون في شأنها: «إنها من أروع وأوثق النصوص الجاهلية التي لا يرقى إليها الشك^(٥)».

ومع القيمة الأدبية والتاريخية للمفضليات، فقد لحق بها بعض الاضطراب لكثرة رواتها، وتعدد شراحها، ويشير ناصر الدين^(٦)، إلى أن أحد تلاميذ المفضل، وهو الأصفهانى وقع منه مثل هذا الاضطراب، ويشير الأستاذان أحمد شاكر وعبد السلام هارون، إلى أن عدد المفضليات الأصلي ثمانون قصيدة^(٧) قرئت على الأصمعي، فأقرها وزاد عليها أبياتاً، واختار قصائد أخرى، ثم جاء بعد الأصمعي من زاد عليها حتى بلغت العدد الذي ذكرناه.

(١) ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي ٥٧٣ - ٥٧٥.

(٢) الأنباري: شرح المفضليات «المقدمة».

(٣) الدقاق: مصادر التراث العربي ٤٤.

(٤) شوقي ضيف: العصر الجاهلي ١٦٥.

(٥) نفس المصدر ١٥٣.

(٦) ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي ٥٧٣.

(٧) المفضليات: تحقيق شاكر وهارون ص ١٠.

ولم يذكر الرواة أن المفضل قام بشرحها وإنما الذي فعل ذلك تلاميذه الذين جاءوا بعده^(١)، ويذكر الدقاق^(٢) أن المفضليات لها قيمة كبيرة، إذ احتفظت بجانب كبير من الشعر الجاهلي، وقصائدها في معظمها كاملة وغير مجزأة، ثم هي أقدم مجموعة شعرية وصلت إلينا.

ويهمنا هنا أن نشير إلى شعراء عبد القيس الذين ضمتهم هذه المفضليات وهم:

- ١ - المثقب العبدى: له المفضليات رقم ٢٨، ٧٦، ٧٧ وعدد أبياتها ٩١ بيتاً من الشعر، وقد حواها ديوان المثقب العبدى الذي حققه الأستاذ الصيرفي.
- ٢ - الممزق العبدى: له المفضليات رقم ٨٠، ٨١، ١٣٠ وعدد أبياتها ٢٢ بيتاً.
- ٣ - يزيد بن الخذاق العبدى: له مفضليتان رقم ٧٨، ٧٩ وعدد أبياتها ٢٢ بيتاً.
- ٤ - ثعلبة بن عمرو: له مفضليتان رقم ٦١، ٧٤ وعدد أبياتهما ٣٠ بيتاً.
- ٥ - رجل من عبد القيس: له المفضلية رقم ١٣ وعدد الأبيات ثمانية.
- ٦ - سويد بن الخذاق: ذكر مع أخيه يزيد بن الخذاق وروي له بيتان من الشعر.

ومن هذا يمكننا أن نقول: إن عدد شعراء عبد القيس في هذه المفضليات ستة شعراء، أما نصيبهم من المفضليات فهو إحدى عشرة مفضلية، وعدد الأبيات يصل إلى مئة وأربعة وسبعين بيتاً من الشعر، وإن هؤلاء الشعراء من المشهورين بين شعراء القبيلة كما لا يفوتني أن أنوه أنهم يشكلون جانباً كبيراً من المادة الشعرية لعبد القيس.

أما الأصمعيات فهي الوثيقة الشعرية الثانية والمكملة للشعر الجاهلي^(٣) قام بجمعها واختيارها على ذات منهج المفضليات، الأصمعي عبد الملك بن قريش وتضم هذه المجموعة الشعرية الثانية اثنين وتسعين قصيدة وقطعة لواحد وسبعين شاعراً، منهم ستة إسلاميين، وأربعة عشر مخضرمات، وأربعة وأربعون جاهلياً وسبعة مجهولين، وهي في روايتها وثقتها وإسنادها كالمفضليات^(٤).

(١) ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي ٥٧٣.

(٢) الدقاق: مصادر التراث العربي ٤٣.

(٣) الدقاق: مصادر التراث العربي ٤٦.

(٤) ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي ٥٧٨.

وكان صاحب الأصمعيات بحراً في اللغة وفي كثرة الرواية، كما وصفه المبرد^(١)، وقد راق للرشيد أن يصنع صنع المنصور والمفضل فوكل إلى الأصمعي تأديب ابنه الأمين، ورغب إليه أن يختار من عيون الشعر القديم قصائد يتعلمها الأمين ويدرب بها، واستجاب الأصمعي لهذه الرغبة فاختر الأصمعيات.

ولقد تداخلت الأصمعيات مع المفضليات فأدى ذلك إلى اضطراب الشعر ووقع نتيجة ذلك بعض الاختلاط، وحدث التداخل بينهما^(٢).

وتضم الأصمعيات من شعراء عبدالقيس عدداً أقل من المفضليات وهم:

١ - الممزق العبدى: وله الأصمعية رقم ٥٨ وعدد أبياتها عشرون بيتاً.

٢ - المفضل النكري العبدى: وله الأصمعية رقم ٦٩ وعدد أبياتها تسعة وثلاثون بيتاً.

٣ - عبدالله بن جنح النكري: وله الأصمعية رقم ٣٠ وعدد أبياتها سبعة أبيات.

واعتقد محقق الأصمعيات أن هذا الشعر هو للمفضل النكري والصحيح أنه لشاعر آخر من عبدالقيس^(٣) لكن لفظة «النكري» هي التي جعلت المحقق يذهب إلى هذا الاعتقاد.

ومن هنا نرى أن الأصمعيات ثلاثة والشعراء ثلاثة، وعدد الأبيات ستة وستون بيتاً.

ويهمني أن أشير هنا إلى أن المفضليات والأصمعيات معاً تضمان ما يقرب من مئتين وأربعين بيتاً من الشعر العبدى، ويوشك هذا الرقم أن يصل إلى نصف الشعر الذي وصل إلينا عن العبديين ويمكننا أن نطمئن إلى أن هذا الشعر، جاء في وثيقتين محقتين، وهما تحويان أشعاراً جيدة الضبط، سليمة الرواية، صحيحة الإسناد، ولذا كانت المفضليات، والأصمعيات، من أوثق مصادر الشعر الجاهلي^(٤).

(١) الدقاق: ٤٦.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) انظر: ديوان عبدالقيس.

(٤) عمر الدقاق: مصادر التراث العربي ٤٤.

ولابد لي من التنويه بكتاب الاختيارين، إلى جانب المفضليات والأصمعيات، فإذا كان المنصور قد عهد إلى المفضل اختيار المفضليات، لتدريب المهدي على رائع الشعر، وكذلك الرشيد عندما رغب إلى الأصمعي في اختيار الأصمعيات لتأديب الأمين في عيون الشعر، فقد جاء الأخفش الأصغر أبو الحسن على بن سليمان بن الفضل «ت ٣١٥ هـ» ليجمع بين المفضليات والأصمعيات في كتاب واحد ويعلق عليها شرحاً يفسر الغريب ويوضح الغامض وسمى كتابه «كتاب الاختيارين» وقد أَدب بهذا الكتاب ولد الوزير إبراهيم بن المدبر في بغداد^(١).

ب - الحماسات: في أواخر القرن الثاني الهجري، وأوائل القرن الثالث بدأت أساليب جديدة، في اختيار الشعر القديم وتبويبه وترتيبه، فقام بعض الشعراء والمهتمون بالأدب والنقد يؤلفون كتباً ضمت أشعاراً من شعر الذين تقدموهم، ودفع هذه الفئة إلى هذا النهج أن العلماء فرغوا من تدوين أشعار الكثيرين والمشهورين فلم يبق أمامها، إلا أن تبحث في شعر المقلين والمغمورين وبدأت الاختيار الجديد والتبويب الحديث، فاختارت لكل شاعر أجود ما قال واعتمدت على الرواية قراءة وإملاء ثم على دواوين الشعراء أنفسهم وكتب الشعر التي وجدت في تلك الفترة وساعدها على ذلك ذوقها الشعري، وشغفها بالأدب وكان رائد هذا الاتجاه الجديد الشاعر حبيب بن أوس الطائي (أبو تمام) والمتوفي ٢٣٨ هـ^(٢).

وحماسة أبي تمام، بني اختيارها على أبواب المعاني، باب الحماسة أكبرها، وثمانية أبواب أخرى للأدب، والنسيب، والهجاء، والأضياف والمديح، والصفات، والسير والملح، ومديح النساء^(٣)، وجميع الحماسات التي تلت حماسة الطائي «أبي تمام» رتبت على معاني الشعر وكانت في أبواب^(٤).

(١) الأخفش: كتاب الاختيارين: تحقيق فخر الدين قباوة «مقدمة التحقيق».

(٢) «مقدمة الحماسة الشجرية»: تحقيق الملوحي وأسماء الحمصي.

(٣) ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي ٥٨٢.

(٤) مقدمة الحماسة الشجرية.

ولذلك نميل إلى اعتبار هذه الحماسات حلقات في سلسلة طويلة من كتب الاختيارات الشعرية.

وحظيت حماسة أبي تمام باهتمام كبير وواسع لكنها مع الأسف لم تكن بشعراء
عبد القيس سوى الشاعرة أم النخيف العبدية^(١).

ولأبي تمام حماسة أخرى عرفت باسم الوحشيات^(٢) وسميت كذلك باسم الحماسة
الصغرى تميزاً لها عن الحماسة الكبرى، التي ذكرناها، وأشار الأراجكوتي^(٣) إلى أن
أغلب شعراء هذه الحماسة الصغرى من المقلين والمغمورين من الشعراء، وقد صنفها
أبو تمام بعد تصنيفه الأول.

ويبدو أن الطائي قد صنف «الوحشيات» في وقت تلج عندما كان في خراسان فمنعه
المطر والشتاء، أن يسافر فجلس وهو سجين الثلوج، وأخرج للناس هذه الوحشيات، وتمتاز
أشعارها بقصرها، وعدم شهرة أصحابها، ولذا كانت تنحو منحى المقطعات الشعرية^(٤)،
وأهم شعراء عبد القيس الذين تناولتهم الوحشيات: يزيد بن الخذاق، وثعلبة بن أم حزنة،
وجذل بن أشمط، وشاتم الدهر العبدية، وعمرو بن سلمة، وأخت سعد بن قرط العبدية، وعدد
أبيات الشعر فيها أربعون بيتاً تقريباً، وبذا عوضت النقص في الحماسة الكبرى.

وإذا كانت حماسة أبي تمام الكبرى لم تأت على شيء من شعر عبد القيس، فإن
البحتري قد عوض النقص، وسد الثلمة، وذكر في حماسته الكثير من الشعراء
ومقطوعاتهم الشعرية، ولذا كانت حماسة البحتري زاداً كبيراً، وشهياً على الطريق إلى
عبد القيس، وضمت أكثر من عشرين شاعراً من المقلين والمغمورين، وتجاوز عدد الأبيات
الشعرية في ديوان عبد القيس من هذه الحماسة، ما يزيد على مئة بيت من الشعر، وبذلك
تعتبر المصادر الثلاثة، المفضليات، والأصمعيات وحماسة البحتري أكثر المصادر اهتماماً
بشعر العبدية وتضم قرابة ثلاثمئة وخمسين بيتاً من الشعر.

(١) حماسة أبي تمام ٥٦١.

(٢) عمر الدقاق: مصادر التراث العربي ٦٤.

(٣) أبو تمام: الوحشيات ص ٦.

(٤) الدقاق: مصادر التراث العربي ص ٦٦.

ولقد تنوعت الأبواب، وكثرت الأغراض الشعرية فيها حتى وصلت إلى (١٧٤) باباً من أبواب الشعر وزاد عدد الشعراء فبلغوا قرابة (٦٠٠) شاعر وكانت المقطوعات الشعرية (١٤٥٤) مقطوعة.

وتضم حماسة البحتري مجموعة من الشعراء المقلين، أكثرهم من الجاهليين والإسلاميين واختار البحتري أشعار هؤلاء، للفتح بن خاقان وزير المتوكل ونهج فيها منهج أستاذه أبي تمام، لكنه أكثر من أغراضها، وأبوابها، وأصبحت الحماسة البحترية تمتاز بالنواحي التالية^(١):

١ - تلجأ إلى تفتيت القصيدة الشعرية الواحدة، إلى عدد من المقطوعات والأجزاء والأبيات، فتوزعها على أبواب عديدة، فيؤدي ذلك إلى تمزيق القصيدة الأم.

٢ - تغفل بعض الأغراض الشعرية فلا تحفل بها كالغزل والخمريات.

٣ - تقوم على نظام وحدة البيت لا على وحدة القصيدة وعلى الاهتمام بالمعنى الواحد دون ربطه إلى غيره من المعاني.

٤ - تكثر من الحكم والأمثال والعظات والتجارب والحرب وفلسفة الموت والحياة والجانب الخلقي.

٥ - ضمت الحماسة البحترية أكبر مجموعة من الشعراء القدامى جاهليين وإسلاميين.

ومن هذه الميزات كان لابد لنا من الإشارة إلى ظاهرة خلو الغزل عند شعراء عبد القيس في حماسة البحتري وإلى قصر مقطوعاتهم، وإلى ظاهرة فلسفة الموت والحياة، ونظرتهم إليه وتجارب الزمان، وأحداث الدهر.

أما أولئك الشعراء فيها فصدروا عن طبع صاف ونبع ثر من التدفق الشعري.

(١) الدقاق: مصادر التراث العربي ص ٦٧.

ونثبت هنا قائمة شعراء عبد القيس الذين وردوا في هذه الحماسة بالإضافة إلى

المتقب العبدى وهم:

- | | |
|-----------|------------------------------------|
| ٦ أبيات. | ١ - الممزق العبدى |
| ١٣ بيتاً. | ٢ - المفضل العبدى |
| ١١ بيتاً. | ٣ - جذل بن أشمط |
| ٨ أبيات. | ٤ - الجمال العبدى |
| ٤ أبيات. | ٥ - عمرو بن أسوى |
| ٤ أبيات. | ٦ - عمرو بن هبيرة |
| ٤ أبيات. | ٧ - نشبة بن عمرو |
| ٣ أبيات. | ٨ - ثعلبة بن عمرو |
| ٤ أبيات. | ٩ - مسعود بن سلامة |
| ٦ أبيات. | ١٠ - ربيعة بن توبة |
| ٤ أبيات. | ١١ - أنس بن مساحق |
| بيتان. | ١٢ - مالك بن عروة |
| بيتان. | ١٣ - حريث الزبرقان |
| بيتان. | ١٤ - أسامة بن ربيعة |
| بيتان. | ١٥ - هرم بن حيان |
| بيتان. | ١٦ - نفيل بن مرة |
| بيتان. | ١٧ - مويك بن قابس |
| بيت واحد. | ١٨ - النعمان بن حنظلة |
| بيت واحد. | ١٩ - معارك بن مرة |
| بيت واحد. | ٢٠ - سلمة بن حبابة |
| بيت واحد. | ٢١ - عمرو بن مرة |
| بيت واحد. | ٢٢ - ربيعة بن توبة |
| بيت واحد. | ٢٣ - توبة بن مضر |
| ٢٤ بيتاً. | ٢٤ - شعراء مجهولون وشاعرات مجهولات |

عدد الأبيات الشعرية (١١٠) أبيات.

وتنفرد الحماسة البحترية بذكر هذه الطائفة الكبيرة من شعراء عبدالقيس، بينما تسكت المصادر الأخرى عن ذكرهم، بيد أن هذه الحماسة لم تتعرض لحيواتهم، وإنما اكتفت بذكر أسمائهم إلى جانب مقطوعاتهم الشعرية وأشار المسلم في بحثه^(١)، بأن هؤلاء الشعراء من الجاهليين وأفرد لهم فصلاً خاصاً سماه الحياة الثقافية، وقال «إن هؤلاء الشعراء استأنثروا باهتمام البحتري فذكر لهم في حماسته ستين قطعه شعرية»، ويؤيد ما ذهب إليه المسلم الأنصاري والعبيد في كتابيهما^(٢).

وبالطبع لم يذكر لنا المسلم والآخرين المقياس الذي اعتمدوه في توثيق الشعر ولذا كان علينا أن نمضي إلى مقياس التوثيق الذي ارتأيناه^(٣) فنظرنا في نصوص الشعراء العبيدين، وجدنا أن الشعراء سلمة بن أبي حباب، ومالك بن عروة، وحريث الزبرقان، وشاعرة مجهولة تمثل أشعارهم مدرسة عبدالقيس الحربية ففي شعرهم خصائصها وميزاتها^(٤)، وإن الشعراء سامة بن ربيعة، وربيعه بن توبة، ومويك بن قابس، ونشبة بن عمرو، تمثل أشعارهم نظرة العبيدين إلى الموت والحياة^(٥)، أما أبناء مرة نفيل^(٦)، وعمرو ومعارك، ومقاتل بن مسعود وهرم بن حيان^(٧) فقد وجدنا نصوصهم تحمل في مضامينها وألفاظها الروح الإسلامية، وبعضهم نصت المصادر على أنه عاش في الإسلام رداً من الزمان.

(١) محمد سعيد المسلم: ساحل الذهب الأسود ٢٦١.

(٢) الأنصاري: لمحات من الخليج العربي ١٣١، العبيدي: الأدب في الخليج ١٢.

(٣) انظر: توثيق الشعر.

(٤) انظر: شعر الحرب.

(٥) انظر: شعر الموت والحياة.

(٦) البحتري: الحماسة ٧٤، ١٥٠، ٢٥٥.

وبعد الطائينين: أبي تمام والبحتري، أقبل الناس على الحماسات الشعرية، فكثرت مؤلفوها، ونالت شهرة واسعة، بين مصادر المختارات الشعرية وأشير هنا إلى أشهر الحماسات التي ألفت^(١):

- ١ - حماسة ابن الشجري ٥٢٤هـ.
- ٢ - حماسة العسكري ٣٩٥هـ.
- ٣ - حماسة الأعم الشنتمري ٤٧٦هـ.
- ٤ - حماسة الخالدين ٣٨٠هـ.
- ٥ - حماسة المعري ٤٥٠هـ.
- ٦ - حماسة المحدثين ٧٣٩هـ.
- ٧ - حماسة الحلبي ٦٠٠هـ.
- ٨ - حماسة التذكرة السعدية ٧٠٢هـ.
- ٩ - الحماسة البصرية ٦٤٧هـ.
- ١٠ - الحماسة الشاطبية ٥٤٧هـ.
- ١١ - الحماسة المغربية ٦٥٣هـ.

ولسنا في صدد دراسة هذه الحماسات، لكن الذي يعيننا، أن قسمًا منها أورد طائفة من شعراء عبد القيس ومنها:

(أ) الحماسة البصرية وفيها من شعراء عبد القيس:

- ١ - ثعلبة بن عمرو.
- ٢ - يزيد بن الخداق.
- ٣ - سويد بن الخداق.
- ٤ - عامر بن معشر المفضل.
- ٥ - المثقب العبدى.
- ٦ - الممزق العبدى.
- ٧ - توبة بن مضر.
- ٨ - شعراء آخرون.

(١) مقدمة الحماسة الشجرية للملوحى، أسماء الحمصي. مقدمة التذكرة السعدية للجبوري.

ب - حماسة الخالدين وتعرف باسم «الأشباه والنظائر» وكان هذا الكتاب وليد التعصب للقديم والحماس للحديث فهو يمتاز بالنواحي التالية:

يوضح الغامض وينبه على الفوائد ، ويضم أشعار المتقدمين من الجاهليين والإسلاميين ، ويذكر النادر والمقل ويتجنب الإكثار ، والكتاب مقطوعات صغيرة وأبيات مجزأة إلى جانب قليل من القصائد الطويلة ، ولا يتبع تبويباً وترتيباً معيناً.

ويضم الكتاب من شعراء عبد القيس:

١ - المثقب العبدى.

٢ - المفضل العبدى.

٣ - يزيد بن الخداق.

٤ - الجمال العبدى.

٥ - وشعراء آخرين.

ح - حماسة ابن الشجري وحماسة التذكرة السعدية: هذان المصدران يضمنان مجموعات شعرية كثيرة، وشعراء كثيرين، من المتقدمين والمتأخرين، إلا أنهما في طريق عبد القيس لا يتقدمان بالباحث إلى مسالك بيئة المعالم، واضحة الاتجاهات، فابن الشجري ذكر قليلاً من شعراء العبديين، وفي مقدمتهم الجمال العبدى، وصاحب التذكرة السعدية، ذكر القليل أيضاً وفي مقدمتهم الشاعر مسعود بن سلامة العبدى وجذل بن أشمط.

ج - المصادر التاريخية والجغرافية: المصادر الجغرافية التي التقيت بعبد القيس فيها كثيرة ومتعددة، لكنني سأقف عند مصدرين منها تناولت منهما الكثير عن منازل وأماكن العبديين.

١ - معجم ما استعجم لأبي عبيد البكري، ألف هذا المعجم في القرن الخامس الهجري أبو عبيد البكري، وقام مؤلفه بتحقيق أسماء المواضع والمواطن التي وردت في

الشعر، والسير والأحاديث وأيام العرب، كما تعرض البكري لوصف جزيرة العرب وما بها من المعالم والمشاهد والآثار، وتتبع هجرة القبائل داخل الجزيرة العربية وذكر مواطنها الجديدة ويقول في مقدمته: «هذا كتاب ذكرت فيه - إن شاء الله - جملة ما ورد في الحديث والأخبار والتواريخ والأشعار من المنازل والديار والقرى والأمصار والجبال والآثار والمياه والآبار منسوبة محددة ومبوبة على حروف المعجم مقيدة فإني لما رأيت ذلك أعجم على الناس أردت أن أفصح عنه بأن أذكر كل موضع مبين البناء، معجم الحروف حتى لا يدرك فيه لبس ولا تحريف^(١)»، فالبكري يتحقق إذن من أسماء المواضع والمواطن ولا يقف عند الجانب الحياتي فمعجمه لغوي يعالج تصحيح الأسماء.

وقد وثقه العلماء ورفعوا منزلته وفي مقدمتهم السهيلي في «الروض الأنف» والزبيدي في «تاج العروس»، ويقول محققه مصطفى السقا «إن هذا المعجم نفيس يتفوق على كثير من معاجم البلدان والنواحي الجغرافية بغزارة المادة، وكثرة التفاصيل^(٢)».

ويهمنا من هذا المصدر الجغرافي، أنه أشار إلى منازل عبدالقيس وأماكن تواجدها على أرض البحرين بعد رحيلها من منطقة تهامة، وبعد الحرب التي دارت رحاها واستمر أوارها بين قبائل ربيعة، فهو وثيقة هامة ومفيدة، في ذكر أماكن عبدالقيس، ومؤلفه أديب، واسع الاطلاع والأخبار وجغرافي صحيح الرحلة والأسفار، وإلى جانب ذلك ريان الأنساب والأشعار.

معجم البلدان لياقوت الحموي: ألف هذا المعجم في القرن السادس الميلادي ويعتبر أعظم معاجم البلدان قدراً وأعمها فائدة، وأحفلها مادة، فهو يصف البلدان المشهورة، في أنحاء المعمورة ويتحدث عن النواحي التالية:

صورة الأرض وما قاله القدماء في هيئتها، معنى الإقليم وناحية القبيلة منه، ألقاب الجغرافيا وكلماتها، حكم الأرضين والبلاد المفتوحة في الإسلام والفيء والخراج، أخبار

(١) معجم ما استعجم: البكري.

(٢) مقدمة «معجم ما استعجم» للبكري: تحقيق مصطفى السقا.

البلدان والمواضع والأماكن.

ويقول ياقوت «أما بعد فهذا كتاب في أسماء البلدان، والجبال، والأودية، والقيعان، والقرى، والمحال، والأوطان، والبحار، والأنهار، والغدران، والأصنام، والأبدان، والأوثان، لم أقصد لهواً ولعباً، ولكن رأيت التصدي له واجباً، وإلا مع القدرة فرضاً لازماً» ويتابع فيقول «فهو مفيد لمن ينتفع بألوانه وتفسيره وهو للفقهاء والأمراء وأهل السير والأخبار وأرباب الحكمة والتفهيم وأهل التطبيق والتنجيم^(١)».

فقد وضعه عندما لاحظ جهل الناس بالمواضع والمواطن وأحب أن يسير مع قول قس ابن ساعدة «أبلغ العظات السير في الفلوات والنظر للأموات».

ولقد تناولنا من هذا المصدر الكثير والعديد من أسماء مواطن ومنازل عبدالقيس على أرض البحرين.

أما المصادر التاريخية، فيقف في مقدمتها تاريخ الطبري، والمعروف بـ«تاريخ الرسل والملوك» ويعد هذا التاريخ أوفى عمل تاريخي يبين مصنفات العرب. فقد أقامه على منهج مرسوم وساقه على طريق استقرائي شامل^(٢)، وكان الطبري راوية أميناً في روايته، ثقة في أخباره، أكمل بهذا التاريخ ما قام به المؤرخون قبله فقال في بدايته «وأنا ذاكر في كتابي هذا من ملوك كل زمان من لدن ابتداء الخلق، من رسول مرسل، أو ملك مسلط أو خليفه مستخلف» فذكر الملوك الماضين وأيام الخلفاء السابقين وطرفاً من سيرهم وأخبارهم، وقيمة الكتاب في أنه يضم بين دفتيه جميع المواد المودعة، في كتب الحديث، والتفسير، واللغة والأدب، والمغازي، ويسجل الأحداث، ويخبر عن الرجال، وينقل الأشعار، وقد أودع فيه فصولاً صالحة، ونسقاً متنوعة، من فنون الكتب التي أتت عليها عوادي الزمان^(٣)، وجاء هذا التاريخ الكبير بعد وقت أحس فيه العرب ضرورة وجود علم تاريخ لهم

(١) مقدمة المعجم ٧/١.

(٢) مقدمة تحقيق «تاريخ الطبري» لمحمد أبو الفضل إبراهيم ص ٢١.

(٣) نفس المصدر ص ٢٣.

بعد استقرار أمور دولتهم في القرن الثاني الهجري، هذا إلى جانب ما في التاريخ من أثر في بناء الأمم، وهمم الثقافات والحضارات.

ويهمنا من تاريخ الطبري أنه يحدثنا عن منطقة البحرين قبل الإسلام من الحيرة، وبلاد فارس من حيث العلاقات، والصلات السياسية، والأمور الحربية، وكان مصدراً جيداً، في تاريخ قبيلة عبد القيس.

أما الكتاب الثاني في التاريخ فهو تاريخ «الكامل» لابن الأثير، وهو كتاب كامل جامع، غزير المادة، جزيل الفائدة، جمع أخبار الملوك منذ أول الزمان إلى نهاية ١٢٣٠م، وكان سبب جمعه ما قاله ابن الأثير «فإني لم أزل محباً لمطالعة كتب التواريخ ومعرفة ما فيها، مؤثراً الاطلاع على الجلي من حوادثها، وخافيتها ماثلاً إلى المعارف، والآداب، والتجارب المودعة، في مطاويها» فهو يراجع خوف النسيان ويتابع أحداثه منذ أول الزمان، وكان ابن الأثير ثقة في روايته، فلم يدع أنه جمع كل الحوادث بل ويعترف أنه نقل عن الطبري، وسلك أسلوباً موافقاً لتفكيره، في نقل الأخبار^(١) وقد استمد مصادره، من الطبري وابن الكلبي، والمبرد، والبلاذري، والمسعودي والكتاب جيد، في مادته التاريخية عن عبد القيس.

وهناك كتابان آخران، في تاريخ قبيلة عبد القيس الأول «فتوح البلدان» للبلاذري، فهو يوسع مادة التاريخ ويرتب أحوال البيئة الإسلامية بعد وفاة الرسول عليه السلام وما رافقها من مظاهر التنظيم في الأصقاع التي دخلها العرب^(٢)، وقد نقل لنا معلومات حسنة فيما يتعلق بالبحرين عند الفتح الإسلامي.

أما الكتاب الثاني فهو مروج الذهب للمسعودي الذي يحدث عن أخبار العالم وما مضى في أكناف الزمان من أخبار الأنبياء، والملوك والسير وجمع فيه من كل روض زهرة، وحفظ فيه الكثير من علوم الأوائل ومعارفهم ولم يفصل كثيراً في أخبارهم^(٣).

(١) «مقدمة تحقيق» كتاب الكامل ص ٢، ٣، ٤، ٥.

(٢) «مقدمة تحقيق» كتاب الفتوح ص ١، ٦.

(٣) «مقدمة تحقيق» المروج ص ٩، ٨١ لمحمد محيي الدين عبد الحميد.

د - المصادر اللغوية والأدبية: وفي مقدمتها «لسان العرب» لابن منظور، و«تاج العروس» للزبيدي، و«جمهرة اللغة» لابن دريد، و«الاشتقاق» لابن دريد، والمصادر الثلاثة الأولى ذخائر علمية نفيسة وغالية لا في الطريق إلى عبدالقيس وشعرائها فحسب، وإنما إلى سائر القبائل والشعراء، وقد عوّلت عليها شأني في ذلك شأن الآخرين، أفتش عن المعاني والألفاظ وأتناول، منها الأخبار والأشعار، وأنظر فيها الغامض من المعاني والأفكار.

أما كتاب «الاشتقاق» فهو ثروة لغوية، ممتازة يبحث في الاشتقاق اللغوي لأسماء القبائل، والرجال، ويبين الأنساب، في القبائل وبطونها وأفخاذها كما يقدم للباحث معارف تاريخية، وهي وإن كانت ضئيلة لكنها ذات صلة وثيقة ودقيقة بالقبائل، وشخصياتها ورجالاتها.

والكتاب يقوم بعملية ضبط. فوستفد يقول عنه^(١) «الفكرة عند ابن دريد هي اشتقاق الأعلام لا معرفة الأنساب».. وقد زخر الكتاب بأسماء كثيرة من قبيلة عبدالقيس وشخصياتها، واستفدنا منه في التعرف على معظم هذه الشخصيات والشعراء ولابن دريد «جمهرة اللغة» وهو مصدر جيد في شعر عبدالقيس.

وأتبع هذه اللغويات بمجموعة الأنساب، التي أخذنا منها شجرة النسب لعبدالقيس، وفي مقدمة هذه المجموعة «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم و«جمهرة النسب» لابن الكلبي، بالإضافة إلى كتاب «الاشتقاق» لابن دريد.

أما المصادر الأدبية: فهي كثيرة وعديدة لكنها في رحلتنا لعبد القيس كانت قليلة الفائدة شحيحة المادة، فيها بعض الإشارات والدلائل وأهمها «طبقات فحول الشعراء» لابن سلام الجمحي، فقد تعرض ابن سلام إلى شعر البحرين وقال^(٢) «وفي البحرين شعر جيد، وفصاحة» ثم تناول باختصار كبير ثلاثة من الشعراء، وأبيات شعرية، ممتازة، جيدة، وفصيحة، حسب منهجه والشعراء الثلاثة هم المنقب، والممزق، والمفضل، وكلهم من قبيلة نكرة، فيكون ابن سلام قد اقتصر دراسة شعر البحرين على هذه القبيلة العبدية مغفلاً

(١) مقدمة الاشتقاق.

(٢) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ٢٧٨.

بقية القبائل والشعراء وإذا ما علمنا أن الحمصي كان يكتب للمشاهير والفحول ويختار أجود الأشعار وأكثرها فصاحة، فإننا لا نستغرب ذكره للشعراء الثلاثة من عبد القيس.

والكتاب الثاني هو «الشعر والشعراء» لابن قتيبة الدينوري، وقد أخبرنا به صراحة أنه يعتني بالمشهورين وأشعارهم وهو يقول^(١) «أخبرت فيه عن شعراء أزمانهم، وأقدارهم، وأحوالهم في أشعارهم، وقبائلهم، كما ذكرت أسماء الآباء، والألقاب، والكنى، وما يستحسن للرجل من أخبار وما أجاد من أشعار وكان قصدي للمشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جل أهل الأدب، الذين يقع الاحتجاج بأشعارهم، في الغريب والنحو في كتاب الله عز وجل وفي أحاديث الرسول عليه السلام، فأما ما خفي اسمه، وقل ذكره وكسد شعره، فما قل من هذه الطبقة إذ كنت لا أعرف منهم إلا القليل ولا أعرف لذلك أخباراً وإن كنت أعلم أنه لا حاجة بك إلى أن أسمى لك أسماء لا أدل عليها بخير، أو زمان، أو نسب أو نادرة، أو بيت يستجاد، أو يستغرب»، فمنهج ابن قتيبة واضح يذكر المشهورين ويغفل الذين لا يعرف أخبارهم ومن هنا فقد ذكر في كتابه من شعراء عبد القيس المثقب، والممزق، وابني خذاق يزيد وسويد.

أما المصادر الأخرى، التي أشارت إلى شعراء عبد القيس، فمنها «معجم الشعراء»، للمرزباني، و«المعاني الكبير» لابن قتيبة، و«العقد الفريد» لابن عبد ربه، و«الحيوان» و«البيان والتبيين» للجاحظ، و«الأمالى» للقاللي، و«المحبر» لابن حبيب، و«المؤتلف والمختلف» للآمدي بالإضافة إلى كثير من دواوين الشعراء الجاهليين.

وكل هذه المصادر أشارت إلى شعراء وخطباء، وبلغاء العبيدين لكنها والمرارة تحز في النفس، لم تسعفنا بشيء كثير، يصدر عنه البحث وإنما كانت وقفات صغيرة في رحلتنا إلى العبيدين.

(١) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٣٩٥.

هـ - الدراسات الحديثة: أحب أن أشير هنا إلى الدراسات التي أخذت تنفتح على الخليج العربي، فهي وثبة قوية، وانتفاضة جبارة، من شأنها أن تزيل ركام الأيام والسنين وتضئ جميع جوانب الطريق، إلى مختلف نواحي التراث العربي أدبا وشعراً ومعارف أخرى.

ولقد أسعفت هذه الدراسات البحث الذي اخترناه وأمدته بكل مفيد وجديد ويكفي أن أذكر هنا بعضاً من تلك المصادر ومنها «تاريخ الأحساء» والمسمى «تحفة المستفيد» لعبدالله الأنصاري الأحسائي، و«ساحل الذهب الأسود» لمحمد سعيد المسلم، وهو دراسة تاريخية وثقافية عن مدينة القطيف ومنطقة الأحساء وقلنا: إن المسلم أورد قائمة طويلة لكل شعراء عبدالقيس، والخليج العربي عبر العصور القديمة والحديثة، وحذا حذو المسلم محمد جابر الأنصاري في كتابه «لمحات عن الخليج العربي»، والعبيد في «تاريخ الأدب العربي في الخليج» وهناك دراسات تاريخية وجغرافية مثل «البحرين عبر التاريخ» للشيخ الخليفة والأستاذ عبدالملك الحمر و«البحرين في صدر الإسلام» لعبدالكريم النجم و«جزيرة العرب» و«قطر ماضيها وحاضرها» للدباغ و«معجم القبائل» و«جغرافية جزيرة العرب» لعمر كحالة، و«صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار» لابن بليهد، أما الخضيرى فأقدم على إصدار موسوعة تاريخية سماها «الخليج العربي».

ويبقى أمامنا الدراسات التي تناولت بعض الشعراء كالمثقب، وغيره مثل «حديث الأربعاء» لطف حسين، و«الوصف في الجاهلية» للقناوي، و«تاريخ الأدب العربي» لعمر فروخ، و«تطور الغزل» لشكري فيصل، و«شعر الحرب» لعلي الجندي، و«المنصفات» لعبدالمعين الملوحي، و«شاعرات العرب» لعبدالبديع صقر، و«شعراء النصرانية» للأب لويس شيخو، وأذكر دراسات قيمة في الأدب الجاهلي: «الصعاليك» ليوسف خليف و«مصادر الشعر الجاهلي» لناصر الدين الأسد و«العصر الجاهلي» لشوقي ضيف وغيرها.

ولا بد لي أخيراً من أن أذكر مصدراً ضخماً كان لي أكبر رفيق، وخير معين، في

مختلف الحقول الاجتماعية والاقتصادية والدينية، وهو «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» لجواد علي، والحقيقة أن هذا المصدر موسوعة ضخمة لكل الجوانب الحياتية على أرض الجزيرة العربية قبل الإسلام.

٣ - ضياع الشعر:

ياخذنا العجب، وتصيبنا الدهشة، ونحن نمضي في التفتيش عن شعر عبد القيس، فقد كنت أحسب أنني سألتقي بالوفير منه عندما بدأت رحلتي مع العبديين، لكن ذلك لم يكن، فقد ضاع من شعرهم الكثير، ووصل إلينا بقية قليلة أصابها التمزيق، وطحنتها عوادي الزمان، فأتلفت بهجتها، وأضاعته بريقتها وجمالها.

والضياع والسقوط في شعر العبديين وغيره من أشعار الجاهليين حقيقة معروفة^(١)، فنحن نسمع أخباراً، ونقرأ أقوالاً، ثم لا نجد أمامنا إلا أن نسلم بمظاهر الضياع، فالأخبار تروي لنا أنه وضع عن عبد القيس كتب منها: «خبر عبد القيس» لأبي عبيدة معمر بن المثنى^(٢)، و«مثالب عبد القيس» لعلان الشعوبي^(٣)، و«أشراف عبد القيس» للمدائني^(٤)، و«ديوان عبد القيس» وذكره الأمدي^(٥)، ومع ذلك فلم نجد واحداً من هذه الكتب وصل إلينا يسعفنا بالكثير أو القليل عن العبديين.

ويذكر ابن سلام^(٦) أن في البحرين شعراً كثيراً وهو جيد وفصيح، فأين هذا الجيد الفصيح؟ إن ابن سلام يورد في غاية الإيجاز والاختصار هذا الكثير الجيد في أربع

(١) يوسف خليف: الشعراء الصعاليك ١٦٩.

(٢) ابن النديم: الفهرست ٧٩.

(٣) نفس المصدر ١٥٤.

(٤) نفس المصدر ١٥١.

(٥) الأمدي: المؤتلف والمختلف ٧٠.

(٦) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ٢٢٩ - ٢٣٤.

(٧) الجاحظ: البيان والتبيين ٩٧/١، ٣٤٨/١، ٢٩٨/١.

صفحات ولثلاثة من الشعراء هم المثقب، والممزق، والمفضل، وإذا ما علمنا أن هؤلاء من عبد القيس أدركنا أن ابن سلام يقصر البحرين على العبديين.

والجاحظ يذكر أن الفرقة العبدية التي نزلت البحرين وشق البحرين هم أشعر قبيل في العرب^(٧)، والجاحظ مثل ابن سلام لا يكاد يذكر شيئاً، بل لم يحدثنا عن أخبارهم أو ينقل لنا أشعارهم إلا نتفاً من الأبيات الشعرية توزعتها بطون كتبه، ولكنه تحدث عن خطباء عبد القيس^(٨) وكان اهتمامه بهم أكثر من اهتمامه بالشعراء.

وفي المصادر أن حماداً الراوية وضع شعراً كثيراً على عبد القيس^(٩)، وقد جهدت في البحث عن هذا الكثير، لكنني لم أجد سوى قصيدتين تضمان بضعة أبيات شعرية.

وتذكر الأخبار أن الشاعر ثعلبة بن عمرو كثير الشعر^(١٠)، وأن المفضل العبدى من الفحول^(١١)، فأين نحن من كل هذا الكثير والوفير من الشعر.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى تنقل إلينا الأخبار أنباء غزو عبد القيس لبلاد فارس في عهد سابور ذي الأكتاف^(١٢)، وتذكر لنا الصراع الطويل المريع مع الفرس من القرن الثالث حتى السادس الميلادي، ولكن الشعر يسكت عن كل مظاهر الصراع بين العبديين والفرس، وبين العبديين وكندة^(١٣) والحيرة وقبائل أخرى كثيرة^(١٤).

والعبديون يقتربون من البحر ومنازلهم على شواطئه وفي أكثر سواحله أو مدنه^(١٥)، والبحر منظر شعري يستلقت المخيلة الشعرية، ويستوقف الملكة الأدبية، ومع كل هذا لم

(١) نفس المصدر ٣٤٨/١، ٣٠٦/١.

(٢) ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي ٣٩٩.

(٣) التبريزي: شرح اختيارات المفضل ١١٢٩/٣.

(٤) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ٢٢٣.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥٥/٢، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٣٨٧/١.

(٦) صالح العلي: محاضرات في تاريخ العرب ٨٥/١.

(٧) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٢٥٢/٣.

(٨) انظر: منازل عبد القيس.

تصلنا من أشعار البحر إلا مقطوعات قليلة يمكن أن تكون هي كل شعر البحر، وكذلك سائر شؤون حياتهم الأخرى التي نقلتها لنا الأخبار ولم تذكرها لنا الأشعار.

كل هذه الظواهر تضعنا أمام حقيقة ضياع الكثير من شعر عبد القيس، ونورد هنا أهم الأسباب التي أدت إلى ضياع هذا الشعر:

١ - رحلة الشعر الطويلة التي قطعها حتى وصل إلى عصر التدوين، مما أدى إلى ضياع كثير من القصائد، وسقوط كثير من أبياتها خلال هذه الرحلة.

٢ - عدم اهتمام الرواة وإغفالهم لجوانب كثيرة من شعر عبد القيس وأخبارهم، وكذلك موت عدد من هؤلاء الرواة قبل التدوين، وفي اعتقادي يرجع ذلك الإغفال، إلى أن عبد القيس تفوقت على جيرانها في اختيار المكان، والاهتمام بشؤون المجتمع العبدى في نواح كثيرة مما أدى إلى عدم إذاعة شعرها رغبة في خمول ذكرها.

٣ - المصادر التي سجلت هذا الشعر، ضلت طريقها كما أن رغبة الكثيرين من أصحاب هذه المصادر أرادوا التخفيف من الشعر فلم يذكروه، كالمرزباني والآمدي وابن سلام وغيرهم.

٤ - نهب المراكز الحضارية ونضوب المكتبة العربية من الأصول والمراجع في حياة عبد القيس.

٥ - الاضطرابات السياسية، فلعل موقف العبديين من المناذرة وثورتهم على سلطان الحيرة، صرف بعض الرواة عن رواية شعرهم خوفاً من ظلم المناذرة، ومثل هذا يقال عن التطاحن القبلي، والحروب المستمرة بين عبد القيس وجيرانها.

٦ - عوادي الزمان وأحداث الحياة الشاقة، فموقف عبد القيس وقتالها المرير من أجل استقلالها وحريتها، أدى إلى عدم تفرغها لكتابة شعرها وحفظ أخبارها.

وكان هناك اختلاط في شعر العبديين، وهذا الاختلاط ظاهرة واضحة بين أبيات قصائد الشعراء العبديين أنفسهم، وبين شعراء آخرين في الجاهلية، ونسوق أمثلة

عديدة حول هذه الظاهرة:

غلبت ملوك الناس في الحزم والنهي
وأنت الفتى في سورة المجد ترتقي
وأنجب به من آل نصر سميديع
أغر كلون الهندواني رونق

البيتان رواهما ابن قتيبة للمثقب^(١) وهما في الواقع مأخوذان من قصيدة لابن أخته
الممزق العبدي كما في «الأصمعيات»^(٢) ومثل هذا الخلط البيت التالي:
وقد تَخَذْتُ رجلي إلى جنب غرزها
نسيفاً كالفحوص القطاة المطرق

فبعض المصادر ترى أنه للممزق^(٣)، بينما مصادر أخرى ترى أنه للمثقب^(٤)
والصحيح عندنا أنه للممزق.

والقصيدة التي منها البيت التالي:
هل للفتى من بنات الدهر من واق
أم هل له من حمام الموت من راق

في «المفضليات» هي للممزق العبدي^(٥) وفي «الشعر والشعراء» ليزيد بن الخذاق^(٦)
وقد ارتأينا أن تكون ليزيد، لأن الأنباري وأبا عمرو وكثيراً من الرواة يرون هذا الرأي.

والقصيدة التي منها الأبيات التالية:

(١) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٣٢٧/١ .

(٢) الأصمعي: الأصمعيات ص ١٦٦ والمفضليات ص ٣٠٢ .

(٣) الأصمعي: الأصمعيات ١٨٩ .

(٤) ابن منظور: لسان العرب ١٩٣/١ .

(٥) المفضل الضبي: المفضليات ٢٩٩ .

(٦) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٣٠٢/٢ .

تهزأت عرسى واستنكرت
شيبى ففيتها جنف وازرار
لا تكثري هزأً ولا تعجبي
فليس بالشيب على المرء عار
عمرك، هل تدريين أن الفتى
شبابه ثوب عليه معار

الأبيات في «الحماسة البصرية» للمثقب^(١) «وفي المعمرين» لثعلبة بن عمرو^(٢) وهو
الأصح فصاحب الحماسة يروي الأبيات لثعلبة بن يزيد أحد بني سليم ويضيف «وهو
الأكثر» وثعلبة بن يزيد هذا هو ثعلبة بن عمرو بن زيد كما في نسبه^(٣):

وسائلة عن توبة بن مخرس
وهان عليها ما أصاب به الدهر
رأت إخوتي بعد ائتلاف تفرقوا
فلم يبق إلا واحداً منهم شفر
أرب بهم ريب المنون كأنما
على الدهر فيهم أن يفرقهم نذر

فالأبيات للشاعر توبة بن مخرس العبدي في مصادر^(٤)، وهي لغيره في
مصادر أخرى^(٥)، وإلى جانب ذلك تروى هذه الأبيات بقافية رائية أحياناً، وأحياناً

(١) البصري: الحماسة البصرية ٢١/١.

(٢) السجستاني: كتاب المعمرين ٤١.

(٣) انظر: ديوان عبد القيس.

(٤) أسامة: المنازل والديار ٤٥١.

(٥) البحري: الحماسة ٢٢٨.

أخرى بقافية دالية.

والقصيدة اللامية والتي منها:

وجدت أبي قد أورثه أبوه
خلالاً قد تعد من المعالي
فأكرم ما تكون على نفسي
إذا ما قلّ في الأزمان مالي

فالقصيد في «الأمال» لابن خذاق العبدي^(١) وهو يزيد وفي حماسة البحتري لمنقذ الشني^(٢) ويقول البكري^(٣) لقد اختلطت وتداخلت ابیات القصیدتين قصيدة يزيد وقصيدة منقذ لأنهما على ذات الوزن والقافية.

والأبيات التالية:

لعمرك إنني وأبا رياح
على طول التهاجر منذ حين
ليبغضني وأبغضه وأيضاً
يــــراني دونه وأراه دوني
فلو أنا على حجر ذبحنا
جرى الدميان بالخبر اليقين

(١) القالي: الأمالي ٢/٢٠٣.

(٢) البحتري: الحماسة ٧١، ١٠٢، ١٤٤.

(٣) البكري: سمط اللآلي ٢/٨٢٦.

(٤) البصري: الحماسة البصرية ١/٤٠.

(٥) أبو تمام: الوحشيات ٨٤.

(٦) ابن دريد: جمهرة اللغة ٢/٣٠٣.

في «الحماسة البصرية»^(٤) الأبيات للمثقب العبدى ومضافة إلى قصيدة المثقب النونية، وفي «الوحشيات»^(٥) الأبيات منسوبة إلى مرداس بن عمرو ونسبتها مصادر أخرى لعلي بن بدآل من بني سليم^(٦).

جميع هذه الأمثلة تدل على الاختلاط الذي وقع في شعر العبديين، وتعكس مدى التداخل بين أشعارهم وأشعار غيرهم، ولم يكن الاختلاط في الشعر فحسب وإنما كان هناك اختلاط في الشعراء أنفسهم، فتداخلت أسماءهم كما تداخلت أشعارهم، فعروة بن سنان العبدى^(١) اختلط شعره مع يزيد بن سنان الغطفاني^(٢) وربيع بن قميئة الصعبي^(٣) العبدى اختلط مع عمرو بن قميئة البكري^(٤) وادّعت عبد القيس شعر عمرو، والبكري نسبته إلى قبيلة بكر بن وائل وهناك تداخل مع النكري نسبة إلى قبيلة نكرة من عبد القيس.

وتعود أسباب هذا الاختلاط والتداخل إلى:

القربة بين الشاعرين فالمزق ابن أخت المثقب ولذا تداخلت أشعارهما عند الرواة، واتفاق النصوص الشعرية في المضامين والمعاني من ناحية، وفي الوزن والقافية من ناحية أخرى، كما في القصيدة اللامية التي نسبت إلى الشاعرين يزيد ومنقذ الشننين، وشعراء بطون القبيلة الواحدة فيزيد بن الخذاق ومنقذ الشني كلاهما من قبيلة شن والمثقب والمزق

(١) الجاحظ: الحيوان ٢٧٥/١ .

(٢) المفضل: المفضليات ص ٧٠ والأمدي: المؤلف والمختلف ص ٢٥٥ .

(٣) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٢٩٣/١ .

(٤) المسلم: ساحل الذهب الأسود ٢٧٦ .

من قبيلة نكرة، فأدى ذلك إلى اختلاط شعرهما عند الرواة، وهناك سبب يمكن أن يكون مشتركاً وعماماً لا في أشعار العبيدين فحسب وإنما في سائر الشعر الجاهلي وهو السهو والنسيان من قبل الرواة والنساخين.

ومن كل ما عرفنا كان لابد لنا من أن نسلّم بضيا ع قسم - أظنه كثيراً - من شعر عبد القيس، وكذلك اختلاط قسم آخر مع شعر غيرهم، ولهذا وجدنا أنفسنا أمام ظاهرة الضيا ع وظاهرة الاختلاط في شعر العبيدين.

٤ - ظاهرة الانتحال:

جاء في اللسان^(١) انتحل الرجل الشعر ادّعاه فهو قائله، ونحل الشاعر قصيدة نُسبت إليه وهي لغيره، وقريب من هذا شعر الوضع، وهو أن يضع الراوية شعراً ينسبه إلى شعراء الجاهلية الذين تقدموه، فالشعر المنحول والموضوع هو الشعر الذي وضع بعد الجاهليين ونسب إليهم، وشعر النحل هو الذي اختلف في قائله واختلط الأمر فيه فنسب إلى غير قائله.

ومن هنا كان الوضع والنحل والانتحال ظواهر أدبية عامة لا تقتصر على أمة دون غيرها من الأمم، وليست تلك الظواهر في الشعر فحسب، وإنما تشمل كل ما يمت إلى الشعر بصلة من أخبار وأنساب وقصص وأحاديث^(٢).

وعلينا أن نسلّم منذ البداية باحتمال نسيان بيت أو أبيات، واستبدال كلمة أو كلمات

(١) ابن منظور: لسان العرب ١١/٦٥٠ .

(٢) ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي ٣٢١ .

(٣) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ٢٣ .

(٤) محمود شاكر: مجلة المجلة ١٦٩ .

إلى جانب التقديم والتأخير والاختلاط.

ونحن لا نشك في أن الشعر الجاهلي قطع رحلة طويلة، وخلال هذه الرحلة تعرض لمظاهر الانتحال وسقط منه في الطريق مقدار ليس باليسير فابن سلام يخبرنا أن ما وصلنا عن العرب الجاهليين قليل، وأنه قبل ذلك كثير^(٣)، لكننا والأمر كذلك لا نرتاب أو نتردد في أن الشعر الجاهلي تراث ضخم نقلته لنا الأجيال وأوصلته إلينا في كثير من الثقة والاطمئنان وفي درجة عالية من الأمانة العلمية، ومن هنا كان علينا أن نتريث عند قبول الشعر الجاهلي أو رفضه خشية أن يكون موضوعاً منحولاً^(٤).

وأشار القدامى إلى الانتحال ودوافعه وأسبابه وحاولوا أن ينفوا عنه الزيف ويبعدوا ما وضعه الوضاعون، بل وقف فريق من العلماء الرواة أمام تلك الظاهرة بحماسة وصلابة، وأوصلوا إلينا بعد جهد جهيد مختارات ومجموعات شعرية قيمة^(٥).

ودوافع الانتحال كثيرة ومنها رغبة القبائل في التزيد في شعرها، لإذاعة مفاخرها، وإبراز مناقبها^(٦) وإشراق تاريخها، مما يجعلها تباهي به مختلف البطون والعشائر، وتعلي صيتها بين سائر القبائل، ولذا قال ابن سلام^(٧): «فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم وأرادوا أن يلحقوا بمن له من الوقائع والأشعار فقالوا على ألسن شعرائهم، ثم كانت الرواة بعد ذلك فزادوا في الأشعار التي قيلت».

ومن تلك الدوافع الرواة أنفسهم الذين يزدون طمعاً في الكسب، ورغبة في جني

(١) شوقي ضيف: العصر الجاهلي ص ١٦٣.

(٢) الجاحظ: الحيوان ٣٨١/٤.

(٣) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ٣٩، ٤٠.

(٤) ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي ٤٢٦.

(٥) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ٥٦٨.

الربح، وهناك أيضاً دافع العصبية القبلية التي أذاعت الكثير من المثالب والمساوي.

القدامى والانتحال:

قلنا: إن الانتحال والوضع في الشعر الجاهلي ظاهرة عامة، فلم يخف أثرها على الرواة العلماء، وإنما تنبهوا لها^(٤) فابو عبيده يذكر أن قراد بن حنش من شعراء غطفان كان جيد الشعر، وكان شعراء غطفان يغيرون على شعره يأخذون منه ويدعون، وذكر أبو عمرو بن العلاء أن قسماً من قصيدة ذي الإصبع العدوانى في رثاء قومه منحول، وكذلك قصيدة امرئ القيس^(٥) الرائية، هي لرجل من أولاد النمر بن قاسط يقال له ربيعة بن جشم.

ومثل هذا أبيات ثعلبة بن عمرو التي أشرنا إليها في قصيدته:

تهزأت عرسى واستنكرت

شيبى ففيتها جنف وازورار

وقد قيل إن خلفاً الأحمر وضع البيت التالي في هذه القصيدة^(١):

عمرك هل تدريين أن الفتى

شبابه ثوب عليه معار

ويروي البصري أن الأبيات لثعلبة بن يزيد أحد بني سليم وهو الأكثر ويروي البصري الأبيات للشاعر ثعلبة بن عمرو.

وأشار الجاحظ^(٢) إلى قضية الانتحال فكان يقول «قال فلان» ويذكر اسم الشاعر ثم يعقب على ذلك «إن كان قالها» وذكر أبياتاً منحولة للنابعة الذبياني وأنكر أبياتاً قيلت في

(١) السجستاني: المعمرين ٣٣.

(٢) الجاحظ: الحيوان ٤٩/٣، ٢٤٨/٤، ٢٤٦/٢.

(٣) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ١٤/١، ٢٣٧/١.

(٤) ابن هشام: السيرة النبوية ٢٤٧/١.

(٥) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ٢٣.

الكواكب وغير ذلك من الأمور.

وأشار ابن قتيبة إلى الانتحال في كتابه «الشعر والشعراء»^(٣) وذكر أبياتاً للأعشى وأبياتاً أخرى للشاعر ليبيد قال: إنها منحولة.

وفي روايات ابن هشام كثير من الشعر المنحول والموضوع^(٤)، أما ابن سلام في كتاب «الطبقات» فقد عالج هذه الناحية وذكر قواعد عامة وأحكاماً مرسلّة أطلق فيها القول إطلاقاً ونص على شعراء ذكر لهم شعراً قالوه وهو موضوع منحول قال ابن سلام^(٥) «وفي الشعر المسموع مفتعل موضوع كثير، لا خير فيه، ولا حجة في عربيته، ولا أدب يستفاد، ولا معنى يستخرج، ولا مثل يضرب، ولا مديح رائع، وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب لم يأخذوه من البادية ولم يعرضوه على العلماء».

ويقول أيضاً^(٦) «ومما يدل على زهاب الشعر وسقوطه قلة ما بقي بأيدي الرواة المصححين».

وذكر من الشعراء طرفة وعبيد بن الأبرص اللذين صح لهما قصائد بقدر عشر، ونرى أن غيرهما قد سقط من كلامه كثير غير أن الذي نالهما من ذلك أكثر ويذكر ابن سلام^(٢) بيتاً لأبي سفيان بن الحارث ثم يقول «وأخبرني أهل العلم من أهل المدينة أن قدامة بن موسى بن مظعون الجمحي قالها ونحلها أبا سفيان، وقريش ترويه في أشعارها، وهكذا نرى أن ابن سلام عالج الانتحال معالجة أبانت أسبابه ودوافعه ونبهت إليه لأول مرة.

(١) نفس المصدر ٢٠٨ .

(٢) نفس المصدر ٣٩ .

(٣) ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي ٣٧٧ .

(٤) مجموعة من الأساتذة: الأدب العربي في آثار دارسيه ص ٣١ .

(٥) طه حسين: الشعر الجاهلي ٧١ .

(٦) نفس المصدر ٧٢ .

المحدثون والانتحال:

يقول الأسد:^(٣) أول من شق الطريق في هذا الموضوع من العرب المحدثين الأستاذ مصطفى صادق الرافعي، في كتابه «تاريخ أداب العرب» الذي صدر عام ١٩١١، وأن الرافعي حشد في كتابه مادة خصبة فله فضل السبق في الجمع، لكنه لم يقف عند الأخبار التي جمعها ولم ينقدها إلا في القليل النادر، وذكر الأستاذ أحمد ضيف موضوع الانتحال باقتضاب^(٤) وأستقر الموضوع بعد ذلك بين يدي طه حسين الذي درس الشعر الجاهلي وشك فيه وقال^(٥) «إن الكثرة المطلقة مما نسميه أدباً جاهلياً ليست من الجاهلية في شيء، وإنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين أكثر من حياة الجاهليين»، وقال في موضع آخر^(٦) «وأقل ما توجبه علينا الأمانة العلمية أن نقف من الشعر المضري الجاهلي موقف الشك والاحتياط».

ومن هنا نرى أن طه حسين، وضع نظرية الشك في الشعر الجاهلي، ورأى أن ذلك الشعر لا يمثل الحياة الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية للعرب الجاهليين، وذكر دوافع للشك كثيرة منها اختلاف اللغة واللهجات، والرواية الشفهية، وأورد أسباب الانتحال ومنها السياسة ويقصد بها العصبية القبلية والدين والقصص والشعوبية والرواة^(١).

وشك في شعر شعراء سماهم^(٢) ومنهم: امرؤ القيس، وعلقمة، وعبيد، وعمرو بن قميئة، ومهلل بن ربيعة، وعمرو بن كلثوم، والحارث بن حلزة، وطرفة، والمتلمس، والأعشى وكذلك المثقب^(٣)، وأرجع أسباب الشك في هؤلاء إلى تضارب الرواة في أخبارهم وشخصياتهم وإلى الرقة والسهولة في أشعار بعضهم.

ولقد انبرى حشد من الدارسين والمهتمين بالأدب الجاهلي والتراث الأدبي للرد على طه حسين ونقض نظريته، وإبطال دعواه، في إنكار ذلك التراث الشعري، ومنهم محمد

(١) نفس المصدر ٨٨.

(٢) طه حسين: في الأدب الجاهلي ص ٢١٦ وحتى ص ٢٧٥.

(٣) طه حسين: حديث الأربعاء ص ١٦٤.

(٤) ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي ٣٧١.

فريد وجدي في كتابه «الشعر الجاهلي»، ومحمد لطفي جمعة في كتابه «الشهاب الراصد»، ومحمد الخضر حسين في كتابه «نقض كتاب في الأدب الجاهلي»، والشيخ محمد الخضري في كتابه «محاضرات في بيان الأخطاء العلمية»، ومحمد أحمد الغمراوي في كتاب «النقد التحليلي»، وهؤلاء المحدثون وغيرهم أمثال محمود قراعة، وبطرس البستاني، ويوسف العش، وعباس العقاد وكذلك ناصر الدين الأسد الذي بحث الموضوع بشكل مستقل، ومدعم بالوثائق، واستوعب جميع ظروفه^(٤) وقد أجمع هؤلاء الباحثون الدارسون على أن طه حسين لم يلتزم المنهج الذي أعلنه وسار عليه وأنكروا عليه اصطناعه للمنهج الديكارتية الفلسفي الذي يعتمد الشك طريقاً إلى اليقين. وعابوا عليه التناقض الذي وقع فيه فيما يتعلق بسهولة اللغة، وكلهم شارك في نقد الأدلة والأسباب واستطاعوا أن يدفعوا عن الشعر الجاهلي تهمة الزيف والوضع والنحل في أكثره وخرج الشعر الجاهلي بريئاً من التهمة التي ألصقت به.

ولم يكن طه حسين وحده هو الذي أغمد خنجره في صدر التراث الشعري الجاهلي، وإنما قام المستشرقون فشكوا في الشعر الجاهلي من خلال اللغة واللهجات والرواة، فنولدكه^(١)، وألورد، وموير^(٢)، وبركلمان^(٣)، وبلاشير^(٤) كلهم شكوا في الشعر الجاهلي وعالجوا موضوع الانتحال في شيء كثير من التجني إذ لجأ بعضهم إلى إنكاره إنكاراً تاماً.

فبرو كلمان طعن في الرواة لأنهم أصلحوا ما روه للشعراء القدامى أو زادوا عليه ولم يبالوا بالوضع لتوثيق أشعارهم وأن هؤلاء الرواة غيروا بعض أشعار الجاهلية

(١) بلاشير: الأدب العربي ١٧٦/١ .

(٢) شوقي ضيف: العصر الجاهلي ١٦٦ .

(٣) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ٦٥/١ .

(٤) بلاشير: الأدب العربي ١٩٣/١ .

(٥) ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي ٣٥٢ .

(٦) شوقي ضيف: العصر الجاهلي ١٦٨ .

عمداً، ونسبوا بعض الأشعار القديمة إليهم كما وضعوا أشعاراً منحولة على مشاهير الأبطال في الزمن الأول.

وكان أشهر المستشرقين الذين لجأوا إلى إذاعة الشك في الشعر الجاهلي وإلى إنكاره من خلال الرواة وطريقة الحفظ والرواية واللغة هو «مرجليوث» فقد رأى أن الشعر الجاهلي لا يمثل الناحية الدينية وأنه مصبوغ بصبغة إسلامية وذلك ضمن مقالة كتبها تحت عنوان (The originsof Arabic Poetry).

وقد لخص ناصر الدين الأسد تلك المقالة^(٥) وأورد رد المستشرقين الآخرين عليها، فقد رد «ليال» رداً مفحماً على مرجليوث واتهمه بالغش والخداع والخيانة ورأى «لايل» أن المحاكاة تدل على وجود أصل كانوا يحاكونه إن وراء انتحال الرواة شعراً صحيحاً يجب أن نهتدي إليه، وبعد فقد بنى المحدثون من العرب والمستشرقون شكهم في الشعر الجاهلي على النواحي التالية^(٦):

– اختلاف لهجات القبائل ولغة الشمال عن الجنوب ، وعدم توثيق الرواة والاتساع في الرواية ، والعصبية القبلية ، والشعوبية ، وحاجة القصاصيين وكتاب السير والتاريخ إلى شعر يزينون به قصصهم.

توثيق الشعر:

وصل إلينا ركाम هائل من الشعر الجاهلي، كان وما يزال مجال الدراسات الأدبية، وموضوع عناية الباحثين، وقد قسم ناصر الدين الشعر الذي وصل إلينا من حيث صحته ونحله إلى ثلاثة أقسام^(١)، قسم صحيح لا سبيل إلى الشك أو الطعن فيه وقسم منحول موضوع وأكثره من القصص ويرمي إلى غايات وأهداف وقسم مختلف عليه.

(١) ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي ٤٦٥ .

(٢) شوقي ضيف: العصر الجاهلي ١٦٤، ١٦٦ .

(٣) محمود شاكر: مجلة «المجلة» ١٩٦٩ .

(٤) عباس العقاد: اللغة الشاعرة ١٢٣ .

شوقي ضيف لا ينفي ظاهرة الانتحال^(٢)، والأستاذ محمود شاكر^(٣) يرى أننا لا نستطيع رد الشعر ورفضه مهما بلغ الرواة من فساد الدين والمروءة، فداعي الفطرة يفرض علينا عدم اتهامهم، ويحدّر شاكر كل التحذير من ناحية الرواة، فلا يدعنا نعجل عجلة الجهل في الإقدام على تكذيب الرواة أو تصديقهم وإنما علينا أن نتوقف بالشك قليلاً ثم نثبت به بكل وجوه التثبت والتبيين، وينكر العقاد^(٤) قدرة الرواة على توزيع الأساليب واصطناع المواقف الشعرية مهما بلغوا من قوة الشاعرية.

ومن كل هذا ندرك أن الانتحال قائم وإن الرواة هم أكبر الأسباب وأقواها وإن لآبد لنا من تمحيص الشعر وتنقيته، وعلينا أن نجد مقياساً صالحاً وملائماً لتوثيقه.

وإذا ما رحنا نستعرض مقاييس القدامى ومناهج المحدثين في التوثيق نجد الأولين اعتمدوا الأمور التالية في قبول الشعر ورفضه:

– إجماع الرواة واتفاق جلة العلماء في قضايا الشعر وظروف اللغة وفي ذلك يقول ابن سلام^(١) «اختلفت العلماء في بعض الشعر كما اختلفت في بعض الأشياء أما ما اتفقوا عليه فليس لأحد أن يخرج منه» ومن هنا فقد وثق القدامى رواية مثل الضبي والأصمعي وغيرهما ورفضوا غير الموثقين مثل حماد الراوية وخلف الأحمر وأضرابهما «إلا أن تأتيهم الأخبار والأشعار من مصادر موثوقة.

– والذوق الشعري وهو مقياس مكتسب عن علم ودراية بعد صحبة طويلة ولقاء مستمر مع الشعر وقد استطاع قسم من الرواة بذوقه النقدي أن يروي من الأشعار ما كان سليماً وصحيحاً وهذا الأمر واضح تمام الوضوح في كتاب «طبقات فحول

(١) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ٦٠٥ .

(٢) نفس المصدر ٥ - ٢٢ .

(٣) ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي ٤٦٩ .

(٤) عباس العقاد: اللغة الشاعرة ١٣٤ .

(٥) شوقي ضيف: العصر الجاهلي ١٧٥ .

(٦) محمود شاكر: مجلة «المجلة» ١٩٧٠ .

الشعراء» لابن سلام الجمحي^(٢).

- ودواوين الشعراء فقد اعتمدت الأشعار التي رويت في ديوان أو دواوين الشعراء^(٣).

ويرى المحدثون مقاييس أخرى ونسوق هنا أقوالهم حول المقاييس التي يرونها في توثيق الشعر الجاهلي:

يقول العقاد^(٤) «لابد من حيلة ناجعة غير حيلة الرفض المطلق أو القبول المطلق أو الظن المتردد» فما هي هذه الحيلة التي يريدها العقاد ويطلب الاهتداء إليها؟.

وشوقي ضيف^(٥) يشك فيما شك فيه القدماء ويقبل ما وثقوه فهو بهذا يعتمد مقاييسهم ويقبل ما أجمعوا عليه.

والأستاذ محمود شاكر^(٦) يقول بمنهج المقارنة ويدرس الشعر دراسة نقدية فيقف على الخصائص الفنية، ويحذر شديد يرفض ما ينسب إلى الجاهليين.

ويقول طه حسين^(١) بالخصائص الفنية التي يلتقي عليها طائفة من الشعراء وبملاءمة اللفظ والمعنى للحياة البدوية.

وناصر الدين الأسد^(٢) يركز على القدماء ويعتمد مقاييسهم من حيث الإجماع وما اتفق عليه البصريون والكوفيون وكذلك الأخذ بالخصائص الفنية.

وأحمد الحوفي^(٣) يدير مقياسه حول النصوص الشعرية ونقدها مشيراً إلى النواحي التالية: رفض الشعر الذي يتضمن أفكاراً إسلامية لم تكن مألوفة، ويضم إفاظاً لم يعهدها العرب من قبل - رفض شعر الأماكن والأحداث والقصص التي لم يعهدها الشعراء، ولم تذكر في أشعارهم، وإنما جدت بعد مماتهم - ويلحق بذلك شعر الشخصيات الأسطورية

(١) طه حسين: في الأدب الجاهلي ٢٦٥ .

(٢) ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي ٤٦٩ .

(٣) أحمد الحوفي: الحياة العربية في الشعر الجاهلي ٣٦ .

كعنتره والمهلل وحاتم الطائي، فالكثير من أشعارهم يستدعي الحذر والاحتياط ومثل هذا أشعار الجن وتكهنات الغيب والشعر الموهل في القديم كشعر عاد وشمود والرواية التي ينفرد بها راوية واحد، ورواية الرواة غير الموثوق بهم والانتباه إلى النص وجوه ومصادره وطريقة أخذه عن أهل البادية.

ومن استعراض أقوال القدامى والمحدثين ومقاييس ومناهج الطرفين نجد أننا أمام عديد من المقاييس والمناهج، فماذا نفعل؟ وبأيها نأخذ؟ وكيف السبيل إلى توثيق الشعر الذي بين أيدينا؟

وفي توثيقنا للشعر الذي بين أيدينا لعبد القيس لا نلتزم بمنهج واحد محدد وإنما نحاول أن نأخذ من جماع هذه المقاييس ما يصلح لبحثنا هذا مع الاهتمام بناحياتين أساسيتين الأولى الرواة، والثانية النصوص الشعرية:

أما الرواة فمنهم العدول، وبينهم المتهمون، وهناك فئة مجهولة، وبجانبها فئة أخرى تقف بين العدل والتجريح، ولذا كان علينا أن ندرس الرواة دراسة واعية، يقظة، ونمضي إليهم على أرض لا تتناثر عليها غيوم الشك، ولا مظاهر التردد، فنوثق العدول الصادقين، ونرفض الوضاعين المتهمين، ومن أشهر هؤلاء الرواة الذين حفظوا لنا شعر عبد القيس،

(١) الأزهري: تهذيب اللغة ٢٧١/١٠ .

(٢) الذهبي: ميزان الاعتدال ١٧٠/٤، شوقي ضيف: العصر الجاهلي ١٦٥ .

(٣) القفطي: انباء الرواة ٢٩٨/٣ .

(٤) نفس المصدر.

(٥) ياقوت: معجم الأدباء ١٦٤/١٩ .

(٦) الاثناندي: معاني الشعر ٢٧١، السيوطي: بغية الوعاة ١١١/٢ .

(٧) الخطيب: تاريخ بغداد ٤١٤/١٠ .

(٨) السيوطي: المزهر في اللغة ٢٠٤/٢ .

(٩) ابن قتيبة: المعارف ٥٤٣ .

المفضل الضبي (ت ١٦٨ هـ) وهو رأس علماء الكوفة، وأوثق روااتها، فقد ذكرت الأخبار أنه صادق الرواية، حريص على التأكد من صحة ما ينقله أو يتناقله الرواة الآخرون^(١)، وتشهد له كتب التراجم ومصنفات الدارسين، ويوثقه القدامى والمحدثون بالعلم والصدق فيما يرويه وينقله من أشعار وأخبار^(٢) فالقفطي^(٣) يقول عنه «كان علامة راوية للأدب والأخبار وأيام العرب»، ويقول عنه ابن سلام^(٤) «أعلم من ورد إلينا بالشعر وأصدق من غير أهل البصرة»، أما ياقوت فيقول^(٥) «كان المفضل ثقة ثباتاً» وأجمع الرواة من الكوفيين والبصريين على توثيقه، ومع المفضل يأتي الأصمعي عبد الملك بن قريب (ت ٢١٦ هـ)، وهو أحد أئمة اللغة والأدب والأخبار والغريب في البصرة^(٦)، وهو عالم موثق الرواية كثيرها، حسن العبارة جيدها، قال عنه المبرد^(٧) «كان بحراً في اللغة لا يعرف مثله فيها أحد ولا في كثرة الرواية»، ويروى عن الفراء^(٨) أنه قال عند ذكر الأصمعي «ذلك أعلمهم بالشعر وأتقنهم للغة واحضرهم للحفظ»، وقال عنه ابن قتيبة^(٩) «كان الأصمعي صدوقاً في الشعر»، وعبر الشافعي عن عصبية الأصمعي للعرب ووقوفه في وجه التيار الشعبي فرأى أنه «ما عبر أحد من العرب بمثل عبارة الأصمعي^(١٠)»، وقد دافع ابن جنّي أمام متهمي الأصمعي فقال^(١١) «كان صناجة الرواة والنقلة»، أما المحدثون فقد وثقوه ولم يطعنوا في روايته^(١٢).

ومن كل ما ذكرنا يتضح لدينا أن الضبي والأصمعي عالمان موثقان، ولذا اعتمدنا الأشعار التي رواها لعبد القيس، وكانا من أكثر الرواة ذكراً واهتماماً وحفظاً لشعر

(١) السيوطي: بغية الوعاة ٣١٣.

(٢) ابن جنّي: الخصائص ٣/٣١١.

(٣) شوقي ضيف: العصر الجاهلي ١٦٦، ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي ٣٣٤.

(٤) انظر: ديوان عبد القيس.

العبيدين، وبالإضافة إليهما كان رواة آخرون قد حفظوا لنا بعض شعر العبيدين ومنهم ابن سلام الجمحي، والبحتري، والجاحظ، وابن حبيب، وابن قتيبة، وابن دريد، وغيرهم^(٤).

أما النصوص الشعرية فنحن ملزمون بالنظر في المصادر التي نقلتها إلينا وحملتها عبر الزمن، وعلينا أن نلم إماماً كافياً بكل الظروف المحيطة بها، أن ندرسها دراسة وافية تشمل مؤلفها، وغرضها، وأسلوبها، ورواتها، وأسانيداً، ونأخذ بأوثق الروايات حولها، وبعد ذلك نخضع تلك لنصوص لمقياس النقد والتمحيص في المضامين والأشكال، ونعالجها معالجة مستوعبة من الناحيتين الموضوعية والفنية، ثم نصدر حكماً عليها، وهل استطاعت أن تمثل البيئة الجاهلية، وتحيط بظروف المجتمع البدوي، وما يلحقه من مظاهر وعادات؟.

ونحن نؤمن - وأمامنا تلك النصوص - أن شعر المراكز الحضارية والمواطن المطلة على العالم الخارجي، من أرض الجزيرة العربية قد لان وسهل فاقترب من شعر المولدين، إلا أن ذلك في مقدور دراستنا أن نكتشف النصوص الجاهلية وإن كانت سهلة اللفظ، واضحة المعنى، ولذا قمنا باختيار النصوص التي رأينا فيها روح العصر الجاهلي، وظروف المجتمع العبد.

ومن دراستنا للرواة وللنصوص الشعرية التي وجدناها لعبد القيس يمكننا أن نبرز اتجاهات ثلاثة:

- الشعر الموثق: وهو الذي رواه الرواة الثقة وورد في المفضليات والأصمعيات،

(١) انظر: ديوان عبد القيس.

(٢) انظر: ديوان عبد القيس.

(٣) البصري: الحماسة البصرية ٢/٢٨.

(٤) المرتضى: أماليه ١/٣٢٥.

(٥) السجستاني: المعمر ٤٠.

وعند ابن سلام، والبحتري، وأبي تمام، والأخفش، وابن دريد، وغيرهم ويشمل هذا شعر المثقب والممزق والمفضل ويزيد وسويد وثعلبة وغيرهم^(١).

- وقسم ضعيف الرواة والإسناد، ويشمل بعض أشعار الجمال العبدى وجذل بن أشمط، وعمرو بن أسوى، وتوبه بن مضرس وذلك لعدم توفر مصادر عديدة حول روايات شعرهم^(٢).

- وقسم منحول لأسباب عديدة منها الأفكار الإسلامية والاختلاط والتداخل والرواية الواحدة غير الموثقة، ويشمل ذلك أبيات الممزق في «الحماسة البصرية»^(٣) وفي «أمالى المرتضى»^(٤)، وأبيات سويد في «المعمرين»^(٥) وأبيات أخرى في ديوان شعر العبدىين.

وعندما جمعت ديوان عبد القيس لم أثبت فيه شعر الشعراء الذين لم تتوفر في شعرهم ظروف البيئة الجاهلية، وصرفت النظر أيضاً عن الشعر الذي تضمن معاني وألفاظاً إسلامية من طريق غير موثق، وكذلك أبعدت منه شعر الشعراء الذين عاشوا في الإسلام واستمروا حتى العصر الأموي.

ولهذا لم أدخل في الديوان شعر ربيعة بن قميئة الصعبي^(١)، وعامر المحاربي^(٢)، وأوس بن زيد^(٣)، وحرب بن سلمة^(٤)، وأبناء مرة^(٥) «نفيل وعمرو ومعارك»، وهرم بن حيان^(٦)، ولقد جمعت ما يقرب من أربعمئة بيت من الشعر وقمت بدراسة هذا الشعر، بالإضافة إلى شعر المثقب العبدى الذي لا يزيد عن مئتي بيت من الشعر وقد جمعه وحققه

(١) الأمدي: المؤلف والمختلف ٢٥٥.

(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٢٩٤/٣، العسكري: شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ١٦٦.

(٣) السالمى: تحفة الأعيان ص ٣٣.

(٤) الخالديان: الأشباه والنظائر ٢١٩/٢.

(٥) البحتري: الحماسة ص ٧٤، ٢٥٥، ١٤٦.

(٦) السجستاني: المعمرين والوصايا ص ٧٤.

— |

| —

— |

| —

الفصل الثالث

الدراسة الموضوعية

عندما جمعت ما تيسر لي جمعه من ديوان عبد القيس، نظرت في شعرهم، فترأى لي أنه يندرج في موضوعات أساسية أهمها الحرب والقتال، والسلم والإصلاح، ونظرات في الموت والحياة، والرياء، وموضوعات أخرى كالحكم وبيئة البحر والطبيعة.

ولاحظت أيضاً أن شعر المثقب العبدى فيه مواضيع مميزة فلم أشأ ذكرها هنا لانفرادها بها وإنما سأتناولها حين أدرس حياته، أما ما يدخل من شعره ضمن التي ذكرتها فقد درسته هنا، وأهم الموضوعات الأساسية في شعر العبديين.

شعر الحرب والقتال:

عرفت الجزيرة العربية أياماً كثيرة من القتال بين القبائل، وكانت الأسباب وراء ذلك تعود إلى ضنك العيش، وفقر الموارد، والسيطرة المباشرة على مواطن الخصب والرعاية، وعلى أماكن الاستقرار الملائمة^(١).

وعبد القيس شأنها شأن بقية قبائل العرب، شاركت في مختلف الأيام والغزوات وعلى شتى النواحي والجبهات، فحاربت الفرس ورفضت سيطرتهم وقاتلت المناذرة، وأبت أن تخضع لسلطانهم، وتنازعت أسباب البقاء مع قبائل الجزيرة، فأخفقت مرة، وأصابته مراراً^(٢).

وقد أشرنا إلى طول باع القبيلة في كل هذا عندما استقرت على أرض البحرين، وأتناول بالحديث هنا هذه الحروب التي خاضها العبديون «وجبهات» القتال التي حاربوا فيها.

(١) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٤٠٢/٥ .

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥٥/٢، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٣٩٢/١، انظر: صلات العبديين.

الحرب السياسية:

كانت الحيرة من حين إلى آخر، تمد سلطانها على القسم الشرقي من جزيرة العرب فتدخل عبدالقيس ضمن مناطق هذا السلطان، وتحدثنا الأخبار أن صلات المناذرة مع العبيدين كانت عدائية أحياناً وسلمية أحياناً أخرى^(١).

ويحدثنا الشعر عن الصلات العدائية، ونبدأ بالشاعرين يزيد بن الخدّاق الشنّي وأخيه سويد، فهما يثوران على ملوك الحيرة ثورة عارمة، ويهاجمان بعنف وتحد سلطة المناذرة، فيزيد يخاطب النعمان بن المنذر الملقب بأبي قابوس قائلاً^(٢):

نعمان إنك خائن خدع
يخفي ضميرك غير ما تبدي
فإذا بدا لك نحت أثلتنا
فعليكمها إن كنت ذا حرد
إن تغز بالخرقاء أسرتنا
تلق الكتائب دوننا تردى
ومكرت معتلياً مخنتنا
والمكر منك علامة العمد
وهززت سيفك كي تحاربنا
فانظر بسيفك من به تردى

هجمة شرسة، ووقفة بأسلة، وثورة عاتية على النعمان ملك الحيرة، فالشاعر يتهم النعمان بالخيانة، وينعته بالمكر والخداع، مؤكداً أن ضميره يخفي غير ما يبدي ثم هو يتحداه إن كان يستطيع نحت شجرتهم، والنيل من عزهم ومكانتهم، فإذا عزم النعمان على غزو عبدالقيس بكتيبة الخرقاء فإن الأسرة العبدية ستردي تلك الكتيبة وتغل جموعها، وتصرع رجالاتها، فالعبيدون لن يقفوا مكتوفي الأيدي أمام الخرقاء وإنما ستلقى منهم الهلاك والفناء، فنحن أمام تحدٍ شامخ وهجاء صارخ وإهانة متعمدة إلى النعمان صاحب

(١) كحالة: معجم القبائل العربية ٧٢٦ .

(٢) المفضل الضبي: المفضليات ص ٢٩٥ .

السطوة والبأس.

ويتعمد النعمان الإساءة إلى قبيلة الشاعر، فيلوح بسيفه مستخدماً «هزة السيف» دليل الغضب وإشارة الاستعداد للمعركة والقتال، ويبلغ الشاعر حداً بعيداً في السخرية عندما يقول للنعمان: انظر من ترديه بسيفك؟ وارقب من تناله بكتيبتك؟ ولسان حال الشاعر يريد أن يفصح عن عدم استطاعة الملك النيل من عبدالقيس.

ونستغرب مثل هذا الخطاب للنعمان! وتتساءل: ما هي الأسباب التي أدت إلى هذا الهجاء؟ وما الذي حدث في صلات عبدالقيس والمناذرة؟ وكيف يؤكد الشاعر أنه سيفسد خطة الملك، ويتصدى مع قومه لرد اعتداءات المناذرة عليهم؟ وموقف النعمان أمام هذا التهديد وتلك الإهانة؟ أسئلة كثيرة تفرض نفسها، وتطل برأسها، وقبل أن نجيب عليها نقرأ للشاعر يزيد هذه الأبيات^(١):

تحلل أبيت اللعن من قول آثم
على مالنا ليقسمن خموسا
أقيموا بني النعمان عنا صدوركم
وإلا تقيموا كارهين الرؤوسا
أكل لئيم منكم ومعلج
يعد علينا غارة فخبوسا
فإن تبعثوا علينا تمنى لقاءنا
تجد حول أبياتي الجميع جلوسا

مرة أخرى نجد في هذه الأبيات مرارة الهجاء، وعنف التحدي فالشاعر يطلب إلى النعمان في هذه الرسالة الشعرية الثانية أن يتحلل من اليمين الذي قطعه على نفسه في العزم على غزو عبدالقيس، وتقسيم أموالهم أخماساً كما هي نظم الجاهلية، كما يطلب عدم تكرار الغارات وإرسال الكتائب إلى بلاد العبيدين لتهديدهم في أمنهم وحریتهم واستقرارهم في منازلهم وديارهم.

ويرغب الشاعر إلى الملك أن يرفع المناذرة أيديهم عن العبيدين وإلا اضطرت القبيلة

(١) المفضل الضبي: المفضليات ص ٣٠١ .

أن تلجأ إلى العنف وتجبرهم على رفعها مكرهين صاغرين.

وإزاء كل ذلك يعلن الشاعر في صراحة ووضوح، أنه وقومه لن يستكينوا أمام ضربات المناذرة، وأن جموع القبيلة مستعدة، لخوض غمار الحرب والقتال إذا فرضت عليهم.

والذي نفهمه من هذه الأبيات أن موقف النعمان واضح لا غموض فيه، فقد أقسم أن يغزو بلاد عبدالقيس، وأن يغير عليهم ويخضع جموعهم، ويفرض سيطرته ونفوذه عليهم، ثم يقسم أموالهم أخماساً.

ولكي نصبح أقرب إلى الإجابة عن الأسئلة التي طرحناها نمضي إلى شعر سويد الشني وهو الذي شارك أخاه في الثورة والنقمة على المناذرة ففي مقطوعة من مقطوعاته الشعرية يقول^(١):

أبى القلب أن يأتي السدير وأهله
وإن قيل عيش بالسدير غزير
به البق والحمى وأسد خفية
وعمرو بن هند يعتدي ويجور
فلا أنذر الحي الذي نزلوا به
وإني لمن لم يأتته لنذير

إشارة واضحة، وتحذير صلب، للملك عمرو بن هند، فقصره السدير^(٢) مليء بالحشرات الضارة، والأمراض الفتاكة، والأسود الجامحة، وصاحب القصر يعتدي ويجور، والشاعر يحذر كل من لم يلحق بالسدير ولم يأت به أن لا يسافر إليه مخافة أن تلحق به آفات القصر أذى أو يصيبه الملك بسوء.

وفي قصيدة أخرى يقول سويد الشني^(٣):

(١) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ص ٣٠٣، البصري: الحماسة البصرية ٢/٢٠٢ .

(٢) لويس شيخو: شعراء النصرانية ٣/٣٣٩ .

(٣) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٣٠٢ .

جزى الله قابوس بن هند بفعله
بننا وأخاه غدره وأثامنا
بما فجرا يوم القطيف وفرقا
قبائل أحلافاً وحياً حرامنا
لعلّ لبون الملك تمنع درها
ويبعث صرف الدهر قوماً نياما
وإلا تعادينني المنية أغشكم
على عدواء الدهر جيشاً لهاما

في هذه الأبيات يتحدث سويد عن غارة قام بها الملك قابوس بن هند وأخوه في يوم دعي «بيوم القطيف» فاستباحا حمى العبديين وفرقا القبائل المتحالفة معهم، ويرى الشاعر أن هذا الاعتداء كان ظلماً وعدواناً، فهو لم يخبرنا عن أسباب الغارة وظروف القتال، ويطمع في مجيء يوم تنتهي فيه عظمة المناذرة وتضعف سيطرتهم وينهض العبديون يدفعون الأذى والظلم عن أنفسهم، ويكاد الشاعر يقسم بأنه سيحارب المناذرة بجيش ضخم إذا أمهله الموت وأطال في عمره.

إن الشاعر سويد ثار على ثلاثة من ملوك الحيرة عمرو بن هند وقابوس بن هند وثالث لم يذكر لنا اسمه، لكننا نرجح أن يكون النعمان بن المنذر الذي لم يكن قد تولى الملك بعد بينما رأينا أن يزيد الشني ثار على النعمان بن المنذر ولم يخبرنا عن غيره من ملوك المناذرة.

وفي أبيات أخرى لسويد الشني يقول^(١):
ضربت دوسر فينا ضربة
أثبتت أوتاد ملك فاستقرر
فجزاك الله من ذي نعمة
وجزاه الله من عبد كفر

(١) ابن دريد: الاشتقاق ص ٣٣٢ .

فدوسر^(٢) الكتيبة المنذرية هي التي ضربت العبيدين وأغارت عليهم وعملت على استقرار الوضع وحفظ الأمن، والشاعر يحدثنا عن شخصين يكتنف الغموض أمرهما.

وهنا نجد أنفسنا أمام ضباب كثيف، فالأخبار قليلة، والأسئلة الغامضة كثيرة، فهل دوسر هي التي قامت بغزو العبيدين في يوم القطيف السالف الذكر؟ ومن هذان الشخصان؟ هل هما قابوس بن هند وأخوه الذي لم يذكر الشاعر اسمه، أم أنهما شخصان آخران؟ وماذا حدث في يوم القطيف؟ ومن هي القبائل التي حاربت المناذرة مع عبد القيس؟

وفي الطريق لمحاولة الإجابة عن التساؤلات الحاضرة والأسئلة السابقة، لاتسعننا المصادر في إجابة شافية وتبخل علينا في ردود وافية ومع كل ذلك سنمضي في المحاولة رغم كل الصعاب وكثافة الحجب التي تعترض سبيلنا.

فالمصادر تقول^(١) كان للنعمان بن المنذر خمس كتائب وهي الوضائع وجنودها من الفرس، والشهباء وفرسانها من أهل بيت الملك، والصنائع من القبائل العربية، والرهائن من الأسرى، ودوسر وهي كتيبة ثقيلة تجمع فرساناً وشجعاناً من كل قبيلة عربية.

ويقول المبرد^(٢): «إن دوسر كانت كتيبة النعمان»، وفي «الاشتقاق»^(٣) أن النعمان بعث إلى عبد القيس كتيبة دوسر فاستباحتهم، وفي «اللسان»^(٤) أن دوسر اسم كتيبة كانت للنعمان بن المنذر، أما الزبيدي فيذكر كتيبة سماها الملحاء^(٥)، ويقول جواد علي^(٦): «إن الملحاء هي كتيبة الدوسر»، ويذكر الطبري^(٧) أن النعمان بن امرئ القيس له كتيبتان

(١) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٤٠٥/٥ .

(٢) المبرد: الكامل في اللغة والأدب ٢٨٨/١ .

(٣) ابن دريد: الاشتقاق ٣٣٢ .

(٤) ابن منظور: لسان العرب ٢٨٥/٤ .

(٥) الزبيدي: تاج العروس ٢٣٠/٢ .

(٦) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٤١١/٥ .

(٧) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٦٧/٢ .

إحدهما الدوسر والأخرى الشهباء، «وكان يغزو بهما بلاد الشام ومن لم يدن له من العرب» والنعمان الأول هذا حكم في أوائل القرن الخامس الميلادي.

وقد عرفنا في أبيات يزيد أن اسم الكتيبة التي لوح النعمان الثالث «أبو قابوس» باستخدامها في غزو عبد القيس هي الخرقاء^(١)، لكن المثقب العبدى ذكر كتيبة هي الجأء عندما قال مخاطباً النعمان بن المنذر^(٢):

وجأءاء، فيها كوكب الموت، فخمة
تقمص، بالأرض الفضاء، وتيدها

وذكر الممزق هذه الكتيبة عندما قال مخاطباً النعمان بن المنذر^(٣):

بجأءاء جمهود كأن طريقها
بسرة بين الحزن والسهل رزدق

فالمثقب والممزق لا يتركان مجالاً للشك في أن الجأءاء هي كتيبة هامة للنعمان بن المنذر الملقب بأبي قابوس.

وفي ديوان المثقب^(٤) أن الجأءاء هي الكتيبة الكثيرة الدروع وسميت بذلك لتغير ألوانها من طول الغزو وصدأ الحديد على رجالها وأسلحتها وفي «تاج العروس»^(٥) أن الكتيبة الجأءاء هي التي يعلوها لون السواد لكثرة الدروع والجأءاء أيضاً الجيش العظيم

(١) المفضليات: ٢٩٥ .

(٢) ديوان المثقب العبدى ص ١٠٧ .

(٣) المفضليات: ٤٣٣ .

(٤) ديوان المثقب العبدى ص ١٠٧ .

(٥) الزبيدي: تاج العروس ٦٥/١٠ .

(٦) ابن منظور: لسان العرب ٢٦٥/٤ .

(٧) قال العسكري في جمهرة الأمثال ٢٥٤/١، أبطش من دوسر وهي كتيبة تتألف من أربعة آلاف فارس، صلبة قوية، شديدة البطش ويقال حمل دسر إذا كان صلباً وشديداً، وفي مجمع الأمثال للميداني ١٢٥/١ أن دوسر أخشن الكتائب وأشدها بطشاً وكانت من كل قبائل العرب وأكثرها من ربيعة وسميت دوسر من الدسر وهو الطعن.

وفي «اللسان»^(٦) كذلك.

ويبدو لي أن دوسر^(٧) كتيبة قديمة بقيت تحمل هذا الاسم حتى زمن النعمان بن المنذر وأن الجأء هي ذات الشهباء لأن كلا منهما فيها السلاح الوفير والدروع الكثيرة ويختلط البياض بالسواد^(٨)، أما سائر الأسماء، ملحاء وخرقاء وغيرها، فهي نعوت لتلك الكتيبة التي ترجح أن تكون الجأء.

ومن الواضح في أشعار العبيدين أن عمرو بن هند غزا العبيدين وأوجعهم بالكتيبة دوسر، أما النعمان بن المنذر فقد غزاهم بالكتيبة الجأء وأخذ أسراهم، وساق جمهرتهم إلى الحيرة.

والمناذرة يستخدمون كتائبهم في تأديب القبائل الخارجة على سلطانهم، وكان هذا شأنهم مع عبد القيس، ولذا تركت بعض الكتائب كدوسر والجأء أثراً بالغاً في ذاكرة العبيدين والعرب^(٩).

والآن، بعد أن وضح لدينا أن دوسر والجأء هما أكثر الكتائب بطشاً وغازة على عبد القيس، نتوقف ونتساءل: ما الأسباب التي أدت إلى كثرة غارات المناذرة على العبيدين؟ الأمر الذي حدا بالشاعرين يزيد وسويد أن يقفا هذا الموقف وأن يثورا تلك الثورة وبالذات ضد عمرو بن هند وقابوس بن هند والنعمان بن المنذر أبي قابوس^(١٠).

وتعود الأسباب إلى أن المناذرة كانوا يحاولون فرض سلطانهم وتوسيع رقعة حكمهم ومناطق نفوذهم، لذا تكررت غاراتهم على القبائل العربية ومن ضمنها عبد القيس، فالأخبار

(١) ابن منظور: لسان العرب ١٢٧/١٤ .

(٢) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٤١٣، ٥ .

(٣) كحالة: معجم القبائل ص ٧٢٦ .

(٤) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٢٤٨/٣ .

(٥) نفس المصدر ٢٥٨/٣ .

(٦) نفس المصدر ٢٤٢/٣ .

تروي^(٤) أن عمرو بن هند غزا قبائل تغلب وبكر بن وائل، وتميم، وطى، واليمامة، وعبد القيس، كذلك أغار النعمان بن المنذر على قبائل العرب وأخضعها لسلطانه^(٥) وكانت البحرين زمن الملك عمرو بن هند ولاية تابعة للحيرة وكان ابن هند قد أمر بقتل طرفة بن العبد^(٦) لأنه هجاه، وكان ملوك المناذرة يغضبون بسرعة ويملكهم الانفعال الشديد ويأخذون بالوشايات^(٧) فلا نستبعد أن تكون بعض القبائل قد أوغرت صدور المناذرة على العبيدين لأنفتهم وكبريائهم فقاموا بغزوهم لتأديبهم، وأن يوم القطيف هو واحد من الأيام التي أغار فيها المناذرة على عبد القيس وأنزلوا بهم خسائر فادحة، وفرقوا قبائلهم المتحالفة.

وفي الأخبار أن بعض بطون عبد القيس تمردت على سلطان الحيرة، وبالدات على النعمان بن المنذر، والمتقّب يؤكد تمرد النكريين في عمان^(٨).

وإن الكتيبة الجأء هي التي وضعت حداً لهذا التمرد، وأخضعت العبيدين فقد برّ النعمان بقسمه وغزا عبد القيس، وأوقع بهم ضربات قاسية فنكل وأوجع وأخذ عدداً من الأسرى، وكان هذا سبباً في وصول وفد عبدي إلى بلاطه يطلب إليه العفو والصفح وإطلاق سراح الأسرى.

وفي «دائرة المعارف الإسلامية» أن الشننين ولكيزا ثاروا على النعمان الثالث الملقب بأبي قابوس^(٩)، ونحن ندرك أن قرب بني شن من العراق كان يوقعهم تحت ضربات المناذرة عند أقل تمرد أو أدنى إشارة للقتال^(١٠).

(١) نفس المصدر ٢٦٢/٣ .

(٢) ديوان المتقّب العبدي ١٠٥ .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية، مجلد ١ ص ٧٣ .

(٤) انظر منازل عبد القيس.

ولتلك الأسباب وفي مقدمتها ظلم المناذرة وجبروتهم، وكثرة غاراتهم ثار الشعاعان يزيد وسويد وحملًا لواء التمرد، وتزعما حركة العصيان في عبدالقيس كما أن انحذار الشعاعين من قبيلة شن التي امتازت بالقتال، وتشبعت بروح الحرية والإباء، ترك بصمات واضحة المعالم في الثورة التي تزعمهاها.

وهكذا نرى أن الحرب السياسية مع المناذرة كانت حرباً عدائية لا هوادة فيها ولا لين فلقد رفض الشعاعان الخضوع والاستسلام وعبرا عن النقمة العارمة والتطلع إلى آفاق أرحب من العزة والحرية فمثلا بذلك روح الفارس العربي الذي يابى الذل والاستكانة.

والقبائل العربية تأنف من الذل وترفض الضيم والإهانة، وكان الشعراء على لسان قبائلهم، يهاجمون المناذرة ويؤذونهم بقصائدهم، فعندما أحس الشعاعان العبدان يزيد وسويد أن قبيلتهما قد لحقها الأذى وأصابها ظلم المناذرة وتتابع غاراتهم عليها قاما يهاجمان المناذرة بهذه القصائد الحربية، وهما بهذا ينضممان إلى كل الشعراء الذين وضع لديهم ظلم المناذرة ومدى سيطرتهم وكبت حريات القبائل العربية المتاخمة لهم ومن الشعراء الذين ثاروا على سلطان الحيرة طرفة بن العبد والمتلمس الضبعي وعمرو بن كلثوم وغيرهم.

الحرب القبلية:

أشرنا إلى أن موقع عبدالقيس على أرض البحرين وسط جيرانها من القبائل العربية الأخرى، فرض عليها حماية نفسها، والدفاع عن أسباب أمنها واستقرارها، وتحديثنا الأشعار عن أيام وحروب مع تلك القبائل وفي مقدمتها بنو لقيم وقبائل أخرى من بكر بن وائل وتميم وغيرها.

(١) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ٣٠٩، كحالة: معجم القبائل ١٠٠٩/٣ .

(٢) نفس المصدر ٣٠٩ .

الحرب مع قبيلة لجيم: لجيم قبيلة عدنانية ونسبها في ربيعة، ومن بكر بن وائل فهي لجيم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن اقصى بن دغمي بن جديلة ابن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان^(١) وانحدر من هذه القبيلة بنو حنيفة، وهم أهل اليمامة، وكانوا أصحاب نخل وزروع، وفيهم العدد والثروة^(٢).

وتقابلت عبدالقيس مع لجيم في أرض ذي طريف^(١) وحدثنا المفضل «عامر بن معشر» صاحب «المنصفة» عن هذه الحرب حديثاً مسهباً وذلك على النحو التالي^(٢):

المكان:

تلاقينا بغيبة ذي طريف
وبعضهم على بعض حنيق

اللقاء:

فجاءوا عارضاً برداً وجئنا
كمثل السيل ضاق به الطريق
مشينا شطرهم ومشوا إلينا
وقلنا اليوم ما تقضى الحقوق

بداية القتال:

رمىنا في وجوههم برشق
تغصّ به الحناجر والحلوق

القتال:

كأن النبل بينهم جراد
تكفيه شامية حزيق
بكل قرارة منا ومنهم

(١) ياقوت: معجم البلدان ٤٨/٦ (موضع بالبحرين كان لهم فيه وقعة).

(٢) الأصمعي: الأصمعيات ١١٩ .

بنان فتى وجمجمة فليق
وكم من سيد منا ومنهم
بذي الطرفاء منطقته شهيق
فأبكيننا نساءهم وأبكوا
نساء ما يسوغ لهن ريق

القتلى:

قتلنا الحارث الوضاح منهم
كأن سواد لمتته العذوق
وقد قتلوا به منا غلاماً
كريمًا لم تأشبهه العروق
وسائلة بثعلبة بن سير
وقد أودى بثعلبة العلوق
وأفلتنا ابن قران جريضاً
تمر به مساعفة حروق

نهاية القتال:

فلما استيقنوا بالصبر منا
تذكرت الأواصر والحقوق
وأبقينا ولو شئنا تركنا
لجيماً لا تقود ولا تسوق
وأنعمنا وأبأسنا عليهم
لنا في كل أبيات طليق

الأبيات التي ذكرناها من منصفة المفضل^(١) تناولت مكان المعركة في سهل
ذي طريف، وكان الحقد قد بلغ أشده عند الفريقين، فالشاعر لم يذكر لنا أسباب هذه
المعركة، ولا دواعي هذا القتال، واكتفى بأن يشير إلى حقد قديم دفين بينهما، والتقى

(١) الأصمعي: الأصمعيات ١١٩ .

العبيدون مع اللجيمين وكأنه لقاء بين عبد القيس، وبكر بن وائل، وهما القبيلتان اللتان
تعودان بنسبهما إلى ربيعة.

وتم اللقاء بأن سار كل من الفريقين إلى مكان المعركة، ووصف الشاعر المجيء، فقد
جاء بنو لجيم كالسحاب المنهمر، وجاء العبيدون كالسيل العرم واستعد الفريقان للنزال
والقتال، وتعالّت الأصوات، ولعت السيوف، وأشرعت الرماح، وكأن أجمة تحترق، فقد أخذ
صوت السلاح، يكسر الصمت وينهي السكون الذي ساد مكان المعركة.

وكانت البداية تراشقاً بالنبال، وكثافة في الرماية، وسهاماً غصت بهما الحناجر
والحلو، فكأنها الجراد الكثيف الذي تسوقه الرياح الشمالية.

لقد احتدمت المعركة واشتد القتال في كل ناحية وصوب، وبعد تراشق النبال
والسهام استخدمت الرماح ثم سلت السيوف تضرب الهامات، وتذيق الأبطال طعم الردى
والموت، إنها حالة الالتحام بين فئات المقاتلين وصفوف المهاجمين، وماذا حدث بعد ذلك؟
إنك لتجد في كل قرارة ومرتفع من الفريقين، بناناً مقطوعة، وجمجمة مفلوكة، وعدداً من
السادة، يلفظون أنفاسهم الأخيرة، وكثر الطعن، وتساقط القتلى، وتجمعت السباع
والضباع والغربان، تتناول غذاءها، وتكثر من طعامها، حتى شبعت وأتخمت.

واشتركت النساء في المعركة وبكت بمرارة وحرقة قتلى لجيم وعبد القيس فقد جفت
الحلو، وسجلت الأصوات، وبحت الحناجر من شدة النواح والنحيب.

وحدثنا الشاعر بعد ذلك عن القتلى فذكر أشهر القادة والفرسان وقد قتل من لجيم
زعيم القبيلة الحارث بن الوضاح، وصرع القائد ثعلبة بن سيار أما فارس بني لجيم
ابن قران فقد فر جريحاً على حصانه، وقتل من عبد القيس فتى كريم من فتيانها، وفارس
مغوار من فرسانها.

والنهاية تذكر الفريقان ما بينهما من وشائج القربى وأواصر الصداقة وصلات
الجوار فحل الوئام مكان الفرقة، وانتهت الحرب، وهدأت المعركة ورفرفت راية السلام على

ربوع القبيلتين، ويبدو أن صلاحاً تم بينهما نظراً لأنهما يعودان بنسبهما كما ذكرنا إلى قبيلة واحدة وهي ربيعة.

وكما ذكرنا لم يشر المفضل إلى أسباب هذه الحرب، وكذلك لم يذكر لنا أي البطون من عبدالقيس اشتركت في القتال، لكنه أشار إلى الحقد الدفين بينهما وأن قبيلة الشاعر نكره في أغلب الظن هي التي شاركت في هذا القتال.

أياً كانت الأسباب وراء هذه المعركة والبطون العبدية التي شاركت فيها فإن الشاعر أنصف أعداءه، وتحدث عن بطولاتهم، إلى جانب بطولات قومه، فكان من الشعراء المنصفين، وكانت قصيدته من المنصفات، فما هي هذه المنصفات؟.. إنها قصائد يرى فيها الشعراء أنفسهم وقبائلهم، فيفتخرون ويعتزون بما أحرزوا من نصر وبطولات، وكذلك يرون أعداءهم فينصفون مواقفهم في القتال، ويتحدثون عن ما وقع منهم من بطولات، وجولات جريئة وسط ميدان المعركة، ولقد وصلت هذه القصائد إلى أرفع مستوى من العدل والصدق والإنصاف فسميت بالمنصفات^(١).

وسميت تلك القصائد أيضاً المنصفات، من النصف فكأن القصيدة جعلت نصفين بين الشاعر وعدوه، فالبيت الواحد أحياناً نصفان، الأول في الشاعر أو فريقه، والثاني في أعدائه، أو أن عدد الأبيات في القصيدة الواحدة تكون نصفين: النصف الأول في الشاعر وقبيلته، والنصف الثاني في أعدائه^(٢).

والإنصاف من هذا المنطلق يعني تقدير الرجل للرجل، وإعجاب المحارب بالفارس لبطولة عدوه الفارس المحارب، واحترام القدرة القتالية لكلا الطرفين في المعارك والحروب.

والإنصاف كما يراه الملوحى ثلاثة أنواع^(٣):

أ - إنصاف في الحرب.

(١) الملوحى: المنصفات - المقدمة.

(٢) الخالديان: الأشباه والنظائر ١٤٩.

(٣) الملوحى: المنصفات - المقدمة.

ب - إنصاف في الصلات الاجتماعية.

ج - إنصاف في النواحي الخلقية.

وإنصاف الحرب يكون في حالة النصر وحالة الهزيمة، ويكون أيضاً في الحالة التي ندعوها «بالتعادل» حيث لا هزيمة ولا نصر، وبواعث شعر الإنصاف إذن هي الحروب الطويلة والقتال المرير.

وتأتي أول إشارة للأشعار المنصفة، عند الجاحظ إذ يقول «أدركت رواة المسجدين والمريدين ومن لم يرو أشعار المجانين (العشاق) ولصوص الأعراب ونسيب الأعراب والأرجاز الأعرابية القصار والأشعار المنصفة فإنهم كانوا لا يعدونه من الرواة»^(١).

وفي «الأشباه والنظائر»: «ذكرت الرواة أن منصفات أشعار العرب ثلاثة أشعار أولها قصيدة عامر بن معشر من عبد القيس»^(٢).. وفي «الحماسة البصرية» «قيل: إن منصفات العرب ثلاث أولها قصيدة عامر بن أسحم»^(٣)، وذكر البحتري الإنصاف في حماسته^(٤)، ويروى أن المهلهل بن ربيعة أول من أنصف في شعره عندما قال^(٥):

كأنا غدوة وبني أبنينا

بجنب عنيزة رحيماً مدير

فالإنصاف قديم والفرس العربي منصف في أشعاره وأقواله، إنه لا يفخر بنفسه فحسب وإنما يسجل مفاخر عدوه ولا يظلمه في بسالته وشجاعته، ومن هنا اهتم الرواة بالشعر المنصف وأشادوا به، وذكروا الأشعار المنصفة وأصحابها ومن بينهم المفضل

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ٢٣/٤ .

(٢) الخالديان: الأشباه والنظائر ١٤٩/١ .

(٣) البصري: الحماسة البصرية ٥٣/١ .

(٤) البحتري: الحماسة ٤٨ .

(٥) الجاحظ: البيان والتبيين ٢٣/٤ .

(٦) البحتري: الحماسة ٤٨ .

(٧) الأصمعي: الأصمعيات ٢٣٦ .

(٨) البحتري: الحماسة ٤٩ .

الذي تحدثنا عن منصفته، وعبدالشارق الجهني^(٦)، والعباس بن مرداس السلمي^(٧)، وعمرو بن معدي كرب^(٨) وغيرهم^(٩).

ونحن لا نعدو الحقيقة إذا ما ذكرنا أن منصفة المفضل تاريخ كبير، وسجل هام للحرب التي دارت بين القبيلتين، ولذا فضلت تلك المنصفة قائلها، وأشهرته بين شعراء عبدالقيس وسائر شعراء الجاهلية.

وإذا ما عدنا إلى المنصفة نتبين أهميتها، ومواطن الإنصاف فيها، نجد أنها أبرزت عدة حقائق، وعالجت كثيراً من الأمور، في كيفية سير القتال، وبدايته، وفنونه، مما يصلح أن يكون أسلوباً حربياً من أساليب الجاهليين ونموذجاً قتالياً فذاً، ومستوى ملائماً من مستوياتهم، ونطلع على أنواع الأسلحة والأدوات التي استخدمت في الحروب والأيام الجاهلية، وندرك مدى صلات المودة وأثر وشائج القرى، وأهمية أنساب القبائل في إحلال السلام وعقد المصالحات، وإنهاء الخصومات، ولا ننسى موقف القبائل النبيلة في تقدير عواقب الحروب، وما تجره من ويلات، ودمار وخسائر، فتلجأ إلى وقف القتال، وإطلاق سراح الأسرى وهكذا فعل العبيدون مع بني لقيم البكرين.

أما مواطن الإنصاف فهي:

نوايا الفريقين: لم يكن الارتحال في جهة واحدة، وإنما في اتجاهين متضادين فالمفضل أخضع مطلع المنصفة ليلائم الإنصاف فقال:

ألم تر أن جيرتنا استقلوا

فنيتنا ونيتهم فريق

اللقاء والمجئ في :

(١١) جئنا مثل السيل وجاءوا مثل العرض.

(١٠) بعضنا حاقد عليهم وبعضهم حاقد علينا.

(١٢) مشينا شطرهم ومشوا إلينا.

(١٣) رمينا في وجوههم برسق ورموا في وجوهنا كذلك.

(١٧) أسلحتنا من النبع وسلاحهم من السدر

(١٨) هريرنا أجمة تحترق وهريرهم كذلك

في ساحة المعركة:

البيت رقم (٢٤) بكل قرارة منا ومنهم بنان فتى وجمجمة فليق.

(٢٧)، (٢٨) السباع والضباع والغريان شبعن من الفريقين.

(٢٩)، (٣٠) النساء من الفريقين تبكي القتلى، فأبكينا نساءهم، وأبكو نساءنا.

القتلى:

(٣٣) من عبدالقيس: فتى فارس كريم النسب.

(٣٤) من لجيم: القائد ثعلبة بن سيار.

(٣١)، (٣٢) الزعيم الحارث بن الوضاح.

(٣٥) القائد الجريح الهارب ابن قران.

ومن هذه المواطن نرى أن المفضل أنصف أعداءه، وذكر بسالتهم وأثنى على شجاعتهم، بيد أنه فخر بقومه أكثر من أعدائه، في بعض الأحيان ويعود ذلك إلى أن قبيلته هي المنتصرة على لجيم.

وليست قصيدة المفضل هي الشعر المنصف الوحيد بين أشعار عبدالقيس فهناك مفضلية ثعلبة بن عمرو التي يقول فيها^(١):

(١) المفضل الضبي: المفضليات ٢٥٤ .

أخي وأخوك ببطن النسيير
ليس به من معد عريب
فأقسم بالله لا يأتلي
وأقسمت إن نلتته لا يؤوب
فأقبل نحوي على قدرة
فلما دنا صدقته الكذوب
فتبعته طعنة ثرة
يسيل على الوجه منها صبيب

يحدثنا ثعلبة بأن رجلاً قتل أخاه، فقام يأخذ بثأر أخيه والتقى مع عدوه في منطقة النسيير^(١)، وهي من بلاد عبد القيس، ولم يكن سواهما في هذه المواجهة فأقسم عدوه على أن ينال منه، وأقسم الشاعر إن ظفر بعدوه أن لا يعيده للحياة ويصف ثعلبة قدرة عدوه، فهو صلب قوي لكنه عندما أقبل خدعته نفسه، فلم يكن يدور في حسبان أنه يواجه فارساً أشد منه قوة وأمضى بأساً، ويقبل الشاعر على عدوه، فيطعنه طعنة نجلاء، تدفق دمه غزيراً على أثرها.

وفي هذه الأبيات نجد إنصافاً حربياً لكنه على صعيد فردي بينما لاحظنا أن منصفة المفضل كانت من الإنصاف القبلي، ومواطن الإنصاف في هذه المفضلية تكمن في أن عدو الشاعر أقسم أن ينال منه، وتقدم نحوه بصلاية وقدرة، وأقسم الشاعر أن ينهي حياة عدوه فأقبل عليه مغوراً وكان أقوى مراساً منه، وأصلب قتالاً، وسجل سبقه في طعنة موفقة أسالت دم عدوه، مسجلاً نصر الشاعر عليه.

(١) ياقوت: معجم البلدان ٢٨٧/٨ .

(٢) انظر: صلات عبد القيس مع القبائل الأخرى.

وهكذا نجد عند العبيدين أشعاراً منصفة تعكس لنا صورة صادقة عن روح الفارس العبيدي وتصور لنا سمو خلقه وشيمه، وصدقه، فهو أبداً، معتز ببطولاته، فخور بشجاعته، تياه ببسالة قومه، لكنه في ذات الوقت ينصف أعداءه، ويسجل مواقفهم البطولية، وقدرتهم القتالية.

لم تكن حرب طريف بين عبدالقيس ولجيم هي الحرب القبلية الوحيدة لكنها كانت أهمها وأشهرها، وتحدثنا الأخبار عن أيام حربية أخرى لعبدالقيس^(٢) بعضها ذكره الشعر والبعض الآخر لم تصلنا أشعاره.

وفي شعر العبيدين إشارات خفيفة إلى وقائع حربية مع القبائل فالشاعر عمرو بن أسوى يقول^(١):

شحطنا إياداً عن وقاع فقلصت
وبكراً نفينا عن حياض المشقر

إنه بلاغ إلى عمرو بن قيس بأن يصبر على الحرب، ويثبت أمام الأعداء فلا جزع ولا خوف، فالعبيدون أهل حرب وبأس، حاربوا إياداً وأبعدوها إلى العراق^(٢) وقاتلوا بكر بن وائل وأجلوها عن أرض المشقر^(٣).

وفي مجال آخر أشار عمرو إلى عنثرة حينما قال^(٤):
وتركن عنتر لا يقاتل بعدها
أهل القطيف قتال خيل تنفع

(١) المرزباني: معجم الشعراء ٤١ .

(٢) البكري: معجم ما استعجم ٨٦.

(٣) ياقوت: معجم البلدان ٦٤/٨ مطبعة السعادة.

(٤) نفس المصدر ١٣٠ .

(٥) ياقوت: معجم البلدان ٦٨/٣ والرمث مرعى من المراعي.

(٦) المفضل الضبي: المفضليات ٦٨ .

ويبدو أن قتالاً وحرباً قامت بين أهل القطيف من عبد القيس وبين قبيلة عبس التي أنجبت الشاعر الفارس عنترة.

وفي ميدان الحروب القبلية نجد شاعراً عبدياً يتحدث عن ذات الرمث^(٥) فيقول^(٦):

بذات الرمث إذ خفضوا العوالي
كأن ظباتها لهبان جمر
رميتهم بوجرة إذ تواصوا
ليرموا نحرها كثباً ونحري
فلم أنكل ولم أجبن ولكن
يممت بها أبا صخر بن عمرو
شككت مجامع الأوصال منه
بننافذة على دهش وذعر
تركنت الرمح يبرق في صلاه
كأن سناناه خرطوم نسر

هذا الشاعر فارس في قائمة فرسان الحرب العبدية، وهو يتحدث عن معركة دارت بينه وبين أعدائه، من بني القين من قضاة^(١)، إذ أقبل شاعرنا على أبي صخر بن عمرو القيني فشك مجامع أوصاله، برمح صلب نفذ من ظهره، وكأنه خرطوم نسر، واستمر الشاعر مفتخراً بشدة ضرباته، فلم يجبن ولم يتمايل وإنما مضى يوجه طعنة نافذة إلى صدر عدوه، ويغيب نصل رمحه، في مواطن أوصاله ومجامع أعضائه، ولقد ركزت الأبيات على استخدام الرماح «العوالي» في هذه المعركة وذلك دليل على أهمية هذه الأداة الحربية زمن الجاهلية، وبالذات على أرض عبد القيس وقد أشرنا إلى صناعتها من قبل العبديين^(٢).

صور أخرى من القتال:

(١) الأنباري: شرح المفضليات ٢١٢، كحالة: معجم القبائل ٩٥٧/٣ .

(٢) انظر: فصل الصناعة.

(٣) البحتري: الحماسة ٣٩ .

عرفنا الحرب السياسية والحرب القبلية، ونعرض الآن لونا آخر من حروب العبيد
وقتالهم ويضم هذا اللون الحرب من أجل الثأر، والحرب الفردية وأنماطاً أخرى، فحريث
الشاعر العبيدي يقول^(٣):

قد التقينا وكلانا حر
جواب أرض في يديه شر
مهند منه الردى يخر
الأمننا اليوم الذي يفر

إنها صورة الفارس العبيدي يلتقي بعدوه، وهو يجوب الأرض ويقطع المسافات يحمل
الشر والأذى، يقطر الموت من سيفه ويواجهه المنية فلا مهرب ولا مفر، فهو مقدم مغوار،
وكيف يهرب من عدوه! وأنى له أن يسلك سبيل الفرار إنه عار وأي عار!.

ومالك بن عروة يقول^(١):

ولا تحسبوا أننا نسينا بحابل
حريز الندى والعسكر المتبددا
ولا تستريثونا فإننا كأننا
وسمر العوالي فيكم اليوم أو غدا

هذا فارس لا ينسى ثأره وسمر عواليه ستصل إلى أعدائه، وتنال منهم إن عاجلاً، أو
أجلاً فهو لا يغفل عن عدوه، لكنها المهلة والتريث.

وسلمة بن حبابه يصر على أخذ ثأره فيقول^(٢):

إني أنا المرء لا يعطي على ترة
ولا يقر على الضيم إذا غشما

(١) البحتري: الحماسة ٣٠.

(٢) نفس المصدر ٢٧.

(٣) نفس المصدر ٤٦.

والرجل العبدى يضرب بشدة، ويحمل بعنف عندما يلقي أعداءه، يقول الجمال العبدى^(٣):

ومستلحم بادى النواجذ قد رأى
حياض المنايا والرماح شوارع
عطفت عليه والرماح كأنها
خلال القنا قرن من الشمس طالع

فالشاعر عطف على عدوه والرماح مشرعة، والمركة محتدمة، فنال منه رغم كثافة
الرماح، وهي نفس الصورة التي ذكرها عنتره في معلقته وهو يتقدم من الكماة الفرسان
ويصيب منهم مقتلاً^(٤):

ومدجج كره الكماة نزاله
لا ممعن هرباً ولا مستسلم
فشككت بالرمح الأصم ثيابه
ليس الكريم على القنا بمحرّم

والطعن عند الفارس العبدى باسل قوي يقول عمرو بن سلمة^(١):

مازلت أضربه وأنعى مالكا
حتى تركت ثيابه كالخيعل
وتركت مسنده وموضع رحله
طيراً توقع حوله كالنزل
تجري الدماء على محاسن وجهه
والنفس ساجمة كماء المفصل

فعمرو يضرب عدوه وقاتل أخيه، بعنف، حتى اصطبغت ثيابه بالدماء وجرت على
محاسن وجهه، وهو طريح الأرض وقد تداعت الطير ووقعت عليه تأخذ طعامها من جسده.

والشاعر مالك بن ثعلبة يتحدث عن بطولات قومه فيقول^(٢):

(١) أبو تمام: الوحشيات ١٨.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ص ١١٥.

تركنا شريحاً قد علته بصيرة
كحاشية البُرد اليماني المحبر
ونحن فجعنا أم غضبان بابنها
ونحن كسرنا الرمح في عين حبر
ونحن تركنا مسمعاً متجدلاً
رهينة ضبع تعتريه وأنسر

فمالك يتحدث عن انتصارات قومه الذين صرعوا شريحاً، وابن أم غضبان ومسمعاً
أما شريح فقد سقط إلى الأرض يتخبط بدمائه التي شبه احمرارها بالثوب اليماني
المخطط، وقد اشتهرت عبد القيس بالأثواب الحمراء^(١)، أما أم غضبان فقد فجعت بولدها
بعد أن دق عنقه وكسر الرمح في عينيه، والرجل الثالث مسمع وقع يتخبط في دمه وترك
صريعاً فريسة للضباع والنسور.

وبنو محارب من عبد القيس، أشداء، أقوياء واسمهم يدل على الحرب والقتال يقول شاعرهم^(٢):

معاقلنا في الحرب جرد كأنها
أجادل في جو السماء كواسر
وسمر من الخطى ذات أسنة
وبيض كأمثال البروق بواتر
إذا ما انتضيناها ليوم كريهة
رأيت لها هام العدى تتطاير

فالخيول سريعة وكأنها نسور خاطفة والرماح سمراء من الخط^(٣) والسيوف بواتر،
حادثة القطع تضرب رؤوس الأعداء، فتنثر هنا وهناك، إنها صورة رائعة أن تتطاير
الرؤوس، وتدق الأعناق.

(١) انظر: فصل الصناعة.

(٢) ابن الشجري: الحماسة ٦/١.

(٣) انظر: فصل الصناعة.

(٤) البحري: الحماسة ٣١.

واشتركت المرأة العبدية في القتال والحرب فأثارت الحماسة، وزرعت الثبات، وألهبت الحمية في النفوس، فابنة حكيم الشاعرة العبدية، وقفت تصرخ بقومها طالبة إليهم أن يكونوا أصحاب سطوة وبأس^(٤):

فإن كنتم قوماً كراماً فعجلوا
له جرأة من بأسكم ذات مصدق
فإن لم تنالوا نيلكم بسيوفكم
فكونوا نساء في الملاء المخلق

فالكرام هم الذين يدافعون عن شرفهم وحماهم ويعجلون الموت لأعدائهم وإلا فما الفرق بينهم وبين الخوالب اللواتي يرفلن في أثواب زاهية.

وشاعرة عبدية أخرى تقول مزهوة بقومها^(١):
أبوا أن يفروا والقنا في نحورهم
ولم يبتغوا من رهبة الموت سُلماً
ولو أنهم فروا لكانوا أعزّة
ولكن رأوا صبراً على الحرب أكرما

هذا الإباء على عدم الفرار، والإصرار على لقاء العدو، والثبات أمامه شيمة عبدية، فالفرار عار ومذمة، إذ عندما تلتهب المعركة، وتوجه القنا للنحور، لا بد من الصبر على البلاء، والشدة على المصاب، فلا سلم يصعد به نجياً إلى السماء، ولا حاجة به إلى الحياة، فإذا ما دعى الردى فالحياة الكريمة والعيش العزيز في ظل الرماح، وهكذا تضيف المرأة العبدية في سجل المآثر الحربية صفحة ناصعة مشرقة.

الأسلحة: استخدم فرسان القتال والحرب في عبدالقيس أسلحة متنوعة هجومية ودفاعية، واهتم شعراؤهم بالحديث عن تلك الأسلحة، فالشاعر ثعلبة بن عمرو يتناول في قصيدة له أنواع الأسلحة ويتحدث عن الخيول فيقول^(٢):

وشوهاء لم توشم يداها ولم تذل
فقاظت وفيها بالوليد تقاذف

(١) البحري: الحماسة ٣٧.

بللت بها يوم الصراخ وبعضهم
يخب به في الحي أروق شارف
بيضاء مثل النهي ربح ومد
شأبيب غيث يخفش الأكف صائف
ومطر يرزك عند ذواقه
ويمضي ولا ينأ فيما يصادف
وصفراء من نبع سلاحي أعدّها
وأبيض قصال الضريبة جائف

في هذه الأبيات يذكر ثعلبة الدروع من الأسلحة الدفاعية، فالدرع عنده بيضاء، ناعمة، ملساء، تشبه في صفائها ماء الغدير الذي أصابته الريح وسقط عليه رذاذ المطر فرسم فيه دوائر واهتزازات تشبه حلقات الدروع، وقد أشرنا إلى أن عبدالقيس صنعت الدروع الحطمية وغيرها واهتمت بهذه الصناعة كثيراً^(١).

ومن أسلحة الهجوم، ذكر الشاعر الرماح، فرمح ثعلبة يعجب كل ناظر إليه يمضي فيخترق ويمزق، وينطلق فلا يتمايل فيما يصادف، ولا يعوج طريقه، فهو رمح سريع القطع، صلب الاختراق.

وقد أشرنا إلى أنواع رماح العبديين^(٢) وألوانها فهي خطية، سمراء اللون، طويلة الأنصال، عالية القناة، صلبة في طعنها، قوية في نفاذها، لينة في اختراقها، وقد أكثر الشعراء العبديون من ذكر الرماح فمالك بن عروة يتحدث عن العوالي السمراء^(٣):

ولا تستريثونا فأننا كأننا
وسمر العوالي فيكم اليوم أو غدا

(١) انظر: الصناعة عند عبدالقيس.

(٢) انظر: الصناعة عند عبدالقيس.

(٣) البحري: الحماسة ٣٠.

(٤) الأصمعيات: ١٩٩.

(٥) نفس المصدر.

(٦) ابن الشجري: الحماسة الشجرية ٦/١.

والرماح سلاح هام في أيدي العبيدين تحمل الموت لأعدائهم فالمفضل يقول^(٤):
يهز هز صعدة جرداء فيها
سنان الموت أو قرن محيق

ويؤكد المفضل أهمية رماحهم عندما تجندل قادة الأعداء فرماح بني لكيز تصرع
الحارث الوضاح من بني لجيم^(٥):

أصابته رماح بني لكيز
فخر كأنه سيف دلق

والشاعر مسعود يذكر رماح الخط ذات الأسنة الحادة^(٦):

وسمر من الخطي ذات أسنة
وبيض كأمثال البروق بواتر

ثم يتحدث ثعلبة عن القوس، فهي صفراء، صلبة، تصنع من شجر النبع وهو شجر
قوي كان الجاهليون يستخدمون أغصانه في صناعة القسي.

وقد ذكرنا أن المفضل أشار إلى شجر النبع والسدر، فقسي العبيدين من النبع،
بينما قسي أعدائهم من السدر، وشتان بين النبع الصلب القوي، وبين السدر الخوار
الضعيف^(١):

وجدنا السدر خواراً ضعيفاً
وكان النبع منبته وثيق

وقضيب النبع الذي تعمل منه القوس يسمى الجشيء والفرع الهتوف تؤخذ من أعلى
أغصان النبع وتصنع منه القوس الشديدة^(٢)، ومن هذا نفهم أن أغصان النبع العالية،
وأعوادها الرفيعة تقطع وتطرح في الشمس، لتذبل وتتصلب وبعد ذلك تعد لصناعة القسي
الجيدة.

(١) الأصمعيات: ١٩٩ .

(٢) المفضليات: ٣٠٩، ٤٢٤ .

(٣) انظر: الصناعة عند عبد القيس.

(٤) المفضليات: ٩٩ .

ولا أتطاول على الحقيقة إذا ما ذكرت بأن بعض العبيدين كانوا يصنعون القسي إلى جانب صناعة الرماح الخطية والدروع الحطمية^(٢)، ولعل ثعلبة شاعرنا هذا قد قام بصنعها فهو يذكر لنا أنه يعد سلاحه من النبع «من نبع سلاحي أعدها» ونفهم من الفعل أعدها أنه يصنعها ويهتم بها ويحافظ عليها.

وجاء في شعر للمزرد أخي الشماخ^(٤):

لنعت صباحي طويل شقاؤه

له رقميات وصفراء ذابل

والصباحي رجل من بني صباح نزل ضيفاً على الشاعر وكان لديه سهام ويحمل قوساً قطع عودها وطرحت في الشمس حتى ذبلت.

وبعد ذلك يتحدث ثعلبة عن السيف فهو ناصع البياض، قطاع في ضربه، حتى أنه ليبلغ الجوف.

والسيف أهم أسلحة الجاهليين، وذكرت الأخبار أنه صنع في أماكن مختلفة أشهرها اليمن والهند وقد أكد الشعراء ذلك، قال المزرد^(١):

وأملس هندي متى يعمل حده

ذرى البيض لا تسلم عليه الكواهل

ويذكر عنتره السيف اليماني إلى جانب الرماح الخطية إذ يقول^(٣):

بأسمر من رماح الخط لدن

وأبيض صارم ذكر يمان

ويبدو أن مشارف قرية باليمن كانت تصنع السيوف وفي «العمدة»^(٢) و«ليس قول من

(١) المفضل الضبي: المفضليات ٩٩.

(٢) ديوان عنتره: ١٧٩.

(٣) ابن رشيق: العمدة ١٧٩/٢.

(٤) المفضل الضبي: المفضليات ٣١٩.

(٥) انظر: ديوان عبد القيس.

قال إنها منسوبة إلى مشارف الشام أو مشارف الريف بشيء عند العلماء»، يقول عنتره^(٤):

نجيد الطعن بالسمر العوالي

ونضرب بالسيوف المشرفية

وقد برع شعراء العبيدين والجاهليين في وصف السيوف، والفخار بها، فقد ورد في أشعارهم «وذا غرب أخذ ضروساً»، و«مهند منه الردى يخر»، و«بيض كأمثال البروق بواتر» و«هجمت بحد سيفي»^(٥)، وإذا كانت عبدالقيس قد قامت بصناعة الرماح والدروع فلا نستغرب صناعة السيوف على أرضها كذلك.

والى جانب أسلحة الحرب وأدوات القتال يرد ذكر الخيول أهم وسيلة لحمل فرسان العبيدين وسط المعركة، فقد ذكر ثعلبة أن فرسه صحيحة الجسم، سليمة الأعضاء، فلم يلحقها ضرر، ولا افتترستها الأمراض، ولذا فهي سريعة العدو، وعليها يلبي نداءات قومه، واستغاثاتهم عند النفير.

والاهتمام بالخيول الأصيلة شيمة عربية، وميزة عبديّة، فقد حرصوا على أن تكون خيولهم أصيلة، سريعة، قوية، فاعتنوا بها عناية فائقة وقدموا لها الغذاء الجيد، وأعدوها إعداداً سليماً للقاء الأعداء، وهم على حق في حرصهم على الخيل، وفي إعزازهم لها، يقول يزيد بن الخذاق عن فرسه سبحة^(١):

أعددت سبحة بعدما قرحت

ولبست شكة حازم جلد

وهذا الإعداد تناول فرساً آخر له تسمى «الشموس»^(٢):

ألا هل أتاها أن شكة حازم

لدي وأني قد صنعت الشموسا

والإعداد وصناعة الخيول تتناول المداواة والعلاج^(٣):

(١) المفضليات ٢٩٥.

(٢) نفس المصدر ٢٩٧.

(٣) نفس المصدر ٢٩٧.

(٤) نفس المصدر ٢٥٣.

(٥) نفس المصدر.

وداويتها حتى شئت حبشية كأن عليها سندساً وسديساً

فالدواء هو تضمير الخيول، لتصبح أكثر سرعة ومرونة في القتال، فكانت فرس يزيد تتناول غذاء جيداً من العشب الأخضر، وأصبحت مثل تيس الربل الذي يبدو أنشط من غيره لما اتصل له من المرعى الجيد، والشموس تعدو على قوائم خفيفة نتيجة هذا الغذاء الجيد.

ويقول ثعلبة في موطن آخر ذاكراً الدواء^(٤):

وأهلك مهر أبك الدواء
ليس له من طعام نصيب

ويقول أيضاً في فرسه عجلي^(٥):

فأعددت عجلي لحسن الدواء
لم يتلمس حشاها طبيب

وأراد ثعلبة أن ترك التضمير هو الذي أهلك المهر وأن الإعداد والرعاية الحسنة والعلف الجيد هي التي جعلت فرسه عجلي سليمة نقية لا عيب فيها ولا تحتاج إلى طبيب أو علاج.

وكانت الخيل تستخدم في الحرب فتدوس الأعداء وقد أشار المفضل لذلك فقال^(١):

ودسناهم بالخيل من كل جانب
كما جرد الجارود بكر بن وائل

وكانت خيول العبيدين كثيرة وأشهرها سبحة والشموس، فرسا يزيد بن الخدّاق، وعجلي وشوهاء من خيول ثعلبة بن عمرو، والهرواة وهي فرس مشهورة للريان بن حويص وفيها قال عمرو المحاربي^(٢):

(١) ابن دريد: جمهرة اللغة ٦٤/١ .

(٢) ابن الكلبي: أنساب الخيل ٩٠ .

(٣) ابن الكلبي: أنساب الخيل ٨٩ .

(٤) ابن الأعرابي: الخيل ٨٤، الجاحظ: الحيوان ٢٧٥/١ .

فيا من رأى مثل الهراوة منكحاً
إذا بل أعطاف الجياد جروح
وفرس أبي عفراء المحاربي العنز^(٣):
دلفت لهم بصدر العنز لما
تحامتها الفوارس والرجال
وفرس ابن سنان المحاربي قدام قال فيها^(٤):
وعلى قدام حملت شكة حازم
في الروع ليس فؤاده بمثقل

واشتهر بنو عامر بن الحارث من عبد القيس بكثرة خيولهم، وكذلك بنو محارب، وكان هذا سبباً في أن القبائل كانت تهابهم وتخشاهم، ومن جانب آخر ومن شعر الخيول، ندرك أن العبيدين كانوا فرسان الحروب وأن أسلحتهم كانت هجومية تلائم فروسياتهم في هذا الميدان.

إن ما ذكره ثعلبة من الأسلحة ، وأدوات الحرب من درع ورمح وقوس وسيف، إلى جانب الخيل، كل ذلك يشكل عتاد المقاتل العبدى، بل في الحقيقة هو عتاد المحارب العربي بشكل عام إذ بهذا السلاح كان الفارس يرتاد أماكن القتال، ويشهد مواطن اللقاء^(١):

به أشهد الحرب العوان إذا بدت
نواجذها واحمر منها الطوائف

ومن البدهي أن يتحدث العبيدون عن أسلحتهم حديث المفتون بها^(٢) لأنها القوة التي

(١) المفضل الضبي: المفضليات ٢٨١ .

(٢) الدكتور يوسف خليف: الشعراء الصعاليك ص ٢٠٠ .

(٣) الدكتور جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٤٠٣/٥ .

(٤) القناوي: الوصف في الشعر الجاهلي ٢٧٤ .

(٥) الأصمعي: الأصمعيات ١٩٩ .

يعتمدون عليها، والأسلحة التي وصفوها قسمان: أسلحة الهجوم، كالرمح والقوس
والسيف، وأسلحة الدفاع كالدرع والترس، فالعبيدون أجادوا وصف أسلحة الهجوم
وأكثرها من ذكرها.

ويمكننا أن نشير إلى ناحية هامة، وذلك أن رؤساء عبدالقيس اهتموا اهتماماً زائداً
بجمع الأسلحة وخبزنها، لاستخدامها وقت الحاجة فقد درج بعض السادة في الجاهلية
على شراء السلاح، وخبزه، وتوزيعه على أفراد القبيلة عند الغزو وفي المعارك والحروب^(٣)،
وكان هذا شأن ثعلبة فهو فارس شاعر، زعيم في قومه^(٤)، وإلى جانب تلك الأسلحة
استخدموا النبال والسهام، فقال المفضل^(٥):

كأن النبل بينهم جراد

تكفيه شامية خريق

واستخدموا شكة السلاح التي يبدو أنها كانت مجموعة من عتاد الفارس المحارب:

أعددت سبحة بعدما فرجت

ولبست شكة حازم جلد^(١)

ألا هل أتاها أن شكة حازم

لدي وأني قد صنعت الشموسا^(٢)

وعلى قدام حملت شكة حازم

في الروع ليس فؤاده بمثقل^(٣)

وفي نهاية المطاف مع شعر الحرب والقتال، نصل إلى مجموعة من المزايا والنتائج

(١) المفضل الضبي: المفضليات ٢٩٥ .

(٢) نفس المصدر ٢٩٧ .

(٣) الجاحظ: الحيوان ٢٧٥/١ .

تتمثل في عنف الثورة وصلابة التمرد والتحدي للملوك المناذرة وسلطان الحيرة، وقد مثل هذه الثورة بكل أبعادها وأعماقها الشاعران يزيد بن الخدّاق وأخوه سويد.

ونجد عند العبيدين شجاعة وبأساً وإقداماً، لا يفرون، ولا يستسلمون، يجيدون الطعن ويحسنون أساليب القتال، وعندهم إصرار على أخذ الثأر والنيل من القتل، وهذا الإصرار مطلب هام في المجتمعات الجاهلية، ويمثل كل هذه المزايا عندهم شعر اللقاءات الحربية الفردية والقبلية.

واهتم العبيدون بذكر أدوات القتال، والأسلحة إلى جانب العناية بالخيول المقاتلة، وتربيتها تربية ممتازة، والخيول والأسلحة الأخرى عتاد الفارس العبدى، وأهم هذا العتاد عندهم الرماح من أسلحة الهجوم والفروسية، واهتمامهم بالرماح والخيول دليل أكيد على أن المحارب العبدى كان فارساً مهاجماً في مواطن اللقاء، والأيام الحربية.

ولابد لنا بالإضافة إلى كل ما ذكرنا، أن نشيد بمزية الإنصاف والعدل في منصفاتهم الشعرية التي سجلت بطولات الأعداء، ومواقفهم الحربية وقدراتهم القتالية.

شعر السلام والإصلاح:

عرفنا فرسان المدرسة الحربية في عبد القيس، وقتالهم في مختلف النواحي وشتى الاتجاهات، ونأتي إلى شعراء السلام والإصلاح، فالحرب يعقبها سلام ووئام، ويتبعها إصلاح واستقرار ولا بد بعدها من تعقل واتزان، ولذا كان الأمر يتطلب وجود مدرسة سلمية - إذا جاز التعبير - يكون شعراؤها متعقلين لا متهورين، ومصلحين لا ثائرين، يمشون إلى جمع الشمل ويسعون إلى رأب الصدع، وإصلاح ذات البين، ويعملون على إنهاء الخصام والعداء.

وإذا ما مضينا نتلمس وجود مثل هذه المدرسة السلمية، فإننا نذهب مباشرة إلى

(١) ديوان المنقّب العبدى ص ٢٠٨ .

(٢) ديوان المنقّب ص ١٠٢، ١٠٣ .

الشعر، نستأذنه ونبحث فيه، ونأخذ منه، ما يوصلنا إلى شعرائها.

في قصيدة المثقب النونية يخاطب الشاعر الملك عمرو بن هند^(١):

إلى عمرو ومن عمرو أتتني

أخي النجدات والحلم الرصين

ينعت المثقب ممدوحه بالنجدة والحلم، وسعة الصدر، لكنه بعد ذلك يعاتبه عتاباً حول أمر يريد فيه رأى الملك صريحاً واضحاً، إذ إنه في مثل هذه الأمور لا يقبل مساومة ولا مهادنة، فإما صداقة ومودة أو جفاء وعداوة.

فما هو هذا الأمر الذي تحدث عنه الشاعر؟ ولماذا يريد من الملك فصلاً في القول، وحزماً في الرأي، وصراحة في الموقف؟.

وقبل أن نجيب نمضي إلى قصيدة أخرى يقول فيها المثقب^(٢):

فإن أبا قابوس عندي بلاؤه

جزاء بنعمى لا يحل كنودها

وجدت زناد الصالحين يمينه

قديماً كما بذ النجوم سعودها

فالشاعر يمدح أبا قابوس وهو النعمان بن المنذر ابن أخي عمرو بن هند، ويتحدث عن نعمة جزيلة أسديت إليه فلا ينكرها، وإنما هو يمدح ويشكر، والنعمان عنده من شجرة نسب أصيلة، ودوحة كريمة، فاق سائر الملوك.

وإذا ما ذهبنا نتلمس أسباب المدح وأسرار الثناء نجد أمراً هاماً دفع بالمثقب إلى هذا المدح وهو يفصح عنه في الأبيات التالية:^(٣)

(١) نفس المصدر ص ١٠٥ .

(٢) انظر: فصل الحرب.

(٣) ديوان المثقب: ١٠٤ .

فإن تك منا في عمان قبيلة
تواصت بأجناب وطال عنودها
فقد أدركتها المدركات فأصبحت
إلى خير من تحت السماء وفودها

ويكشف المثقب النقاب عن سبب المدح، ذلك أن قبيلة من عبد القيس وربما كانت في
نكرة ثارت على سلطان المناذرة، وتمردت عليهم، واستمر ذلك زمناً، وقد عرفنا أن
النعمان أرسل كتيبة الجأء أو دوسر فأخضعت البطون المتمردة، وأسرت قسماً من
العبدية^(٢) ولذا جاءت وفودها إلى النعمان خير من تحت السماء، ويمضي الشاعر في
مدح النعمان قائلاً^(٣):

إلى ملك بذّ الملوك بسعيه
أفاعيله حزم الملوك وجودها

فالنعمان فاق الملوك في نسبه الكريم، وحزمه الشديد، وجوده الكبير ورأيه السديد،
وقد بالغ في المدح عندما جعله في الأبيات السالفة من دوحة أصيلة، وأنه خير من تحت
السماء لكن هذا مقبول الآن في معرض الأمر الذي يريده المثقب ويسعى إليه، وبعد أن
التمس المثقب العذر للقبيلة الثائرة، وبعد المدح والثناء الذي ساقه للنعمان بدت الطريق
ممهدة أمام مطالب الشاعر، والتي هي مطالب عبد القيس فأقدم وقال^(١):

فأنعم أبيت اللعن أنك أصبحت
لديك لكيز كهله ووليدها
وأطلقهم تمشي النساء خلالهم
مفككة وسط الرجال قيودها

الآن يطلب الشاعر من النعمان إطلاق سراح الأسرى والعفو عنهم لتفرح النساء

(١) ديوان المثقب العبدية ص ١٦٦ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٢١ .

(٣) نفس المصدر ص ٢١٧ .

ويبتهج العبيدون.

والذي نفهمه أن المثقب قام مع وفد من عبدالقيس، فزار النعمان بن المنذر وطلب إليه باسم الوفد إطلاق سراح الأسرى، وكان الوفد العبدى يتألف من الشيوخ والشباب، ومن النساء والصغار، فقد اشترك فيه الكهل والوليد، وكان كثير العدد حتى بدا وكأنه وفود لا وفد واحد، وقد نقلت إلينا الأخبار أنه قد اشترك في الإصلاح والوساطة أيضاً رجال مشهورون من عبدالقيس أمثال خالد بن أنمار بن الحارث أحد بني أنمار بن عمرو بن وديعة بن لكيز بن عبدالقيس^(٢) وأيضاً أسيد بن عمرو^(٣) ويبدو أنهما كانا من المقربين من النعمان.

وقد نجح الوفد، وأثمرت الوساطة، فأطلق سراح الأسرى وكان من بينهم ابن أخت المثقب، الشاعر شأس بن نهار، وقد ابتهج الوفد، وفرحت النساء، ولهج لسان الشاعر بالثناء والشكر.

ونتوقف الآن لنرى موقف المثقب من الملكين ابن هند والنعمان، فموقف الشاعر من ابن هند فيه قسوة العتاب، وعناد الموقف، بينما اختلف الأمر مع أبي قابوس، فكان الهدوء والاتزان والشكر والمدح، والذي أراه أن عمرو بن هند لم يكن واضحاً وصريحاً في مواقفه مع عبدالقيس، وإنما كان يعتدي ويجور ويسفك الدماء، ويسيء إلى القبائل، ويوقع رجالها، أما النعمان فإنه رغم ثورة العبيدين، وإيذاء شعرائهم له، فقد من على أسرى القبيلة بالعفو وأطلق سراحهم^(١).

من استعراضنا لعلاقات المناذرة مع عبدالقيس، نجد أن المثقب شخصية هامة وكبيرة في عبدالقيس، وفي مدرسة السلام والإصلاح بالذات، لم لا وهو الذي يدافع عن القبيلة ويحفظ عليها كرامتها وكيانها، فقد كان يقوم بدور السفير بينهما وبين حكام المنطقة

(١) ديوان المثقب العبدى ص ٢١٧ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٥٣ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٥٣ .

من المناذرة، وبينها وبين أعدائها، لقد ارتفع فوق الجراح، رغم أن ضربة النعمان كانت قاسية، وأن مصاب العبيدين كان أليماً، لكنه كظم غيظه، ونظر بعين بصيرة، فلم يثر ثورة يزيد وسويد الشاعرين الشنئين، ولم يهاجم الملوك مهاجمة عنيفة عنيفة، وإنما راح يداوي الجراح، ويرأب الصدع ويتخذ من الصبر ومكارم الأخلاق سبيلاً يدفع عن قبيلته استمرار السوء والأذى فهو يقول^(٢):

فإن تك أموالُ أُصِيبَتْ وحُولت
ديار فقد كنا بدار نُقيمها
نعد لأيام الحفاظ مكارماً
فعالاً وأعراضاً صحيحاً أديمها

فلئن أصاب العبيدين هذا الخطب الجلل فإنهم كانوا يحمون ديارهم ويردون غارات أعدائهم^(٣):

ونحمي عن الثغر المخوف ويتقى
بغارتنا كيد العدى وضيومها

والذي أصاب العبيدين فوق استطاعتهم، والمناذرة أصابوا كثيرين غيرهم، فأى قوم لم يستبح حماهم، ولم توجع الغارات قباثلهم؟
وأي أناس لا يبيع بقتله
يوازي كبيدات السماء عمودها

لقد كان المثقب رجل حكمة وإصلاح، وشاعر هدوء وسلام، وأهله لذلك خلقه الكريم، وصفاته الحميدة، وكذلك نسبه في أسرته التي اشتهرت بالإصلاح والتحكيم، ولهذا عدناه في أول قائمة مدرسة السلام والإصلاح من عبد القيس.

ولقد عرفت الجاهلية السفارة، وما يسمى بالوساطة للإصلاح، فالحرب عندما تشتعل، تزهد الأرواح، ويحدث دمار وخراب، ولذا تستيقظ في النفوس نوازع الخير

(١) ابن الأنباري: شرح المعلقات السبع الطوال ص ٢٨٤، وديوان زهير ٩١.

(٢) الأصمعي: الأصمعيات ١٦٤.

والسلام، وتنزع إلى السلم والإصلاح، وقد عرفنا من سفارة الجاهلية هرم بن سنان،
والحارث بن عوف اللذين أصلحا بين عبس وذبيان وتحملا ديات القتلى، وسجل ذلك
الشاعر زهير بن أبي سلمى في ميميته الشهيرة^(١).

ولا يفوتني أن أسجل أن المثقب لم يكن شاعراً مداحاً يتكسب بشعره وإنما استخدم
المدح كما استخدمه زهير في الإشادة بالأفعال الحميدة، والخلال الكريمة، ومناحي الخير
التي تعود على القبيلة بالنفع الجزيل، ومن هذا المنطلق كان رأينا أن يكون المثقب الشاعر
الأول في مدرسة السلام التي أشرنا إليها.

ومع المثقب في قائمة مدرسة السلام والإصلاح، كان الممزق العبدي الذي راح يمدح
المناذرة من أجل العفو عنه، وعن أسرى قبيلته، يقول الممزق^(٢):

تروح وتغدو ما يحل وضيئها
إليك ابن ماء المزن وابن محرق
علوتم ملوك الناس في المجد والتقى
وغرب ندى من عروة العز يستقي
وأنت عمود الدين مهما تقل نقل
ومهما تضع من باطل لا يلحق
وإن يجنبوا تشجع، وإن يخلوا تجد
وإن يخرقوا بالأمر تفضل وتفرق

في هذه الأبيات مدح الممزق ملكاً من ملوك المناذرة، فلم يذكر لنا اسمه، لكنه قال عنه
إنه ابن ماء المزن، وابن محرق، وإن هذا الممدوح ملك تقي، وصاحب منزلة رفيعة، ومجد

(١) الدكتور جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٣/٣٠٧ .

(٢) تاريخ اليعقوبي: ١/١٦٩ .

(٣) الأصمعيات: ص ١٦٤ .

(٤) نفس المصدر ص ١٦٥ .

أثيل، وعزة قعساء، وهو شجاع مقدام إذا جبن الآخرون، وجواد معطاء إن تخلف البخلاء وعادل حازم في أمور كثيرة، يفصل بين الحق والباطل.

فمن هو ممدوح الشاعر هذا؟ ولماذا قام الممزق يمدح ابن ماء المزن وابن محرق؟ والأخبار^(١) تشير إلى أن ابن ماء المزن هو المنذر الأكبر بن امرئ القيس ملك المناذرة، وأنه والد الملك عمرو بن هند وحكم هذا المناذرة تسعة وأربعين عاماً، أما ابن محرق فهو الحارث ابن عمرو بن عدي وحكم مدة طويلة قبل المنذر^(٢) وفي الأصمعيات^(٣) «أن عمرو بن هند هم بغزو عبد القيس فقال الممزق هذه القصيدة فانصرف عن حرب العبديين».

فهل عني الشاعر بابن ماء المزن وابن محرق الملك عمرو بن هند؟ أم أن هذا الممدوح من نسل المناذرة؟ وإذا لم يكن عمرو بن هند فمن يكون إذن وفي بقية أبيات الأصمعية يقول الممزق^(٤):

أحَقَّأَبَيْتُاللَّعْنَأَنْابْنَفَرْتَنَا
عَلَىغَيْرِإِجْرَامِبَرِيقِيْمُشْرِقِي
فَإِنْكَنْتُمَأْكُولًافَكُنْخَيْرَآكَلٍ
وإِلَّا فَادْرِكْنِيوَلِمَاأَمْرَقٍ

ومرة أخرى ترك الممزق اسم ممدوحه مجهولاً واستخدم التحية التي كانت تستعمل للملوك المناذرة، وهي أبيت اللعن، ونساءل هل «أبيت اللعن» قيلت لعمرو بن هند كما ذكرت «الأصمعيات»؟

وقبل أن نقرر أن ممدوح الممزق كان عمرو بن هند أو غيره نمضي مع بقية أبيات الأصمعية^(١):

أَكَلَفْتَنِيأُدْوَاءَقَوْمِتَرْكَتْهُمْ
وإِلَّا تَدَارِكْنِي مِنَالْبَحْرِأَغْرَقِ

(١) المصدر السابق.

فإن يتهموا أنجد خلافاً عليهم
وإن يعمنوا مستحقبي الحرب أعرق
فلا أنا مولاهم ولا في صحيفة
كفلت عليهم والكفالة تعتقي
وظنني به أن لا يكدر نعمة
ولا يقلب الأعداء منه بمعقب

في هذه الأبيات يشير الممزق إلى قوم يبدو أنهم أذنبوا مع الممدوح وأن الممزق قد اشترك معهم في هذا الذنب فهو يتنصل منه ويبرأ من أعمال أولئك القوم، ويلتمس من ممدوحه أن لا يأخذه بافعالهم.

والممزق يؤكد أنه لم يفعل فعلتهم، وأنه سيخالفهم لا محالة، فإذا وردوا تهامة، فإنه سيأتي نجداً، وإذا ذهبوا إلى عمان، فسيمضي إلى العراق، ومعنى ذلك أنه يؤكد للممدوح عدم اشتراكه معهم ويتنصل من السير وراءهم، ويؤكد لنا أن أولئك القوم أرادوا محاربة الممدوح لكنه ينفي صلته بهم، وارتباطه معهم بعقد مكتوب، أو صحيفة مدونة تدينه، وتثبت اشتراكه، بل هو لم يتكفل بالعمل معهم، ويجأ بالشكوى أمام ممدوحه قائلاً لست مرتبطاً معهم بأية كفالة، ولا بد لنا من أن نقرر أن الممزق كان في حل من كل ما يربطه بأولئك القوم الذين أذنبوا مع الممدوح، والآن من هؤلاء القوم الذين ثاروا وأذنبوا؟ وقد أشرنا فيما مضى إلى أن قوماً من النكريين ثاروا في عمان على النعمان بن المنذر وأن الممزق كان أسيراً من الأسرى^(١)، وهنا يبدو الأمر جلياً واضحاً في أمر هؤلاء القوم، فهم إذن من عبدالقيس والشاعر بالتأكيد كان يشرح للنعمان موقفه من أولئك الثائرين، ولقد اتضح أمامنا الآن أن ممدوح الممزق ليس عمرو بن هند وإنما هو النعمان بن المنذر ويؤكد هذا الزعم عندنا أن

(١) انظر: شعر الحرب والقتال.

(٢) البصري: الحماسة البصرية ١٢٦/١ .

(٣) ابن منظور: لسان العرب ٣٤٣/١٠ .

(٤) المفضل الضبي: المفضليات ٣٠١ .

(٥) دائرة المعارف الإسلامية، مجلد ١ - ص ٧٣.

صاحب «الحماسة البصرية»^(٢) قال: «قال شأس بن نهار هذه القصيدة يمدح النعمان بن المنذر الأكبر وكان همّ بغزو عبدالقيس».

فالبصري يذكر أن القصيدة قيلت في مدح النعمان بن المنذر ويؤكد هذا ابن منظور^(٣) الذي يقول في معرض الحديث عن بيت الممزق التالي:

فإن كنت مأكولاً فكُن خير أكل
وإلا فأدركني ولما أمزق

إن النعمان قال عندما سمع البيت «لا أكلك ولا أدع غير يأكلك» وزيادة في التأكيد يذكر الممزق في قصيدة أخرى له أن الكتيبة الجأء هي التي سارت لتأديب الثائرين.^(٤)

وقد أشرنا سابقاً إلى أن الجأء هي كتيبة النعمان التي أغارت على عبدالقيس، وحتى لا يبقى لدينا مجال للشك في أن الشاعر خاطب في أصمعيته الملك النعمان بن المنذر لا عمرو بن هند فإن «دائرة المعارف الإسلامية»^(٥) أكدت لنا أن الذي غزا عبدالقيس وأخذ أسراها هو النعمان بن المنذر.

ومن كل هذا نفهم أن الممزق العبدى مدح النعمان بن المنذر وهو الذي عناه بآبن ماء السماء، وابن محرق، إذ إن النعمان من نسل هؤلاء الملوك المشهورين، وإن تحية «أبيت اللعن» استخدمت للنعمان بن المنذر أكثر ما يكون وبذلك يثبت أن قول «الأصمعيات» بأن القصيدة كانت موجهة إلى عمرو بن هند ليس صحيحاً.

لقد سار الممزق على ذات الطريق التي سار عليها المثقب، فاتباع مع النعمان أسلوب اللين والهدوء، فلم يصخب صخب الثائرين، ولم يجاهر بالهجاء مجاهرتهم، وإنما أراد أن يبين له عدم اشتراكه مع القبيلة الثائرة، ولسان حاله يقول للنعمان لا تؤاخذني يفعل أناس ابتعدت عنهم، ولا تربطني بهم أية صلة أو علاقة ويستغيث بالنعمان أن يدركه قبل أن يتمزق ويغرق^(١):

أكلفتني أدواء قوم تركتهم
وإلا تداركني من البحر أغرق

(١) الأصمعيات: ١٦٤.

إنها صرخات متألم متوجع، يطلب إطلاق سراحه، وإنقاذه قبل أن يهلك ويناله الموت، ويبتلعه الردى، فهو أيضاً كالمثقب يطوي نفسه على جراحه، ويؤثر السلامة على الثورة، والسلام على العداوة لم لا والممزق من ذات القبيلة ومن نفس الأسرة التي أخذت على نفسها الإصلاح والدعوة إليه.

والاثنان المثقب وابن أخته الممزق تماسكا على الخطب، وأمسكا عن صيحات الوجع والألم، وراحا يشهدان للنعمان بن المنذر، بأنه واسع الجود قوي البأس، شديد البطش، والتمسا منه العفو والصفح.

ولئن قام المثقب بالسفارة بين قومه والمناذرة فإن الممزق كان أسيراً ولم يستطع أن يفعل مثل ذلك.

ومدرسة السلم والإصلاح، مدرسة متعلقة متزنة تؤثر الوداعة والمسالمة على الثورة والتمرد وقد أدرك شعراء السلم أنهم كانوا ينظرون إلى واقع حياتهم ومجتمعهم من زاوية أخرى مختلفة عن الآخرين، ولعلمهم أدركوا قبل غيرهم مدى قوة وصلابة المناذرة وشدة سلطانهم فلا فائدة ولا جدوى من مجابهة الحيرة.

وقد أعطى شعر السلم ثماراً طيبة فقد لاحظنا كيف أطلق سراح الممزق عندما سمع النعمان قصيدته وعندما سمع شعر المثقب، وإن شعر المدح هو «الصحيفة الرسمية» التي كان يصدرها شعراء هذه المدرسة وإنه «اللغة الوحيدة» التي كانت تلقى قبولاً واستحساناً عند سائر ملوك المناذرة.

نظرات في الموت والحياة:

ليس محض صدفة أن يأتي البحري في حماسته، على ذكر طائفة كبيرة من شعراء عبد القيس، في شعر يتحدث عن الموت ونظرة العبيدين إليه، وهو أمر يعكس نظرة الجاهليين فيه، وآراءهم حوله، (وفلسفتهم) تجاهه، والذي لاشك فيه أن الشعر الجاهلي

(١) محمد النويهج: الشعر الجاهلي ص ٣٩٩.

(٢) البحري: الحماسة ٢٢٨.

(٣) البحري: الحماسة ص ١٠٠.

حفل بأبيات حزينة تكمن فيها مظاهر الطيرة، وتنبعث منها رائحة التشاؤم، فالدهر عندهم سريع التغيير، متقلب الأحوال، والحياة قاسية عسيرة، وسط طبيعة صحراوية جافة، حيث المطر الشحيح، والمرعي القليل في بعض المناطق والمناخات، ولذا قامت نظرة الجاهلي على العلم بيقين الموت والفناء، واعتقد أن وجوده محصور في عالمه المحدود، وأحس إحساساً مخيفاً بالموت وحتم وقوعه^(١)، فخطره ماثل في كل أيامهم وأحداثهم يقول الشاعر توبة بن المضرس^(٢):

رأت إخوتي بعد ائتلاف تفرقوا
فلم يبق إلا واحداً منهم فرد
تقسمهم ريب المنون كأنما
على الدهر فيهم أن يفرقهم عهد

فالدهر يفرق بين الأخوة، والمنون تأتي عليهم، فتبدل الائتلاف فراقاً والتلاقي بعداً، وتوبة متفجع متحسر يصحو على حقيقة مرعبة، ويطل على واقع مخيف، وجذل بن أشمط يقول^(٣):

لا ينفع الهارب الفرار من
الموت إذا ما تقارب الأجل
تعدو المنايا على أسامة
في الخيس عليه الطرفاء والأسل

كيف ينجو الإنسان من قبضة الموت؟ وأين منه المفر؟ فهو يسرع إليه وهو مدجج بالسلاح، فارس مغوار، إذ لا يكثر الموت بكل هذا.

وفي أبيات أخرى لجذل بن أشمط عن الدهر^(١):

(١) أبو تمام: الوحشيات ١٦٢.

(٢) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٣٣٥/١.

(٣) البحري: الحماسة ص ١٠٠.

وسما فأدرك أسعد الخيرات قد جمع العتادا
فاحتطه والدهر يعقب بعد صالحة فسادا

أم كثيرة طواها الردى، والتهمها الموت فبادت وانتهت، إرم وعاد وإياد وهي
قبائل قديمة عاشت على أرض البحرين^(٢)، والدهر يغير ويبدل، فبعد أن رفلت تلك
الأمم في النعيم، وعاشت حلاوة الأيام وبعد الفلاح والخيرات جاء الموت فأفسد كل
صالح وأزال جل نعيم وليست الأمم هي التي أدركها الفناء وإنما ساداتها داؤد
وأسعد الخيرات وغيرهما.

وشاعر من عبد القيس يقول^(٣):

ألم تر أن الدهر يوم وليلة
وأن الفتى يسعى بحبليه عانيا
يروح ويغدو والمنية قصده
ولا بد يوماً أن يلاقي الدواهيا

إنها حتمية الموت والفناء، فالدهر قصير الأيام، غرير الأحداث، فمهما امتدت سنواته
لا يعدو أن يكون يوماً أطل بنهار مشمس، وليله تلت قمراء أو ظلماء، والإنسان آناء الليل،
وأطراف النهار يذهب ويأتي، يدأب ويجد، يروح ويغدو، ولكن خطر الموت ماثل أمام عينيه،
والمنية تترصده، وترقبه فلا بد من لقاء الموت ومواجهته.

ولم يكن للجاهليين عقيدة تسمو بهم إلى حياة أخرى بعد الموت، فكان طابع الحزن
والتشاؤم يواجههم، ويتبع سيرهم، ويطارد تفكيرهم^(١) والداهية عندهم الموت، فلا بد يوماً
أن يلاقي الإنسان هذه الداهية وإزاء هذا المعتقد المرعب نجد الناس ضروباً وأصنافاً،

(١) محمد النويهي: الشعر الجاهلي ٤٠٢.

(٢) البحري: الحماسة ٢٢٨.

(٣) البحري: الحماسة ٢٠٥.

فشاعر يقول^(٢):

لا النائبات لهذا الدهر تقطني
والصبر مني على ما نابني خلق
إن الكريم صبور كيفما انصرفت
به الصروف إذا ما أفلق الفرق

فالصبر خلق الكرام عند الملمات والشدائد، والكريم لا يستكين لنائبات الزمان ولا تهزمه النوازل، فهو يتسلح بالصبر ويواجه الأمر، ولذا كان على الجاهليين أن يصبروا أمام هول الموت وفجعة الأهل ونزول الكارثة.

والشاعر مسعود بن سلامة يرى أن لا فائدة من اللوم والعتاب^(٣):

أقلى علي اللوم إني صائر
إلى جدث تسفي عليه الأعاصر
ألم تعلمي أن قد ترحل إخوتي
جميعاً وإخواني الذين أعاشر
إذا سار من خلف الفتى وأمامه
وأوحش من حدائه فهو سائر

إنها صورة أخرى تتابع مع بقية الصور في «فلسفة» الموت وحياة العبيدين، إنه المرء يرقب إخوانه وأقرانه وعندما يجد الجميع قد ساروا وخلفوه، عندها يتأكد أنه وراءهم سيمضي، وبعدهم يقضي نحبه، وتأتي حياة القبر تعصف به الأعاصير، وتذروه الرياح، ونجد في هذه الأبيات ذكراً للقبر وللحداث والمسامرين.

(١) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٣٨٦/١ .

(٢) نفس المصدر.

(٣) البحتري: الحماسة ٩٤ .

وصورة القبر تتردد عند يزيد بن الخذاق الذي رثى نفسه قبل غيره^(١):
وأرسلوا فتية من خيرهم نسباً
ليسندوا في ضريح الترب أطباقي

يسرع الناس عند الموت، فيرسلون أكرم الفتیان، ليريحوا جسد الإنسان في تراب
الضريح ويهيلوا على أطباقه التراب، فالقبر إلى جانب الموت أمر ماثل وقائم، يواجهه الفتى
الجاهلي والرجل العبدی.

ويمضي المرء مخلفاً أمواله للوارثین، وتاركاً أولاده وكل ماله في الحياة^(٢):
هوّن عليك ولا تولع بإشفاق
فإنما مالنا للوارث الباقي

وهذا أسامة بن ربيعة الشاعر العبدی يقول^(٣):
الدهر يومان، ليل لا خفاء به
وذو حجبٍ ولأقربانه جدد
لا يبليان ويبلى ما سوءاهما
من قبلنا أفنيا الأموال والولدا

إنه الدهر كما ذكرنا، ليل ونهار، وإنها الحياة يوم وليلة، فالليل لا يخفي ظاهر بائن،
والنهار لا يغطي، يتجدد ويمضي وراء الليل، يحمل المسرة والضياء فلا يتطرق الفناء
والبلى للنهار أو الليل، لكن ذلك يصيب غيرهما، ففناء الأموال والأولاد ظاهر بائن، وأدلة
كثيرة وبراهين عديدة للإنسان الجاهلي، إنها حقيقة مفزعة أن يبلى الإنسان وينتهي.

والموت عندهم يفرق بين الزوج وزوجته، وهو منقذ وحلال لمشاكل عديدة فأم النحيف
الشاعرة تقول في شأن زوجة ولدها سعد^(١):

تربص بها الأيام علّ صروفها

(١) أبو تمام: الحماسة ٥٥٩ .

(٢) البحتري: الحماسة ٩٧.

سترمي بها في جاحم متسعر
فكم من كريم قد مناه إلهه
بمذمومة الأخلاق واسعة الحر
فطاولها حتى أتها منية
فصارت سفاة جثوة بين أقبر

فهي تريده أن ينتظر صروف الأيام، لترمي بزوجته في قبر مظلم، وتطلب إليه أن
يصبر عليها حتى تأتيها المنية، فتطحنها رماداً بالياً بين جدران القبر.

وكان الجاهليون يستعينون بالكهنة، ويستخدمون التمايم والتعاويد من أجل الحياة،
وإبعاد شبح الموت، وطرد الأذى عنهم، ولكن ذلك لا يفيد ولا ينفع أمام سلطان الموت،
فالممزق العبد يقول^(٢):

ولو كان عندي حازيان وكاهن
وعلق أنجاساً على المنجس
إذا لأتني حيث كنت منيتي
يخب بها هاد إلى معفرس

الموت يخترق البيوت، ويتخطى الحواجز، وينفذ وسط الجموع والرجال، لا يأبه للعدد
والعصبيات، ولا يحفل بالجموع الغفيرة المحيطة بالإنسان، لا يخشاها ولا يخافها وكيف
ذلك؟ وتلك الجموع تفرع منه، وتقف دونما حركة أمام سطوته وعنفوانه، فمهما بذل الكهان
وصنع المنحسون، وربطت التعاويد والتمايم في مناطق جسمه وأعضائه، فإن المنية تتصدى
لكل ذلك وتخطف فريستها وتمضي.

فإذا حضر الموت فلا كهان، ولا منحسون، ولا عدد ولا حسب، وإنما يمضي المرء

(١) المفضل الضبي: المفضليات ٢٨١.

(٢) ياقوت: معجم البلدان ٣٠١/٦.

(٣) محمد النويهي: الشعر الجاهلي ٤٠٣.

إلى مصيره المحتوم، وهذه الصورة نادى بها وأكدها أكثر من شاعر فتعلبة بن عمرو يقول في مفضليته^(١):

ولو كنت في غمدان يحرس بابه
أراجيل أحبوش وأسود ألف
إذاً لأتتني حيث كنت منيتي
يخب بها هاد لاثري قائف
أمن حذر آتي المهالك سادراً
وأية أرض ليس فيها متالف

يؤكد تعلبة أن الانسان وإن حصن نفسه، وقبع داخل قصره، فالموت يصل إليه، ولو كان في حصن غمدان^(٢) الذي يحرسه الجند من الأحباش، فالموت يشق طريقه إليه، غير مبال بعظمة القصر، ورهبة الحرس، وقوة السكان، ثم يتساءل الشاعر أين هي الأرض التي لا موت فيها؟ وأين المكان الذي لا يجد فيه المرء تلفاً وانتهاءً؟

فحتمية الموت، ومصير الزوال، ومهالك الأيام حقائق قائمة وثابتة، ينام الجاهلي ويصحو عليها، وهو يوقن أن لا مفر له منها، ويؤكد علقمة الشاعر هذا المفهوم عندما يقول^(٣):

وكل حصن وإن طالت سلامته
على دعائمه لا بد مهدوم

ويتناول سائر الجاهليين انتهاء السلامة وانقضاء الآجال فالقصيدة الجاهلية واحدة والمفاهيم القبلية مشتركة، يقول الأسود النهشلي في قصيدة له^(٤):

ماذا أوْمَلْ بعد آل محرق
تركوا منازلهم وبعده إِياد
جرت الرياح على مكان ديارهم
فكأنما كانوا على ميعاد
فإذا النعيم وكل ما يلهى به

(١) انظر: فصل القبيلة.

(٢) ديوان المثقب العبدى ص ١٠١.

يوماً يصير إلى بلى ونفاد
فإذا وذلك لا مهاء لذكره
والدهر يعقب صالحاً بفساد

فأل المحرق من المناذرة، وقبيلة إياد العدنانية^(١)، بادوا وانتهوا بعد أن عاشوا نعيماً مقيماً مدة من الزمن، وبعد السرور والأمور الصالحة جاء الفناء والفساد، فإذا كل ما أحرزوه من أمور حياتهم لا معنى لوجوده فالأمم تفنى، والفساد يعم أرجائها، بعد أن ترفل في نعيم الحياة رديحاً من الزمان.

وبعد أن استعرضنا مجموعة من شعراء عبدالقيس ونظراتهم في الموت والحياة، نطل على حقائق ومعتقدات وقفوا عندها، فالموت أمامهم حقيقة ماثله، ويقين قائم لا مفر منه ولا مهرب، وكان على الإنسان العبدى أن يسلم لهذا المعتقد أكثر الأحياء، ويتذرع بوسائل أخرى عند وقوعه وحدوثه، فالمنون خطر مفزع وشر مخيف، والليالي والأيام أمام العبدى باقية ثابتة، لكن نوائبها وصروفها فيها تغير وتبدل، فمن صالح إلى طالح، ومن مسرة إلى إساءة، ومن نعيم شامخ إلى زوال هائل، والإنسان لا يدوم على حال واحدة مهما كانت صولته وسلطانه.

وذكر شعراء هذا الاتجاه ما يلحق بالموت من قبور وما يستعان به من وقاية وحماية، فالمرء أبداً حذر متربص، يفرع إلى الكهنة والراقين ويسرع إلى الرقية والتميمة، ولكن هيهات فالموت أقوى وأعظم من كل المحصنات، ولم يتطرقوا إلى ما بعد الموت وإلى حياة القبر وعذاب الإنسان وأغلب الظن أنهم كانوا واقعيين لا يدركون ما يحدث للجسد بعد الانتهاء والموت، فحياتهم جل معتقداتهم لذلك لم نلتمس عندهم تعليلاً خاصاً أو (فلسفة معينة)، ولم يكن لديهم دين يأترون بأمره، ويجتنبون نهيه، فتلك معارفهم ومفاهيمهم.

ولابد لي أن أشير إلى أن شعراء عبدالقيس ذكروا مفاهيم تقرب من تعاليم الإسلام تتصل بالموت والحياة، فقد عرفوا الله واستعانوا به في شؤون حياتهم يقول المنقب العبدى في ناقتة^(٢):

(١) أجلاؤها: جسمها، قصيدها: مخها وفي رواية أخرى سمنها ولحمها.

(٢) ديوان المنقب العبدى ص ٢٧٦ .

(٣) الوعواع: اسم مكان.

(٤) البحري: الحماسة ٢٢٧ .

وَأَيَّقَنْتَ إِنْ شَاءَ إِلَهِه بَأْنَهُ
سَيَبْلُغُنِي أَجْلَادُهَا وَقَصِيدُهَا^(١)
فَلَوْ عَلَّمَ اللَّهُ الْجِبَالَ عَصِيْنَهُ
أَتَاهُ بِأَمْرَاسِ الْجِبَالِ يَقْوَدُهَا
ويقول أيضاً^(٢):

لَحَى الرَّحْمَنُ أَقْوَاماً أَضَاعُوا
عَلَى الْوَعْوَاعِ أَفْرَاسِي وَعَيْسِي^(٣)
والشاعر الجمال العبدي يقول^(٤):
إِذَا خَفْتُ فِي أَمْرٍ عَلَيْكَ صَعُوبَةً
فَأُصْعَبُ بِهِ حَتَّى تَذِلَّ مَرَاقِبَهُ
وَأَمْرٌ عَلَى مَكْرُوهِهِ قَدْ رَكِبْتَهُ
فَكَانَ بِحَمْدِ اللَّهِ خَيْرًا عَوَاقِبَهُ

فالألفاظ إن شاء الإله، علم الله، الرحمن، بحمد الله، كلها ألفاظ إسلامية وإذن نحن
إمام أمرين فإما أن تكون هذه الأشعار منحولة قد دخلتها الألفاظ الإسلامية وهو أمر
نستبعده، وإما أن تكون هذه الأشعار قيلت في الجاهلية وهذا ما نقبله ويبقى أمامنا تعليل
وجود هذه الألفاظ وتوفرها في شعر العبددين، والذي نعرفه ونفهمه أن الجاهليين عرفوا
الله معرفة أكيدة واستعانوا به في نواحي أمورهم وتقربوا إليه بالضحايا بل وعبدوا

(١) المسعودي: مروج الذهب ٨٣/١ .

(٢) ابن سعد: الطبقات ٥٥٧ .

(٣) ابن سعد: الطبقات ٥٥٩ .

الأصنام زلفى إلى الله^(٥)، وكان من بينهم الموحدون، ومن كان على دين المسيح فلا نستغرب أن يذكر شعراء عبد القيس هذه الألفاظ ما دام مجتمع الجاهلية قد عرفها ولا غرو أن تكون تلك الألفاظ ملامح في رؤيا العبيدين إلى تعاليم ومفاهيم قريبة من تعاليم الإسلام، ولقد رأينا كثيراً من الحكماء من رجالات عبد القيس أمثال رئاب الشنى^(١) والأشج العبدى^(٢) والجارود^(٣) وكلهم نظر بفكره وحكمته نظرة أوسع وأشمل من بقية العبيدين والجاهليين إلى الله والطريق إلى تعاليمه.

لقد استطاع شعراء عبد القيس أن يعبروا عن نظراتهم في الحياة والموت تعبيراً صادقاً، فذكروا الدهر وهو عندهم يوم وليلة، يفرق بين الإخوان، ويقسم الآجال والأعمار تفنى الأمم، والدهر ماثل لا يفنى والزمان قائم يتجدد، وأحداثه تغير من واقع الناس وحياتهم ولهذا تألوا وتشاءموا وشتم بعضهم الدهر والزمان.

وذكروا الموت فأروه مقبرة كبيرة لكل مخلوقات الحياة على أرض الحياة، فلا ينجو منه أحد لا الإنسان ولا الحيوان ولا الطير وهو لا يعمى عن كل أولئك وإنما يتقدم غير هياب، برهبتة وبشاعته، فيغير من صالح إلى طالح، ومن مسرة إلى ضرر، ولذا عبر العبيدون عن مدى عجزهم أمام سلطان الموت، وضعفهم عندما يقبض بيديه مصائرهم، فعاشوا حياتهم في ظلال الغزو والفروسية، طالبين أفضل طريق إلى الموت وهو في عرف الجاهلية طريق القتال والطعان.

وشعراء عبد القيس لم يتعمقوا في نظرتهم إلى الموت والحياة ولم (يفلسفوا) لنا آراءهم وعقائدهم وإنما اكتفوا بذكر الموت والحديث عن الدهر.

الرثاء:

إذا فرغنا من الحديث عن نظرات العبيدين في الموت والحياة، نجد أنفسنا أمام

(١) البحتري: الحماسة ٣١، انظر: ديوان عبد القيس.

موضوع الرثاء، وكان من حق الدراسة أن يلحق الرثاء بنظرات العبيدين في الموت لأن الصلة بينهما شديدة والعلاقة وطيدة، فبعد الموت ينهض الشاعر فيرثي، ويقف ليعدد المناقب ويفخر بالمزايا، ولئن كان المديح ثناء في لحظات السرور في الحياة فإن الرثاء ثناء في مواقف الحزن بعد الممات، وليس الرثاء وقفاً على العبيدين دون الجاهليين ولا على قبيلة دون غيرها من القبائل، وإنما هو مشترك عند مختلف القبائل والأمم والشعوب وفي شتى الأماكن والبقاع.

لقد ندب العبيدون موتاهم، ووقفوا على قبورهم، فذكروا الخصال الكريمة، وتحدثوا عن الفعال الحميدة، وبكوا حين فقدوا الآباء والإخوان والأقارب والخلان، وعبروا عن عمق المأساة، ومرارة الحزن، ومع كل ذلك فقد تجميلوا بالصبر أمام الملمات، وتجلدوا في ساعات فواجع الموت.

وتفوقت المرأة في جانب الرثاء لأنها أرق إحساساً، وأرهف مشاعر، فناحت وأعولت، فالشاعرة ابنة حكيم العبدية تقول في رثاء أبيها^(١):

أيرجو ربيع أن يؤوب وقد ثوى
حكيم وأمسى شلوه بمطابق
فإن كنتم قوماً كراماً فعجلوا
له جرة من بأسكم ذات مصدق
فإن لم تنالوا نيلكم بسيوفكم
فكونوا نساء في الملاء المخلوق

فالشاعره ترثي أباهما، وقد قتله الربيع فهي حزينة، أصابتها الفجيعة، لكنها لم تستسلم لأحزانها، وإنما راحت تصرخ في وجوه قومها، طالبة إليهم أن يأخذوا بثأر أبيها، وإلا فإنهم ليسوا من الكرام في شيء، وعليهم أن يصدقوا في عملهم وألا يجبنوا أمام

(١) ابن قتيبة: المعاني الكبير ١٠١٧/٢، الرثاء: تأليف لجنة من الأدباء ص ٥٤ .

(٢) أبو تمام: الوحشيات ص ١٤٠ وانظر: ديوان عبدالقيس.

عدوهم، فإن تخاذلوا كانوا من النساء، فالحرب والسيوف للرجال والثوب والملاء للنساء، وابنة حكيم لم تكن تقصد إظهار الحزن والألم فحسب، وإنما كانت تريد إثارة قومها أمام خصومهم وقتلة والدها، فهي تثير فيهم نخوة الدفاع عن الشرف والأخذ بثأر القتل، «ومن عقائد الجاهليين أن القتل لا يهدأ في قبره حتى تصيب القبيلة من دم قاتليه والدم عندهم لا يغسل إلا بالدم»^(١)، وعدم الاستكانة أمام الربيع وأن لا يكونوا كالخراف التي تنحر فلا تملك الدفاع عن نفسها والوقوف أمام جزارها.

وهذه الشاعرة أخت سعد العبدية تؤبن أخاها وترثي فقيدتها^(٢):

يا سعد يا خير أخ
نـازعت در الحـلـمـه
يا ذائد الخيل ومجتاب
الـدلاص الـدـرمـه
سـيـفك لا يـشـفـى به
إلا الـسـنـاد الـسـنـمـه
يا سـعـدكم أوقـدت
لأضـياف ناراً زهـمـه
جـادك على قـبـرك غـيـث
من سـمـاء رزـمـة

تعدد الشاعرة مناقب أخيها، وتشهر محامده، وتذيع فضائله، فهو شجاع مقدام، يرتدي الدروع اللينة ويتقلد السيف القاطع، يكرم أضيافه، ويحمي ذمار قبيلته، وما أعظم ناره وهي تتأجج لهباً، يتصاعد في الأعالي ليراه السائرون ويأتيه الأضياف، وسعد يهب لنجدة القبيلة ويكون عند أول نداء له وإذا اعتدى عليها فإنه يرد نوقها وحمالها وإزاء هذا التأبين من الشاعرة تدعو لقبر أخيها بغيث كثيف ومطر غزير لينعم ويستريح.

(١) البحري: الحماسة ص ١٠٥ .

(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٢٤٤/٣ .

(٣) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٣٨٦/١ .

وهذه شاعرة عبديّة أخرى تصبر على فجیعة الموت، وتخرج إلى قبر فقيدها، وقد أوجعها الزمان^(١):

خرجت لأعتاد القبور فلم أجد
سوى جدث ضمت عليه الصفائح
فيا وقعة الدنيا، فهلاً بغيره
فجعت البواكي، ترحتك المتارح

إنها المرأة العبديّة تخرج لزيارة القبور، وقد فجّعها الدهر بأهلها، فصرخت من شدة الألم، وبكت من هول المصيبة وكأنما سخّطت على الدنيا لموت خليلها، وصرخت في وجه الحياة: ألم تجدي غيره لتأخذه؟، إنه الموت لا يتقن إلا لغة الموت.

ورثى العبديون أنفسهم ساعة الموت، ويقال «إن أول من بكى نفسه وذكر الموت يزيد بن خذاق»^(٢) عندما قال^(٣):

قد رجلوني وما بالشعر من شعت
والبسوني ثياباً غير أخلاق
وأرسلوا فتية من خيرهم حسباً
ليسندوا في ضريح القبر أطباقي

ومن الطبيعي في لحظات التأمل والصفاء، أن ينظر الإنسان إلى حياته فيذكر الموت ويرثي نفسه، فالشاعر يتصور هذا المنظر، وقد خرج المشيعون من عليّة القوم وفتيان القبيلة، وهم من أرفع أنسابها، وأعلى أحسابها، ليدفنوا الميت ويواروه التراب، بعد أن مشطوا شعره وزينوه، وألبسوه أجمل الأثواب، وساعتها لا تنفع الرقية، ولا تفيد التعويذة،

(١) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٢٥٣/٣ .

(٢) أبو تمام: الوحشيات ص ٢٢٠ .

(٣) نفس المصدر ص ١٣٦ .

والتميمة، فأمام الموت لا واق ولا راق، وتعظم المصيبة عندما يجد الشاعر نفسه غريباً عن أهله ووطنه وقبيلته، وينظر حوله فلا يجد أحداً، وكأنما كان يزيد يتوقع الموت في كل لحظة، ويتقرب المنية في كل موطن، فلجأ إلى ندب نفسه ورثاء حاله، قبل أن يحل الموت.

وعرفنا أن يزيد كان يحس ظلم المناذرة، ويرأى بشاعة أعمالهم في كثير من القبائل، وفي غيره من الشعراء^(١)، فقام يشتم الزمان ويبيكي الأيام من شدة ألمه ومصابه^(٢):

ولما رأيت الدهر وعراً سبيله
وأبدى لنا ظهراً أجب مسلعا
وجبهة قرد كالشراك ضئيلة
وصعر خديه وأنفاً مجدعا
هناك ذكرت الذاهبين أولي النهى
وقلت لعمرو والحسام ألا دعا

فالشاعر يشرح لنا تقلبات الدهر فهو قد تنكر للعبيدين، وشمخ بأنفه، وصعر خده، وتناول وتكبر، وكان على الإنسان أن لا يركن إليه فقد طوى أمماً كثيرة، والأمر إذن أن يترك الخصام والنزاع ويستمع إلى صوت العقل ويتأمل في أخبار الذاهبين الأولين فذلك أجدى وأنفع.

وغير يزيد عاتب الشاعر ثعلبة بن عمرو النائبات على ما أوقعن بأخيه من محنة الموت فقال^(٣):

ألوم النائبات من الليالي
وما تدري الليالي من ألوم

ونعيم الحياة لا يدوم لأحد، ومن هنا فقد ندب الشعراء قبائلهم وأمهم إلى جانب رثاء أنفسهم وأهلهم، وأبانوا للأحياء من بني قومهم مدى العبرة والعظة في الحياة والموت،

(١) البحتري: الحماسة ٢١٥، وانظر الأبيات في: ديوان عبد القيس.

(٢) ديوان المثقب العبدى ٢٢٠ .

وقد رأينا في أبيات جذل بن أشمط السالفة الذكر.

إن الكثير من القبائل والشخصيات قد بادوا وأتى الموت عليهم، بعد أن كانوا ذوي شأن وسلطان، وهذا الشاعر نشبة بن عمرو يرثي المناذرة وقد دالت دولتهم^(١):

كم كان عند بني النعمان من جنن
ومن سيوف مباتير وأرماح
بادوا فلم يك أولاهم كآخرهم
وهل يتم إصلاح بإصلاح

فعلى الرغم من قوة المناذرة وكثافة أسلحتهم وعتادهم زالوا فلم يبق النعيم ولم يدم الإصلاح وإنما أعقب ذلك فساد وزوال.

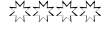
والرثاء عند العبدین تقليدي كسائر رثاء الجاهليين وهو لا يتجاوز تعداد المناقب وبيان المحامد، ولكنه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بنظرتهن إلى الموت ولذا رأينا أن تكون هذه الصفحات امتداداً لموضوع نظرات في الموت والحياة.

موضوعات أخرى

شعر الحكم: تعود الحكمة عند العبدین إلى صفاء الذهن وسلامة التفكير واتزان العقل، وطول التأمل، فالمنتخب العبدی يقول في إحدى قصائده^(٢):

لا تقولن إذا مالم ترد
أن تتم الوعد في شيء: نعم
فإذا قلت: نعم، فاصبر لها
بنجاح الوعد، إن الخلف ذم

(١) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٤٠٢/٤ - ٤٠٦ .



واعلم أن الذم نقص للفتى
ومتى لا يفتق الذم بـ
أكرم الجار وارعى حقه
إن عرفان الفتى الحق كرم



إن شر الناس من يكشـر لي
حين يلقاني، وإن غبت شتم



اجعل المال لعرضي جنة
إن خير المال ما أدى الذم

في هذه الأبيات قدم لنا المثقّب مجموعة من الحكم، تناولت عدة أمور هامة، حرص مجتمع الجاهلية عليها ومنها: الوعد وأهميته والمحافظة عليه، والجار ورعاية حقوقه، والمال وطرق إنفاقه، والناس وكيفية التعامل معهم، والخلال الحميدة التي يتحلّى بها المرء.

فالعربي حريص على وعوده، شديد الوفاء بها، يصدق إذا تحدث وقال، وإذا وعد فلا يخلف، وإن قال نعم فلا مكان لللفظة «لا» عنده، ويحذر المثقّب من التهاون في الوعد وإخلافه، لأن المذمة تلحق بمن لا يفي بعهده ولا يحفظ وعده.

ومن أعراف المجتمع الجاهلي الوفاء، فإذا أعطى الرجل غيره وعداً أو قطع على نفسه عهداً، فلا يملك أن يغدر بصاحبه أو ينكث بوعده معه، ولهذا اعتبر الوفاء من أنبل

(١) هو خالد بن الحارث بن أنمار بن عمرو بن ربيعة من عبد القيس.

(٢) ديوان المثقّب ص ٢٢٣ .

(٣) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٥٧٤/٤ - ٥٧٨ .

(٤) ديوان المثقّب ص ١١٧ .

(٥) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٥٧٣/٤، ٦٠١/٤ .

الصفات التي يتخلق بها العربي^(١) وهو محمودة عظيمة، وكان العربي يرسخ هذا المفهوم بأن يضع قوسه أو سهمه إشارة إلى وفائه وعهوده.

أما الحفاظ على الجار، فهو شيمة عربية أخرى، فلا يغدر العربي بجاره، ولا يلحق به الأذى ويقوم على رعاية حقوقه وإكرامه.

وليس الكرم وقفاً على الجيران فحسب، وإنما اعتبر من الخصال التي فرضها مجتمع الجاهلية، وأيدها العرف، فقد مدح المثقب خالد بن أنمار^(١) بأنه رجل كريم، فجفانه كثيرة وتتقدم جفان غيره^(٢):

باكر الجفنة، ربيعي الندى

حسن مجلسه غير لطم

وأعراف العرب توجب تقديم حق الضيافة، ذلك أنه لا ملجأ في البادية يأوي إليه العربي، وإنما يجد في تلك الخيام المضروبة هنا وهناك في بطن الصحراء، ملاجئ غوث، وقوارب نجاة، من قسوة الطبيعة، ومللمات الزمان^(٣).

والجود صفحة من صفحات الكرم، فالرجل يمطر ضيفه بمعروفه ويغمره بجوده فينحر له الذبائح ويقيم الولائم، فالكرم فضيلة كبرى وإحساس نبيل تختلج به النفوس، وقد أشار المثقف إلى أنه أكرم ضيفاً حل في منزله وسط ليلة غزيرة المطر، شديدة البرد^(٤).

أما المال فينفق في سبيل المحافظة على العرض، فللشرف مقام كبير، وللعرض منزلة عظيمة، ولذا حمى العربي عرضه بدمه وماله، وصان شرفه وحافظ على سمعته، وهذا المفهوم اكده أكثر من شاعر جاهلي كطرفة وعنز وغيرهم^(٥).

(١) البحتري: الحماسة ص ١٠٣ .

(٢) نفس المصدر ص ١٣٧ .

(٣) القالي: الأمالي ٢/ ٢٠٤ .

(٤) ديوان المثقب العبدى ١٨٨ - ١٩٠ .

ومن الخصال التي حرص شعراء عبدالقيس على ذكرها، الصفح عن الأشرار، والابتعاد عن فاحش القول، وسوء الكلام، والترفع عن مخاطبة السفهاء، ومقابلة الجهلاء، وبذلك يقدم شعراء عبدالقيس أسلوباً عظيماً في التعامل مع الآخرين.

والحكمة تصدر عن رجل خبر الأيام وعرف الليالي وعرك الزمان فالشاعر العبدى يقول:

عرفت الحياة بؤسها ونعيمها

وحنكني صرف الزمان وأدبا^(١)

واهتم العبدون بالأمور الصغيرة إلى جانب الكبيرة، قال شاعرهم:

فإن الدقيق يهيج الجليل

وإن العزيز إذا شاء ذل^(٢)

وحرص يزيد بن الخذاق^(٣) أن يذكر المكارم الأخلاقية وهي ذات الخصال والصفات

التي وردت في ميمية المثقب:

ولست بقائل قولاً لأحظى

بقول لا يصدقه فعالي

فأكرم ما تكون عليّ نفسي

إذا ما قل في الأزمات مالي

فتحسن سيرتي وأصون عرضي

ويجمل عند أهل الرأي حالي

وهكذا كانت الحكمة عند عبدالقيس تعاليم واضحة إلى مكارم الأخلاق، ودعوة

كريمة إلى الفضائل، فقد تحلوا بها وأدبوا أنفسهم عليها.

(١) ديوان المثقب العبدى ١٤٨ .

(٢) نفس المصدر ٩٣ .

(٣) نفس المصدر ٢٣ .

(٤) المفضليات ٢٩٧ .

(٥) ديوان المثقب العبدى ٢٤٧ .

شعر البحر: عند حديثنا عن حياة القبيلة، أشرنا إلى أن عبدالقيس بحكم موقعها في البحرين، قد عرفت البحر، ومخرت عبابه، وخاضت مياهه، وقد وردت إشارات شعرية حول ذلك فالمثقب يقول^(٤):

كان الكور والأنساع منها
على قرواء ماهرة دهن
يشق الماء جؤجؤها وتعلو
غوارب كل ذي حذب بطين

فالشاعر يعقد مقارنة بين ناقته التي يرحل عليها، وبين السفينة التي يراها، فالناقة بأعمالها وأحبالها، إنما هي سفينة طويلة مدهونة، تأخذ طريقها عبر أمواج البحر، وإذا كانت السفينة تمضي فتشيق الأمواج بصدرها، وتعلو عليها، فإن الناقة تسير مخترقة رمال الصحراء، وكأنها الأمواج تعلو وتهبط بها.

ويؤكد المثقب مسيرة قرب شواطئ البحر وهو مرتحل إلى ممدوحيه فيقول^(٢):

على طرق عند اليراعة تارة
توازي شريم البحر وهو قعيدها
ويذكر سوط الناقة وكأنه مجداف سفينة كلاهما يدفع ويؤمر بالحركة^(٣):
تكاد إذ حرك مجدافها
تنسل من مثناتها واليد

ويؤكد المثقب العبدى معرفته لهؤلاء الملاحين في معرض الحديث عن ناقته^(٥):

كأني وأقتادي على خمشة الشورى
يجور صراري بها ويقيمها

(١) نفس المصدر ٦٣ .

(٢) انظر: الحياة الاقتصادية.

(٣) ديوان المثقب العبدى ص ٢٥٢ .

فالسفينة الطويلة والمدهونة والأمواج وشريم البحر والمجداف والصراري
والمكوس والضرائب والسواحل كلها مصطلحات بحرية وألفاظ سكان البحار وقد
ذكرها الشعر العبدى.

ومع البحر يرد اللؤلؤ الحبة النفسية من جوف البحر^(١):

مرمعات كسمطي لؤلؤ

خذلت أخراته فيه مفر

فالشاعر يصف دموع حبيبته، وهي تسيل متتابعة وكأنها حبات لؤلؤ انفرط عقدها،
وانفردت حباتها.

ولقد وردت إشارات للسفن في شعر الجاهليين في بيئة البحرين، وأشرنا إلى ما
ذكره طرفة بن العبد والأعشى وعمرو بن قميئة وغيرهم في هذا المجال^(٢).

وشعر البحر يهتم بذكر السفن وأسمائها، وحركتها وسرعتها، وأنواعها وأشكالها،
ويبرز أهميتها في نواحي التجارة، وفيه وصف جميل للملاحين والغواصين ومهارتهم في
الغياصة والملاحة، وشعراء عبد القيس كانوا أكثر معرفة من غيرهم ببيئة البحر نظراً لقربهم
منه، ومشاهداتهم للسفن القادمة والمغادرة، ورؤيتهم عن قرب للصراري والعاملين في
ميدان البحر.

ونحن وإن كنا نطمح أن يسجل لنا الشعر العبدى أكثر وأكثر عن البحر، إلا أننا نقنع

(١) ديوان المتقرب العبدى ٨٧ .

(٢) نفس المصدر ٢٤٣ .

(٣) الأصمعيات ١٩٩ .

(٤) نفس المصدر ١٩٩ .

(٥) ديوان المتقرب العبدى ١٠٨ .

بهذا القليل كشاهد على اهتمام الشعر العبدى فى البحرين ببيئة البحر.

شعر الطبيعة: لم ينس العبدون أن يذكروا الطبيعة، ويتناولوا فى أوصافهم حيوانها
وطيرها، ورياحها وسرابها، وطرقها وأماكنها، وكثبانها ورمالها، فهجرة الصحراء وريح
السموم، تلفح الوجوه، وتغير الألوان^(٣):

أنص السرى فيها بكل هجيرة

تغير ألوان الرجال سمومها

والسراب عندهم أثواب بيضاء، وبرود تطوى وتنشر^(١):

وأمت صواديح النهار وأعرضت

لوامع يطوى ربطها وبرودها

وهو فى موطن آخر أشار لبدء الرحلة، فالمثقب يرحل على ناقته عندما
يرتفع السراب^(٢):

رجوم بأثقال شداد رجيلة

إذا الال فى التيه استقلت حزمها

(١) انظر: شعر الناقة عند المثقب.

(٢) المفضليات ٢٩٧ .

(٣) ديوان المثقب العبدى ٥٤ .

(٤) انظر: ديوان عبد القيس.

(٥) الأصمعيات ١٩٩ .

(٦) ديوان المثقب ٢٤٩ .

(٧) ديوان المثقب ٢٣٧ .

(٨) أبو تمام: ديوان الحماسة ٥٥٩ .

(٩) انظر: ديوان عبد القيس.



الفصل الرابع

الدراسة الفنية

الخصائص اللغوية والأسلوبية:

استخدم العبيدون اللغة الأدبية، لغة العصر الجاهلي التي وصل الشعر إلينا بها قوياً ناضجاً، فالجانب اللغوي كان عاملاً مشتركاً بين سائر المجتمعات والقبائل الجاهلية.

والألفاظ في اللغة لبنات تبنى بها القصيدة، واللفظة الواحدة بدلالاتها كائن حي^(١)، يعيش ويتطور، وينقل ويصور كل ما في الحياة من مناظر ويستخرج الشعر هذه الألفاظ في مكان من جسم القصيدة يحدد قيمتها ويجدد حياتها.

وشعر العبيدين كما نراه سهل الألفاظ، قريب التناول، كلماته يسيرة وتراكيبه واضحة، ومعانيه ظاهرة، فالمفضل العبدى يعتمد السهولة والوضوح وهو يتحدث عن تناثر الجماجم والأيدي وموت السادة في معركة طريف فيقول^(٢):

بكل قرارة وبكل ربع
بنان فتى وجمجمة فليق
وكم من سيد منا ومنهم
بذي الطرفاء منطقته شهيق

وفي كلمات يسيرة ومعان ظاهرة أخبرنا يزيد بن الخدّاق عن مكر النعمان بن المنذر وخداعه وعن غزو كتيبة الخرقاء للأسرة العبدية فقال^(٣):

(١) أحمد زكي: شعر الهذليين ٢٣٧ .

(٢) الأصمعيّات: أصمعية ٦٩ ص ١٩٩ .

(٣) المفضليات: ٢٩٥ .

إن تغز بالخرقاء أسرتنا تلق الكتائب دوننا تردى

ونفذ الممزق بسهولة شعره، ووضوح حجته، إلى قلب النعمان وهو يطلب إلينا أن
يصفح عنه وأن لا يعاقبه لاشتراكه مع التائرين في عمان، فليس هناك ما يدينه من عقد
مكتوب أو كفالة موقعة، ويستجيب النعمان للشاعر ويسرع إلى نجدته وإطلاق سراحه قبل
أن يتمزق ويهلك في عذاب السجن^(١):

أكلفتني أدواء قوم تركتهم
وإلا تداركني من البحر أغرق
فلا أنا مولاهم ولا في صحيفة
كفلت عليهم والكفالة تعتقي

وفي وضوح يتحدث جذل بن أشمط عن عجز الإنسان أمام الموت، فإذا جاء الأجل
فلا يفيد الفرار، فالموت يصيب الإنسان ويصيب الأسد في الغابات^(٢):
لا ينفع الهارب الفرار من الموت إذا ما تقارب الأجل
تعدو المنايا على أسامة في الخيس عليه الطرفاء والأسل

وهل نجد سهولة ووضوحاً أكثر من سهولة ووضوح نونية المثقب أطول وأشهر
قصائد العبيدين وفيها يناجي الشاعر ناقته وقد نهض آخر الليل يرحلها، فلما رآته وعرفت
مراده، شكت وتأوهت أهة الرجل الحزين ولسان حالها يقول أهكذا أنت، كل أيامك رحيل
وأسفار، أما في قلبك من إشفاق فترأف وترحم؟ ويفهم الشاعر لغة ناقته ويحزنه ألمها
فيعبر عن أحاسيسها بهذه الأبيات السهلة العذبة^(٣):

تقول إذا درأت لها وضيئي
أهكذا دينه أبداً وديني

(١) الأصمعيات: أصمعية ٥٨ ص ١٦٤ .

(٢) البحري: الحماسة ١٠٠ .

(٣) ديوان المثقب العبدى ١٩٤ .

أكل الدهر حل وارتحال أما يُبقى علي وما يقيني

حقاً كما يقول طه حسين^(١) فإن هذا الشعر من أروع ما قاله الشعراء.

وليست سهولة الألفاظ ووضوح التراكيب ضعفاً أو إسفافاً، وإنما الأمر في شأنها لا يحتاج أن نستخدم معاجم اللغة بشكل واسع وملح، ومن جانب آخر فإن المفردة في موقع من القصيدة تحمل طاقة، ولها حركة وإيحاء فالثقب عندما أراد أن يعبر عن الحركة السريعة الخاطفة بطلان كتيبة النعمان استخدم الثقبان ولا يخفى علينا أن الثقب طائر كالنسر^(٢).

لها فرط يحمي النّهاب كأنه لوامع عقبان مروع طريدها

ولفظه الضرم وهي تعني اشتعال النار استخدمها الشاعر لتدل على شدة الجوع عند الأسد وقد شبه به مغتاباً والغا في شؤون الناس وأعراضهم^(٣):

لا تراني راتعاً في مجلس في لحوم الناس كالسبع الضرم

والشاعر حريث العبدى رأى في كلمة يخر إيحاء بحركة ليس أنسب منها في وصف السيف الذي يحمل الموت^(٤):

مهند منه الردى يخر الأمناء اليوم الذي يفرّ

والأمثلة كثيرة إذا ما مضينا نستقصيها، فشعر العبدى في أكثره من هذه «النماذج» سهل في ألفاظه، واضح في معانيه، يكاد يخلو من الوعورة والخشونة التي ألفناها في قلب الصحراء وعند أهل البادية.

(١) طه حسين: حديث الأربعاء ١٦٧ .

(٢) ديوان المثقب العبدى ١٠٨ .

(٣) نفس المصدر ٢٢٩ .

(٤) البحري: الحماسة ٣٩ .

وقد يكون في شعرهم شيء من الألفاظ الصعبة، والتراكيب الغريبة لكنه قليل وهو على سبيل المثال يختلف عن شعر الهذليين الذي يمتاز بغرابة ألفاظه^(١).

والقصيدة عند العبديين كما هي عند غيرهم سلاح هام، والشاعر يستخدم هذا السلاح في سهولة وطواعية وكل همه أن يعبر بلسان قبيلته عن مفاخرها وإذاعة أخبارها والتحدث عن مشاكلها التي تعاني منها أو تعانيها من الآخرين ويحرص الشاعر على أن يصل شعره إلى قلوب الناس واضحاً، سهلاً، يسيراً، ليكون ادعى أي التأثير واقرب موقعاً في القلب.

ولعل مصدر هذه السهولة البيئة المدنية فإن المدن والمناطق الساحلية كانت أكثر استقراراً وتحضراً فلانت لغتها، وسهل شعرها، وقديماً لاحظ ابن سلام^(٢) أن عدي بن زيد إنما لان لسانه وسهلت أشعاره لأنه يسكن الريف والحيرة.

ومن هنا فإن اتصال العبديين بالأمم الحضارية القريبة منهم والبعيدة عنهم كان له أثر في سهولة لغتهم ووضوح عباراتهم.

قد يكون هذا وذلك، وهم على أية حال غير قابعين في معامل التعبير والتنقيح الشعرية فلا يصنعون العبارات ولا يغتصبون الألفاظ وإنما صدروا عن طبع سهل في بيئة حضارية فجاء شعرهم سهلاً في ألفاظه، صافياً في كلماته، واضحاً في تراكيبه ومعانيه.

وفي شعر عبد القيس نجد مفردات والفاظاً انسربت فيه من الأمم المجاورة وهاجرت إليه عن طريق التجارة والنواحي الحضارية الأخرى^(٣) ومن هذه المفردات - رزدق^(٤) وهي تعني الصف من الإبل والممتد من الأشياء، وقد وردت في شعر الممزق العبدى وهو يصف كتيبه النعمان الجأء وهي تسير في طريق ممتد طويل بين السهل والحزن^(٥):

(١) أحمد زكي: شعر الهذليين ٢٣٩ .

(٢) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ١٦١، في الحيوان ١٤٩/٧ .

(٣) انظر : الحياة الاجتماعية والصلات الخارجية.

(٤) الأنباري: شرح المعلقات ٨٩٠ .

(٥) المفضليات ٣٠١ .

بجأواء جمهور كأن طريقها بسرة بين الحزن والسهل رزدق

ولفظتا «دكان ودربان» فارسيتان^(١) الأولى بمعنى الحانوت أو «دكة الرمل» والثانية بمعنى البواب وقد وردتا في وصف المثقب لناقته التي لم يهدّها السير ولم يوهنها السفر وإنما ظلت قوية عظيمة عظم هذا الدكان الذي يجلس إليه الدربان^(٢):

فأبقى باطلاي والجد منها
كدكان الدرابنة المطين

وكلمة ديباج من أصل فارسي^(٣) وهي الثياب من الحرير ووردت في شعر المثقب وهو يصف محاسن النسوة وما يرتدين من أثواب حريرية يتجملن بها ساعة السفر^(٤):

أرين محاسناً وكئن أخرى
من الديباج والبشّر المصون

وكلمة «قنطار» فارسية^(٥) جاءت في شعر المثقب العبدى حينما تحدث عن البدرات التي تؤخذ من مال ملك تجبى له الضرائب وتصل إلى سبعين قنطاراً من الذهب^(٦):

من مال من يجبى ويجبى له
سبعون قنطاراً من العسجد

و«السدير» فارسية وتعني القصر^(٧) في شعر سويد بن الخذاق وهو يهجو عمرو بن هند صاحب السدير^(٨):

(١) الأنباري: شرح المفصلية ٥٨٧، وفي «الصاح» للجوهري ٢١١٤ دربان فارسي معرب وفي «اللسان» ١١/١٧ الدرابنة التجار وفي «أدب الكاتب» ٥٣٣ إنها فارسية.

(٢) ديوان المثقب العبدى ٢٠٠ .

(٣) عند الجواليقي في «المعرب» ١٤٠ إن الديباج أعجمي معرب وأصله فارسي.

(٤) ديوان المثقب العبدى ١٥٨ .

(٥) قنطار فارسية وقيل : إنها لاتينية في «تفسير الألفاظ الدخيلة» ٥٩ .

(٦) ديوان المثقب العبدى ١٣٠ .

(٧) طوبيا العنيسي: تفسير الألفاظ الدخيلة ٣٤ .

(٨) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ١ .

أبى القلب أن يأتي السدير وأهله
وإن قيل عيش في السدير غزير

و«السندس» فارسية^(١) وهي ثياب من الحرير جاءت في شعر يزيد بن الخذاق في وصفه لفرسه الشموس التي أصبحت سريعة ونشيطة بفضل اهتمامه بغذائها وعلفها^(٢):

وداويتها حتى شنت حبشية
كأن عليها سندساً وسديساً

ومن غير الفارسية لفظة «جدث» بمعنى القبر وهي من أصل عبراني^(٣) وردت في شعر مسعود بن سلامة عندما طلب إلى صاحبه أن لا تلومه على شجاعته وإنفاق ماله في وجوه الفتوة ما دام الإنسان يصير إلى قبر تذروه الرياح^(٤).

أقلي عليّ اللوم إني صائر
إلى جدث تسفي عليه الأعاصر

وقال عمرو المحاربي وهو يبيكي الريان بن حويص صاحب «هراوة عبدالقيس» داعياً لقبره بمطر سكوب^(٥):

سقى جدث الريان كل عشية
من المزن وكاف العشي دلوح

وإذا مضينا نتتبع ظاهرة الألفاظ الدخيلة والأعجمية تجد مفردات أخرى مثل بخت، وبرج ومسك، وبرد وغيرها^(٦).

وإلى جانب الألفاظ الدخيلة ورد في المصادر أن عبدالقيس كانت لها ألفاظاً تستخدمها خاصة بها ولغة لها مثل معين، وأقواع، ومجداف.

(١) جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ٤٩/١ .

(٢) المفضليات: ٢٩٧ .

(٣) طوبيا العنيسي: تفسير الألفاظ الدخيلة ٢٠ .

(٤) البحري: الحماسة ٢٠٥ .

(٥) الكلبي: أنساب الخيل ص ٩٠ .

(٦) طوبيا العنيسي: تفسير «الألفاظ الدخيلة» ٨، ٦، ٩، أما البخت في «اللسان» ٢١٣/٢ .

فالمعين معناها الأجير والمساعد وهي لغة بحرانية وقد سئل الأصمعي هل تعرف المعين الأجير؟ فقال: لا أعرفه، ولعلها لغة بحرانية^(١)، وقد وردت في شعر المتنبي وهو يصف سرعة ناقته، فالناقاة عندما تسرع تنطلق الحجارة من أخفافها بسرعة وهذا يشبه الحصى الذي يقذف به المعين ناقاة غريبة وردت علي حوض القبيلة^(٢):

كأن نفي ما تنفي يداها
قذافٌ غريبةٌ بيدي معين

والقوع بمعنى مسطح التمر والبر لغة عبديّة^(٣)، ويقابلها في الشام الأندر وفي الحجاز الجزين، وفي العراق البيدر، وفي البصرة المربد، فقشر الحديد يتطاير عند المقارعة وكأنه غبار البيادر أيام الحصاد لكثافته وكثرته^(٤):

وطار قشارى الحديد كأنه
نخالة أقواع يطير حصيدا

ومجداف بمعنى السوط لغة بحرانية عبديّة^(٥) وهو غير مجداف السفينة فناقة المتنبي نشيطة ويكفي أن تحرك السوط دون عنف أو شدة حتي تمضي مسرعة في طريقها^(٦):

تكاد إذ حرك مجدافها
تنسل من مثنائها واليد

وليس الأمر في هذه الدراسة أن نتبع كل الكلمات الأعجمية ولا أن نتحرى عن جميع مفردات اللغة العبدية والبحرانية فهذه مسألة في حاجة إلى بحث طويل ليس مكانه هنا ومن جانب آخر فإن شعر العبيدين كما ذكرنا لم يصل إلينا كاملاً لنقف فيه على مثل هذا البحث وتلك الظواهر.

(١) الأنباري: شرح المفضليات ٥٨٧ .

(٢) ديوان المتنبي العبدي ١٨٠ .

(٣) الأنباري: شرح المفضليات ٣١٠، المحكم ١٩٧/٢، اللسان ١٧٩/١٠ .

(٤) ديوان المتنبي العبدي ١١٣ .

(٥) ابن منظور: اللسان ٣٦٦/١٠ .

(٦) ديوان المتنبي العبدي ٣٣ .

وكل ما أردناه من تعقبنا لبعض المفردات والكلمات أن نشير إلى أن لغة عبد القيس تأثرت بالمواطن والمراكز الحضارية وبلغات الأمم التي اتصلت بها وأشهر تلك الأمم الفرس ومن هنا كان هذا الظهور للمفردات الفارسية في لغة العبديين، وقد لاحظ الباحثون^(١) أثر المفردات الفارسية في شعر الأعشى والمتلمس وأبي دؤاد الإيادي وعدي بن زيد وذلك لصلتهم وصلة قبائلهم المباشرة وغير المباشرة مع الفرس.

وتكثر في شعر العبديين صيغ التبليغ وألفاظ الاستفهام لإيصال الأخبار وتثبيت الحقائق في الأذهان ونسوق هنا طائفة من الأمثلة:

يقول عمرو بن أسوى في رسالته إلى عمرو بن قيس^(٢):

ألا أبْلِغَا عمرو بن قيس رسالة

فلا تجزعن من نائب الدهر واصبر

ويقول أنس بن مساحق لصديقه راشد^(٣):

ألا ابْلِغَا خلتي راشداً

وصنوي قديماً إذا ما اتصل

ويقول الممزق في مفضلته^(٤):

فمن مبلغ النعمان أن ابن أخته

على العين يرتاد الصفا ويمرّق

ويقول مسعود بن سلامة مخاطباً صاحبه^(٥):

ألم تعلمي أن قد ترحل أخوتي

جميعاً وإخواني الذين أعاشر

(١) جرونهاوم: دراسات في الأدب العربي ٢٦٥ .

(٢) المرزباني: معجم الشعراء ٤١ معجم البلدان ١٣٤/٥ .

(٣) المفضليات: ٣٠١ .

(٤) البحري: الحماسة ٢٠٥ .

(٥) المفضليات: ٢٩٧ .

ويكثر التكرار في الألفاظ والمعاني في شعرهم، للتأكيد والتثبيت وزيادة التأثير في النفوس وأكثر ما يكون ذلك في المقارنات وشرح القضايا الهامة.

فالشاعر ثعلبة بن عمرو أكد عزمه على أن ينال من عدوه وكرر لفظة «يلقني» دليلاً على أنه وجه إليه ضربة أذلتة فقال ^(١):

وأقسم بالله لا يأتلي
وأقسمت إن نلته لا يؤوب
وإن يلقني بعدها يلقني
عليه من الذل ثوب قشيب

ويقول الممزق وهو يستعطف النعمان طالباً إطلاق سراحه ^(٢):

فإن كنت مأكولاً فكن خير أكل
وإلا فادركني ولما أمزق
أكلفتني أدواء قوم تركتهم
وإلا تداركني من البحر أغرق

ويقول جزل بن أشمط في صاحبة أنكرت شجاعته، وعلو همته، لرتة ثيابه، وسوء حاله ^(٣):

أو كنت أنكرت بردية وقد خلقا
فالبحر من فوقه الأقذاء والزبد
أو كان صرف الليالي عنك غيره
فإن تحت ثيابي ضيغم أسد

ويكرر المثقب لفظتي «لا ونعم» ليعالج مسألة هامه هي الوفاء بالوعد ^(٤):

لا تقولن إذا ما لم ترد
أن تتم الوعد في شيء «نعم»

(١) المفضليات: ٢٥٣ .

(٢) الأصمعيات: أصمعية ٥٨ ص ١٦٤ .

(٣) التذكرة السعدية ١٥٤ .

(٤) ديوان المثقب العبدى: ٢٥٧ .

حسن قول «نعم» من بعد «لا» وقبيح قول «لا» بعد «نعم»

المقطوعات الشعرية:

إذا استثنينا بعض قصائد المثقب، ومنصفة المفضل، وأصمعية الممزق ومفضليات يزيد بن الخذاق وثعلبة بن عمرو، فإنه يتبقى لدينا عدد هائل من المقطوعات الشعرية يزيد على سبعين مقطوعة، وهو أمر يستدعي منا أن نسجل ذبوع المقطوعة عند شعراء عبد القيس.

وقد عرفنا طائفة من الشعراء أصحاب مطولات، ورأينا الشعر الجاهلي يزخر بمئات من القصائد، لكن ظاهرة المقطوعة عند العبيدين تستوقفنا وتضعنا أمام أسئلة عدة، لماذا شاعت تلك الظاهرة في شعرهم؟ وكيف نبرر هذا العدد الهائل من مقطوعاتهم؟ وهل هذا هو حجم القصيدة عندهم؟

وأمامنا عدة احتمالات ومنها أن تكون هذه المقطوعات من قصائد ضاعت أبياتها قبل أن تصل إلينا، وهذا يتفق مع ضياع الشعر الجاهلي بشكل عام، وهو احتمال مقبول، فمفضلية الممزق فيها حذف ظاهر، واضطراب بائن ومطلعها^(١):

صحا عن تصابيه الفؤاد المشوق
وحان من الحي الجميع تفرق

والرواة في مثل هذا الضياع يقومون سبباً قوياً من أسباب هذه الظاهرة، فقد حفظوا الكثير من القصائد والمطولات ولكثير من الشعراء، فلا نستبعد أن يكون النسيان قد غلب عليهم عند رواية الشعر أو اختلط الأمر عندهم في قسم آخر منه، فلعبت به أيديهم وحذفت ما حذفت ولذا وصل إلينا بعض أبيات من القصيدة الطويلة وضاع سائرهما.

ومن الاحتمالات القائمة أن بعض الرواة كانوا يختارون من القصيدة أبياتاً تفي بحادثة معينة أو خبر هام فيقتطفون من القصيدة ما يلبي هذا المطلب عندهم، وباقي

(١) المفضليات: مفضلية رقم ٨١ ص ٣٠١.

القصيدة أهمل فعدا عليه الزمان وضاع ولم يصل إلينا .

وهذا الاحتمال تنهض شواهد في حماسة البحتري الذي أورد طائفة من المقطوعات لعبد القيس فالشاعر مسعود بن سلامة ينقل لنا رأيه في الموت، فهو صائر إلى الموت بعد أن رحل عنه إخوته ومحدثوه وبنو قومه، وأفرد لوحده من بين ذلك الحشد الكبير والجمع الغفير، فهو موقن أن الموت سيأتيه، وأن حياته ستنتهي فالدليل قائم أمامه، موت إخوته وأبناء عشيرته فهو يقول^(١):

ألم تعلمي أن قد ترحل إخوتي
جميعاً وإخواني الذين أعاشر

وهذه المقطوعة لها بقية في حماسة ابن الشجري ومنها:^(٢)
وما أدرك الساعون فينا بوترهم
ولا فاتنا من سائر الناس واطر

وإذن اختار البحتري قسماً منها تحت باب «ما قيل في الكبر والهرم» واختار ابن الشجري قسماً آخر تحت باب «الشجاعة والقوة» وضاع سائر أبيات القصيدة^(٣).

وإذا كانت مقطوعة مسعود قد انتزعت من قصيدة بقي قليل منها فإننا نجد مقطوعات أخرى لا بقية لها فابنة حكيم العبدية تدعو قومها لأخذ ثأر أبيها، وتبعث فيهم الحماية لكيلا يجبنوا أمام الربيع قاتل والدها، ويتقاعسوا كالنساء عن ثأرهم، فاستخدمت الشاعرة هذه المقطوعة قائلة:^(٤)

أيرجو ربيع أن يؤوب وقد ثوى
حكيم وأمس شلوه بمطابق
فإن كنتم قوماً كراماً فعجلوا
له جرة من بأسكم ذات مصدق
فإن لم تنالوا نيلكم بسيوفكم

(١) البحتري: الحماسة ص ٢٠٥.

(٢) ابن الشجري: الحماسة الشجرية ٦٠٥/١ .

(٣) انظر: ديوان عبد القيس.

(٤) البحتري: الحماسة ص ٣١.

فكونوا نساء في الملاء المخلق

والممزق يقول في مقطوعة له أن الموت واقع لا محالة فلا تفيد الحيل ولا تنفع التمايم، ولا يحول طب الكاهن دون الموت: (١)

ولو كنت في بيت تسد خصاصه

حوالي من أبناء نكرة مجلس

إذا لا تتنى حيث كنت منيتي

يخب بها هادٍ إلى معفرس

وهناك أمثلة كثيرة وشواهد قائمة عند البحري وعند غيره من الرواة، ومن الأمثلة والشواهد: (٢) مقطوعات يزيد بن الخذاق العينية والبائية واللامية والقافية، ومقطوعات جذل بن أشمط الرائية واللامية والدالية، ومقطوعات ثعلبة بن عمرو وهما الرائيان والميمية، والمقطوعات التالية الأخرى ومنها لامية أنس بن مساحق، ورائية حدار بن بن ظالم وميمية سلمة بن أبي هباب، وفائية ربيعة بن ثوبة وحائية نشبة بن عمرو ودالية أسامة بن ربيعة، ولامية مويك بن قابس ومرثية أخت سعد ومقطوعة أم النحيف في زوجة ولدها.

ومن تلك الاحتمالات أيضاً في المقطوعات الشعرية حياة فرسان الحرب في عبد القيس فسرعة القتال تستدعي سرعة القول وإيصال المعلومات بأوجز عبارة وأقصر طريق.

فمالك بن عروة يخبر أعداءه بأنه عازم على أخذ الثأر وهو يتحين الفرص وينتظر الأيام المواتية ويستعد بالعوالي السمر فيقول: (٣)

فلا تحسبوا أنا نسينا بحابل

حريز الندى والعسكر المتبددا

(١) البحري: الحماسة ٩٧.

(٢) انظر: ديوان عبد القيس.

(٣) البحري: الحماسة ص ٣٠.

ولا تستريثونا فإننا كأننا

وسمر العوالي فيكم اليوم أو غدا

والجمال العبدى يتحدث عن شجاعته وقوته أمام أعدائه فيعلن أن السيف والرمح صديقان له يشهدان بطولاته وجولاته الحربية وأعداؤه لابد مهزمون إذا سدد طعنة رمحه إلى صدورهم وضربة سيفه في رقابهم: ^(١)

السيف والرمح لي خدنان قد شهدا

أني شجاع فما داناني الأسد

إذا شددت على قوم هزمتهم

ببأس ذكرى فلا يبقى لهم مدد

ويتألم سويد بن الخذاق لما أصاب قومه في يوم القطيف على يدي قابوس بن هند وأخيه، فهما قد أغارا على العبدىين وفرقا أحلافهم واستباحا ديارهم وسويد ينتظر اليوم الذي سيخوض فيه حرباً ينتقم من المناذرة ويغسل عار الضربة القاسمة، فهو يقول: ^(٢)

وإلا تغادينى المنية أغشكم

على عدواء الدهر جيشاً لهاما

وفي مقطوعة أخرى تحدث عن السدير وظلم صاحب السدير عمرو بن هند وحذر الراغبين من الذهاب إليه حتى لا يلقوا سوءاً من حيوانات القصر وأمراضه وظلمه من صاحب القصر: ^(٣)

وتحدثت الشاعرة العبدية عن بطولة قومها فأذاعت نبأ صمودهم وعدم فرارهم أمام أعدائهم فقالت في مقطوعة لها: ^(٤)

أبوا أن يفروا والقنا في نحورهم

(١) الخالديان: الأشباه والنظائر ٤٤٨/٢ .

(٢) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٣٨٧/١ .

(٣) المصدر السابق ٣٨٦/١ .

(٤) البحتري: الحماسة ٣٧ .

ولم يبتغوا من رهبة الموت سلماً
ولو أنهم فروا لكانوا أعزّة
ولكن رأوا صبراً على الموت أكرماً

وهناك أمثلة أخرى نذكر منها مقطوعة يزيد في دوسر، وثعلبة في يوم فارعة المنقى، وعمرو بن أسوى في حرب إباد وبكر بن وائل، والجمال في إغاثة الملهوف وفي يوم القطيف، وعمرو بن سلمة في الحرب، ومالك بن ثعلبة في المعركة وهرم بن سنان في فرسه قدام وعمرو المحاربي في «هراوة عبد القيس»^(١).

وقد يغرينا القول في أن مدرسة الحرب عند عبد القيس لم يكن لدى شعرائها كبير وقت للتنقيح والتحرير فجاء شعرهم في مقطوعات ولكن ذلك لا يثبت أمام الدراسة إذا ما عرفنا أن منصفة المفضل ومفضلية يزيد السينية ومفضلية ثعلبة الفائية قصائد طويلة وفيها جهد وعناية واهتمام بتصوير الحرب وما يتصل بها من أسلحة وفنون في القتال.

وحاول بعض الباحثين^(٢) أن يربط بين المقطوعة ودرجة الانفعال وبين المقطوعة والغرض فالشعر إذا قيل وقت الانفعال النفسي فإنه يكون في صورة أبيات قصيرة وعندما يتناول خبراً أو يروي حادثة مختصرة أو يقول حكماً فإنه يكون أقرب إلى نظام الإيجاز والقصر وعندما يريد أن يبرهن على قدرته الشعرية يعمد إلى التنقيح والإطالة، ونحن إذ لا ننكر طبيعة الغرض وظروف الموضوع ودرجة الانفعال إنكاراً تاماً إلا أن هذا غير محتمل في كل الحالات وعند البحث والتقصي لا تنهض تلك العوامل دليلاً وحيداً على ذبوع المقطوعات الشعرية.

ومن الاحتمالات القائمة في أمر هذه المقطوعات كذلك عدم وجود شعر غزلي عند العبيدين باستثناء غزل المثقب ونحن ندرك أن الغزل كان يتصدر القصائد الجاهلية وأن الشاعر كان يطيل في هذا الغزل بل في بعض الأحيان يستغرق القصيدة كلها ويكون الغرض الأساسي فيها كما في معلقة امرئ القيس.

(١) انظر: ديوان عبد القيس.

(٢) إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر ١٧٧، وجرجي زيدان: تاريخ أداب اللغة العربية ٦٧/١ .

فالإطالة والاستغراق في الغزل من ناحية «الكم» ينقلان الشعر من المقطوعة إلى القصيدة، ولذا فإن ظاهرة اختفاء لوحة الغزل في موضوعات العبيدين تقوم إحدى الاحتمالات في شيوع المقطوعات عندهم.

والواقع أن كل الاحتمالات التي ذكرناها قائمة ولكننا لا نرجح واحداً منها لأن الكثير من شعر عبد القيس لم يصل إلينا، فإذا عثرنا على نصوص كاملة وقصائد تامة غير التي بين أيدينا جاز أن نصل إلى حلول أخرى مريحة وموافقة.

ومع ظاهرة انتشار المقطوعات عند العبيدين تبرز ظاهرة أخرى وطيدة الصلة بها وهي وحدة الموضوع.

فنحن ندرك أن هذه المقطوعات تعالج كل واحدة منها موضوعاً واحداً لا يتسع المجال لأكثر منه، بل إن قصر المقطوعة لا يسمح بتعدد موضوعاتها وكثرة أغراضها ويمكننا أن نضع عنواناً مناسباً لكل مقطوعة تحمل موضوعاً معيناً، وأمامنا كما أشرنا عدد هائل من المقطوعات.

فمقطوعة يزيد بن الخذاق القافية تأتي تحت عنوان «شاعر يرثي نفسه» ومقطوعة سويد الميمية بعنوان «يوم القطيف» ورائيته بعنوان «دوسر» و«نهاية زوجة» لأم النحيف، و«يأس من البقاء» للممزق، و«صديقان» للجمال، و«ذم الفراق» لشاعرة عبديّة و«رسالة» لعمر بن أسوى، و«مصرع هداج» لحداد بن ظالم و«هراوة عبد القيس» لعمر بن الحاربي و«غدر» لجذل بن أشمط و«من أرض المعارك» لثعلبة بن مالك وغيرها من الأمثلة.

ولقد رأينا فيما سبق أن بعض الرواة ومنهم الباحثي اختار عناوين للأبواب والمقطوعات التي ذكرها في حماسته وبلغت أكثر من مئة وسبعين مقطوعة شعرية ومعنى هذا أن الباب الواحد كان يتسع لقراءة تسع مقطوعات.

فمقطوعة عمرو بن أسوى القافية جاءت تحت باب «ما قيل في صحة المودة وحفظ الإخاء» ومقطوعة جذل بن أشمط تحت باب «ما قيل في البقاء وحذر الموت وترقبه وقلة الحيل» ومقطوعة أنس بن مساحق تحت باب «ما قيل في صغير الأمور وكبيرها» وهكذا

فإن هذه الأمثلة وغيرها أدلة على وحدة الموضوع في شعر العبيدين.

ويبقى أمامنا من شعر عبدالقيس القصائد الطويلة، فهل توفرت فيها وحدة موضوعية؟ قد يكون هذا محتملاً إذا تجاوزنا المقدمات والنهايات لتلك القصائد ولكننا نعلم أن بناء القصيدة الجاهلية نظام متوارث يضم مقدمة تتناول الطلل والغزل والوصف مجتمعة أو متفرقة، ويخوض في موضوع أنشئت القصيدة من أجله وبعد ذلك تنتهي بما تنتهي به، فإذا أخذنا هذا كله في الاعتبار لا يتبقى عندنا إلا ثلاث قصائد اثنتان ليزيد بن الخذاق وواحدة لثعلبة بن عمرو توفرت فيها الوحدة الموضوعية وكلها في موضوع واحد هو شعر الحرب.

عدم الحرص على المقدمات وندرة التصريح:

لعل من أعرق الظواهر الفنية التي أرسى دعائمها شعر الجاهلية المقدمة بأنواعها المختلفة، وتمتاز المقدمة الطللية والغزلية من بينها بأنهما أكثر المقدمات انتشاراً في صدور القصائد الجاهلية.

وفي الشعر الجاهلي قصائد كثيرة بدون مقدمات، لم يفتتحها الشعراء بالطلل أو الغزل بل كانوا يشرعون في موضوعاتهم وأغراضهم الأساسية دون تمهيد وبلا مقدمة.

والأمر مع شعراء عبدالقيس أنهم لم يحرصوا على مثل تلك المقدمات وإنما كانوا يدخلون مباشرة إلى أغراضهم، فهم لا يهيئون الأذهان بل ولا يستأذنون في استقبال الموضوعات الأساسية ومن هنا قل وجود المقدمات في أشعارهم.

فيزيد بن الخذاق يبدأ قصائده بلا مقدمات ويتقدم مباشرة إلى أغراضه الأساسية وهي الحرب والقتال، ففي قصيدته الدالية يتحدث عن فرسه سبحة وشكة سلاحه فهو مقاتل شجاع وثائر متمرّد، خرج على سلطان النعمان بن المنذر ملك الحيرة ونعته بالغدر والخيانة فقال:^(١)

(١) المفضليات رقم ٨٧ ص ٢٩٠ .

أعددت سبحةً بعدما قرحتُ
ولبستُ شِكةَ حازم جلد
نعمان إنك خائن خدع
يخفي ضميرك غير ما تبدي

وفي قصيدة أخرى له يتحدث عن فرسه الشموس وشكة سلاحه والمناذرة مقدمة بين
يدي موضوعه فيقول: ^(١)

ألا هل أتاها أن شِكةَ حازمٍ
لديّ وأني قد صنعتُ الشُّموسا
أقيموا بني النعمان عنا صدوركم
وإلا تقيموا كارهين الرؤوسا

وحدار بن ظالم وهو يتحدث عن مصرع هداج خطيب عبدالقيس وللاعب الميسر
فيها، لم يستخدم المقدمات وإنما باشر موضوعه في أن قتله كان على يد رجال ابن
ضجغم فقال: ^(٢)

لعمري لقد أردت سيوف ابن ضجعمٍ
غداة التقوا منا خطيباً وياسراً

وبدأ المثقب قصيدته البائية في الكرم والضيافة دون أن يلجأ إلى المقدمة، عن ضيف
طرق بيته ليلاً، في فصل الشتاء فلقيه بالترحاب وقال: ^(٣)
وسار تعناه المبيت فلم يدع

(١) المفضليات رقم ٧٨ ص ٢٩٧ .

(٢) محمد بن حبيب: أسماء المغتالين (نوار المخطوطات) ١٢٧/٦ .

(٣) ديوان المثقب العبدى ١١٧ .

له طامس الظلماء والليل مذهباً

فلما أتاني والسماء تبيله

فلقيته: أهلاً وسهلاً ومرحباً

والأمثلة التي تستوقفنا في هذا المجال كثيرة، وعندما أجرينا إحصائية لمقدمات القصائد عند العبيدين وجدنا أن كل شعر يزيد بن الخذاق وشعر أخيه سويد بلا مقدمات. وكل شعر الممزق باستثناء قصيدتين بدون مقدمات، وكل شعر ثعلبة ما عدا قصيدة واحدة بدون مقدمات.

ويلحق بهؤلاء كل شعر النساء وشعر جذل بن أشمط وشعر عمرو بن أسوى كذلك قصائد كل من عمرو بن سلمة، وأنس بن مساحق، وتوبة بن المضرس وعمرو المحاربي وربيع بن توبة وآخرين.

وهذا الإحصاء لمقدمات شعر العبيدين يجعلنا نتساءل عن ظاهرة عدم الحرص على المقدمات وقلتها في شعرهم؟

نحن أمام أمرين: الأول أن هذه المقدمات ضاعت مثل سائر الأشعار الجاهلية التي لم تصل إلينا، وهذا كما ذكرنا أمر مقبول وله ما يبرره، ومن جانب آخر فإن شعر القبيلة لم يصل إلينا مجعاً كاملاً لنقطع فيه برأي.

ويبقى أمامنا أن نرجح الأمر الثاني وهو أن شعر العبيدين كما رأينا شعر مقطوعات، والمقطوعة لا تتسع للمقدمات، إذ هي تعالج موضوعاً واحداً معيناً وتباشر نقل الأخبار وعرض الأغراض بلا تمهيد ومن هنا كانت ظاهرة عدم الحرص على المقدمات في الشعر العبيدي.

ونخلص من المقدمات إلى التصريح، فقد جرت عادة الشعراء أن يصرعوا قصائدهم،

والتصرّيع صفة موسيقية كان الشعراء إليها يميلون، وهي في الشعر الجاهلي من أهم ميزات القصائد الطوال، فقد عرفنا أن بعض تلك القصائد تصرع أكثر من مرة، فمعلقة عنتره صرعت مرتين، ومعلقة عمرو بن كلثوم كذلك بل وزاد التصرّيع في معلقة امرئ القيس إلى ثلاث مرات.

وأما التصرّيع في الشعر العبدى فقد جاء نادراً فالفضل العبدى يبدأ قصيدته الطويلة بدون تصرّيع فيقول: ^(١)

ألم تر أن جيرتنا استقلوا
فنيتنا ونيتهم فريق

كذلك يبدأ الممزق أصمعيته المشهورة «وهي أيضاً طويلة» بلا تصرّيع فيقول: ^(٢)
أرقت فلم تخذع بعيني وسنة
ومن يلق ما لاقيت لأبد يأرق

وبدأ عمرو بن أسوى مقطوعته الشعرية دون أن يلجأ إلى التصرّيع ^(٣)

وعندما أجرينا إحصاء للمطالع المصرة أيضاً وجدنا أن جميع شعر العبديين باستثناء شعر المتقّب، ومفضلية الممزق، ومرثية يزيد بن الخذاق، وفائية ثعلبة بن عمرو، ودالية جزل بن أشمط، ورائية مسعود بن سلامة جاءت بدون تصرّيع.

ولا نستغرب مثل هذه النتيجة التي تشير إلى أن أكثر من ستين قصيدة شعرية غير مصرعة.

والسبب أيضاً في ندرة هذه المطالع المصرة يعود إلى وفرة المقطوعات فكما أن المقطوعة لا تتسع للمقدمة كذلك لا يشترط في المقطوعة أن تكون مصرعة.

(١) الأصمعيات: أصمعية ٦٩ ص ١٩٩ .

(٢) نفس المصدر، أصمعية ٥٨ ص ١٦٤ .

(٣) ياقوت: معجم البلدان ١٣٤/٥ .

أما القصائد الطويلة التي جاءت بلا تصريح مثل منصفة المفضل وأصمعية الممزق فالأمر فيها أن تكون قد تشبهت بالمقطوعات فلم تصرع أو أن المفضل والممزق لم يصرعا في هاتين القصيدتين عزوفاً عن التقليد الذي جرى عليه غيرهم من الشعراء.

ومن كل ما قدمنا نخلص إلى القول في أن الشعر العبدى الذي بين أيدينا ندرت فيه المطالع المصرة وقلت العناية بالمقدمات الشعرية.

الواقعية:

إذا كان مفهوم الواقعية هو تصوير واقع الحياة والتعبير عنه بصدق وأمانة فإن الشعر الجاهلي نقل لنا واقع حياة القبائل والمجتمعات الجاهلية نقلاً صادقاً وعرضاً أمامنا صوراً حية من الطبيعة حولهم فالحياة واسعة كبيرة، فكان شعرهم عظيماً كبيراً تحدث عن كل جوانب تلك الحياة.

والشعر العبدى جزء من التراث الشعري الجاهلي نقل لنا واقع حياة عبدالقيس واتخذ تلك الحياة بكل أبعادها وأعبائها مادة لموضوعاته.

تحدث الشعراء عن الصحراء القاسية، بشعابها، وطرقها، بسمومها التي تغير ألوان الرجال وشدة الهاجرة منها، بليلها الرهيب الموحش، بحيواناتها وطيورها وحشراتنا، بنجومها وسمائها وغيثها.

ووصفوا الناقة وهي تجتاز تلك الصحراء في ليل موحش، وفلاة مقفرة تدك الأرض بأقدامها، نشيطة، سريعة، غير عابئة بالمتابع والمصاعب، فالمنقب يقول:^(١)

(١) ديوان المنقب العبدى ٢٤١، ٢٤٩، ٢٥٢ .

(٢) اليعملة: الإبل النجيبة المطبوعة على العمل (لسان العرب ١٣/٥٠٤) وفي ديوان المنقب ٢٤٢ الناقة السريعة السير، السرى: السير في الليل، الاجواز، الاوساط، الرسيم: ضرب من السير مؤثر في الأرض.

(٣) الصدى: الذكر من البوم، وجاء في «اللسان ١٤/٤٥٤» والصدى طائر يصيح في هامة المقتول إذا لم يثار له وقيل هو طائر يخرج من رأس المقتول ويدعى الهامة وفي ديوان المنقب: الصدى هو الطائر الذي يصير بالليل ويقفز ويطير ويبدو أنه الصحيح.

ويعمَلَة أرمي بها البِيدَ في السُرى
يَقْطَعُ أَجْوَازَ الْفَلَاةِ رَسِيمُهَا^(٢)
أَمْضِي بِهَا الْأَهْوَالَ فِي كُلِّ قَفْرَةٍ
يَنَادِي صَدَاهَا آخِرَ اللَّيْلِ بَوْمُهَا^(٣)
أَنْصُ السُّرَى فِيهَا بِكُلِّ هَجِيرَةٍ
تَغْيِرُ أَلْوَانَ الرِّجَالِ سَمُومُهَا

ويتحدث المثقب كسائر الناس ومن واقع حياته عن الهموم والنجوم، فقد ضاق صدره
ذات ليلة وزارته الهموم، فحرمته النوم وطالت ليلته وهو يرقب نجومها:^(١)
كَأَنِّي أَقَاسِي مِنْ سَوَابِقِ عَبْرَةٍ
وَمِنْ لَيْلَةٍ قَدْ ضَافَ صَدْرِي هَمُومُهَا
تَرَدُّ بِأَثْنَاءِ كَأَنَّ نَجُومَهَا
حَيَارَى إِذَا مَا قَلْتُ غَابَ نَجُومُهَا

ووصف العبدون البيئة البحرية بما فيها من سفين وملاحة وأنهم يسخرون البحر
في النواحي التجارية، فيزيد بن الخذاق يصف لنا الملاحين وهم يدفعون الضرائب
التجارية فيقول:^(٢)

أَلَا ابْنَ الْمَعْلَى خَلْتَنَا أُمَّ حَسْبَتْنَا
صَرَارِي نَعْطِي الْمَاكْسِينَ مَكُوسَا

وهذا المعنى يؤكد المثقب وهو على ظهر ناقته كملاح علت سفينته موج البحر تصعد

(١) ديوان المثقب العبدى ٢٣٦، ضاف صدري همومها: نزلت به الهموم، أثناء: أطراف الحبال، وقيل كل ما
انثنى وانعطف من الجبال والوديان.

(٢) المفضليات : مفضلية ٧٩ ص ٢٩٧ .

(٣) ديوان المثقب العبدى ٢٤٧، الاقتاد: عيدان الرجل، حمشة الشوى: دقيقة الساقين، والشوى اليدان
والرجلان، يجور بها: يعدل بها ويميل، والصراري: الملاحون.

(٤) ديوان المثقب العبدى: ١٤٩ الأباهر: أوردت الدم، الشؤون شعب الرأس.

تارة وتهبط أخرى فيقول: (٣)

كأني وأقتادي على حَمَشَةِ الشَّوَى
يجورُ صراريُّ بها ويُقيمها

ويذكر المنقب السفين وهو يتحدث عن البخت في طعائن فاطمة فيقول: (٤)

يشبهن السفين وهو بخت
عراضات الأباهر والشؤون

وفي واقع حياة العبيدين الحربية نقل لنا الشعر الثورة التي حملوا لواءها ضد المناذرة، والحرب التي خاضوها مع القبائل، والأسلحة التي استخدموها والكتائب التي أغارت عليهم فالمنقب العبدى يصف كتيبة النعمان «الجأء» بأنها شديدة المراس قوية البطش، ضخمة عظيمة، تحمل الموت والدمار لكل من تمضي إليه، تضم فرقاً متقدمة وهو ما يعرف بلغة الحرب المعاصرة «الفرق الاستطلاعية» وتضم هذه الفرق النهابين والمروعين الذين يغيرون على القبائل ويحملون الرعب إليها: (١)

وجأءاء فيها كوكبُ الموت فخمة
تقمص بالأرض الفضاء وتيدها
لها فرط يحمي النهاب كأنه
لوامع عقبان مروع طريدها

وعلى ساحة المعركة وقد لمعت السيوف وتعاورت الرماح وسالت الدماء وتطايرت الرؤوس نقل لنا المفضل صورة حية من واقع المعركة، تلفت بعينه ماذا رأى؟ بنائاً مقطوعة، وجماجم مسلوقة، وجثثا تناثرت أشلاؤها، وتقطعت أوصالها، وانظر تجد على الساحة الكبيرة عدداً من السادة يلفظون انفاسهم، وكثيرا من الفتيان يلقون الموت باسمين، إنها

(١) ديوان المنقب العبدى ١٠٧ .

(٢) الأصمعيات: أصمعية ٦٩ ص ١٩٩ .

(٣) الأصمعيات.

صورة أخاذة من واقع حياة الحرب بين قبيلتين هما لجيم وعبد القيس^(٢).

وينقل المفضل أخبار القتلى بالتفصيل فهم الحارث بن الوضاح زعيم بني لجيم وثلعة بن سيار فارسهم وابن قران فارس آخر فيهم ومن العبيد قتل فتى كريم النسب^(٣):

قتلنا الحارث الوضاح منهم
فخر كانه سيف دلق
وقد قتلوا به منا غلاماً
كريمًا لم تؤشبه العروق
وسائلة بثعلة بن سير
وقد أودت بثعلة العلوق
وأفلتنا ابن قران جريضاً
تمر به مساعفة حروق

ومثل هذه التفاصيل عن القتلى يذكر مالك بن ثعلبة مقتل أربعة من أعدائه وهم «شريح، وابن أم غضبان، وحبتر، ومسمع» وقد تناثرت جثثهم على أرض المعركة وصدرت عنها الضباع والنسور بعد أن شبت منها: ^(١)

تركنا شريحاً قد علتة بصيرة
كحاشية البرد اليماني المحبر
ونحن فجعنا أم غضبان بابنها
ونحن كسرنا الرمح في عين حبتر
ونحن تركنا مسمعا متجدلا
رهينة ضبع تعتريه وأنسر

وخارج دائرة الحرب والمعارك نجد العبيد واقعيين في نظرتهم إلى الموت فهو يصيب كل شيء، يطوي الأمم، ويغير من صالح إلى طالح والأمثلة قائمة في تاريخ الإنسانية في نهاية إرم وعاد وقبيلة إباد وشخصيات قديمة كثيرة، إنها حتمية الموت

(١) البلاذري: فتوح البلدان ١١٥/١ .

فالدهر قصير الأيام، غرير الأحداث.

وهذه النظرة إلى واقع الحياة والموت نقلها لنا جذل بن أشمط حين خاطب ابنه قائلاً: (٢)

أمام إن الدهر أهلك صرفه إرماءً وعادا
وابتز داوداً وأخرج من مساكنها إيادا
وسما فأدرك أسعد الخيرات قد جمع العتادا
فاحتطه والدهر يعقب بعد صالحة فسادا

ونجد الواقع في طعائن فاطمة، فالمتقّب يتتبع أماكنها، ويتغنى بها، ويهتم بتحديد «المناطق الجغرافية» التي تعبرها، فالطعائن تخرج من «ضبيب» إلى «شراف» إلى «ذات رجل» وتكون «الذرائح» عن يمينها وهي تجتاز منطقة «فلج» إلى أرض مستوية، وهنا تبدو الطعائن سفناً على امتداد البصر تعبر بحر الرمال، فهذه الأماكن تحمل إلى الشاعر أجمل الذكريات: (١)

لمن ظعن تطلّع من ضبيب
فما خرجت من الوادي لحين
مررن على شراف فذات رجل
ونكبن الذرائح باليمين
وهن كذاك حين قطعن فلجاً
كأن حملوهن على سفين

والمتقّب يخصص نوع الإبل التي ظعنن بفاطمة، فهي إبل خراسانية عراض الظهور، ضخام الرؤوس: (٢)

(١) ديوان المتقّب العبدى ص ١٤٢ .

(٢) نفس المصدر ١٤٩ .

(٣) نفس المصدر ١٥٦ .

يشبهن السفين وهن بخت عراضات الأباهر والشؤون

ويتحدث المثقب بدقة وعناية في واقع هذا الظعن، فنحن نرى حرصاً من صاحبة
المثقب على تنقيب «وصواصها» ورفع جانب من الستائر الرقيقة على الحداثة لتشاهد
الأحبة عند الوداع وتتنظر إلى من يودعها حين الفراق فتبدو محاسنها وجمال أثوابها: (٣)

ظهري بكلية وسدلي رقماً
وثقبي الوصاوص للعيون
أرين محاسناً وكنن أخرى
من الديباج والبشر المصون

والمزق كالمثقب ينقل لنا واقع حزنه وفزعه من رحلة صاحبتة وقد أزمع أهلها
الرحيل عند الصباح فراح يحدد ويعدد الأماكن التي تعبرها الطعائن فقال: (١)

لدى شال أحداج الفطين غدية
على جلها الوادي مع الصبح توسق
تطالع ما بين الرجا وقرقر
عليهن سربال السراب يرقرق

ويرتبط بالواقعية مظهر هام من مظاهرها هو الصراحة، فحياة العبيدين في بيئة
مغرية بالبقاء فيها، والمحافظة عليها من الحيرة المتسلطة والقبائل الطامعة، جعلتهم ينجون
منها صريحاً في هذا الواقع، مع أنفسهم ومع من حولهم.

وهذه الصراحة أورثتهم جانباً كبيراً من الإيذاء والاعتداء، فهاجموا من قبل المناذرة
واستبيحت منازلهم، وكثرت الغارات عليهم، وهذا ما دفع بعض شعرائهم إلى الثورة على

(١) المفضليات ٣٠١ .

(٢) المصدر السابق ٢٩٥ .

النعمان ملك الحيرة، وأطلق الشاعر يزيد بن الخذاق صيحة مدوية عندما رأى هول الضربة، وقسوة الهجمة، وشراسة الغارهِ على بني قومه العبيدين.

وكان صريحاً أمام النعمان فلا مهادنة ولا مودة، وكيف يأتي الود؟ وقد رأى أهله وأبناء قبيلته يسامون الأذى ويساقون إلى الموت وإنما هي ثورة على النعمان لأنه مخادع وخائن، يتعمد المكر ويبيت الغدر: ^(٢)

لن تجمعوا ودي ومعتبتي
أو يجمع السيفان في غمد
ومكرت معتلياً مذلتنا
والمكر منك علامة العمد

وإزاء هذه الصراحة أعلن أنه يستعد للحرب ويتهياً للثورة وليكن ما يكون: ^(١)
نعد ليوم الروع زعفاً مفاضة
دلاصاً وذا غرب أخذ ضروسا

أما المثقب فقد كان رجلاً حكيماً، يعلو فوق الجراح، لذلك اعترف للنعمان بالقوة والغلبة وهدأ الخواطر الثائرة وأعلن أن كثيرين غير عبد القيس أصابهم بطش النعمان والتمس منه العفو والصفح عن أسرى قبيلته، واستجاب النعمان وأطلق سراحهم وكانت فرحة غامرة:

وأي أناس لا يبيع بقتله
يوازي كبيدات السماء عمودها

~~~~~

فانعم «أبيت اللعن» أنك أصبحت  
لديك لكيز كهله ووليدها

---

(١) المفضليات ٢٩٧ .

## وأطلقهم تمشي النساء خلالهم مفكرة وسط الرجال قيودها

إنها جوانب من واقع الحياة، فيها صراحة وصدق، وفيها اعتراف بواقع يعيشه الإنسان، فالحياة هذا شأنها، مختلفة اتجاهاتها، الفرسان يثورون والعقلاء يصلحون، والحرب تشتعل والسلم يطفئ لهيبها ويمنع استمرارها.

وإلى جانب ماذكرنا من أمثلة لن أغفل منصفة المفضل وغيرها من المنصفات الشعرية عند العبددين وجميعها تعمق وترسخ واقعية الصراحة ومبدأ الصدق عندهم.

### التصوير الفني:

الأدب روح الحياة، وجدولها الرقراق، يصب في نهر الوجدان الإنساني، وينساب صافياً رقيقاً في أوصال المشاعر البشرية، والخيال جوهر الأدب، في ظله تتلاقى الأشياء في إحاء جميل، وتتعانق في مودة لغوية، ومن هنا رقص الشعراء في سلاسل ذهبية من التشبيهات والاستعارات، وقدموا لنا عبر الزمن صوراً حية، وباقات شعرية، ترنو في شموخ، وتتطلع في كبرياء<sup>(١)</sup>.

والميل إلى التصوير فطرة إنسانية، فالمرء أبداً شغوف بنقل ما حوله من مشاهد سبق غيره إليها<sup>(٢)</sup> فأجاد في تقديمها، وبرع في عرضها، والصورة الشعرية تجذب فينا مشاعرنا، وتشد عقولنا، لأن رسم الواقع الإنساني بلوحات فنية باهرة هو الذي يجعلنا نستمتع بها، ونقبل عليها.

وقد شاع التصوير في شعر العبددين، واتسعت فيه مكانة للتشبيه والاستعارة ونزع

(١) دكتور مصطفى ناصف: الصورة الأدبية ٥٩ .

(٢) عبد الحميد حسن: الأصول الأدبية ١٢٠ .

(٣) دكتور شوقي ضيف: العصر الجاهلي ٢٢٦ .

الشاعر العبدى منزعاً حسيّاً في صوره، ينتزعها من عالمه المحيط به ومن واقعه الذي يعيش فيه، وقد منحته البيئة وضوحاً وبساطة في الرؤيا، ومن هنا جاءت صوره حسية واضحة، لا غموض فيها، ولا تعقيد وكما يقول الدكتور شوقي ضيف: <sup>(٣)</sup> «ليس فيها أشراك ذهنية تضل في ممراتها وشعبها الفكرية».

فالشاعر لم يخرج أبعد من حدود قبيلته وبيئته، ولم يتخيل إلا ما يراه حوله وما هو ماثل أمامه، فصوره في أغلبها بصرية، تمتاز بالبساطة وتعتني بالحركة.

فعندما أراد المفضل العبدى أن يصور لنا لقاء بني لجيم مع قومة في معركة طريف وأن يحدثنا عن كثرة عددهم وشدة اندفاعهم، استعمل صورة السحاب وصورة السيل فاللجيميون سحاب منهمر شديد البرودة والعبديون سيل متدفق يغمر كل ما حوله وتضييق به الطريق، والسحاب والسيل منظران حسيان، مشاهدان من واقع البيئة: <sup>(١)</sup>.

**فجاءوا عارضاً برداً وجئنا**

**كمثل السيل ضاق به الطريق**

وفي تصوير شدة الضربة في مقتل الحارث الوضاح زعيم بني لجيم استخدم المفضل السيف صورة حسية، مشاهدة وواضحة فقال: <sup>(٢)</sup>

**قتلنا الحارث الوضاح منهم**

**فخر كانه سيف دلق**

وشاعر عبدى يصف لنا رمحه وقد اخترق جسم عدوه، فاختر خراطوم النسر صورة مرئية يعبر بها عن سرعة الطعن وقوة الضرب فقال: <sup>(٣)</sup>

**تركت الرمح يبرق في صلاه**

**كان سنانه خرطوم نسر**

(١) الأصمعيات: ١٩٩ .

(٢) الأصمعيات: أصمعية ٦٩ ص ١٩٩ .

(٣) المفضليات: مفضلية ١٣ ص ٧٠ .

(٤) الأصمعيات: أصمعية ٥٨ ص ١٦٤ .

(٥) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٣٨٦/١ .

والممزق في معرض حديثه عن ناقته، وتأثير رجله في جنبها، وقد انحصر عنه الوبر  
تاركاً أثراً من الملاسة، اختار أفحوص القطا صورة حسية فالقطاة تعد مكانها بمهارة،  
وتسويّه بدقة لتطمئن إليه وتبيض فيه: (٤)

وقد تخذت رجلي لدى جنب غرزها  
نسيفاً كأفحوص القطاة المطرق

ويزيد بن الخذاق أراد أن يعبر عن حالته وهو يدرج في القبر إذ يصبح كالمخراق  
التي يلهو بها الصبيان، وكان هم أهله أن يعلنوا نبأ موته ليقتسموا أمواله وقد أسدل  
الستار على حياته فهي صورة من الواقع المشاهد صورها يزيد قائلاً: (٥)

وحملوني وقالوا أيما رجل  
وأدرجونني كأنني طي مخراق  
وقسموا المال وارفضت عوائدهم  
وقال قائلهم: مات ابن خذاق

والمتقّب وهو يتحدث عن تربية صاحبه المصقولة البيضاء، وقد تدلى عليها الذهب،  
فأضفى عليها جمالاً، لجأ إلى لون العاج الأبيض ونقل لنا هذه الصورة الحية فقال: (٦)

ومن ذهب يلوح على تريب  
كلون العاج ليس بذي غضون

والمتقّب أيضاً وهو يتحدث عن عفة أقواله وبعده عن الولوغ في أعراض الناس وعدم  
غيبتهم تناول صورة السبع الجائع فقال: (٧)

لا تراني راتعاً في مجلس  
في لحوم الناس كالسبع الضرم

(١) ديوان المتقّب العبدى ١٥٩ .

(٢) ديوان المتقّب العبدى ٢٢٩ .

هذه الأمثلة وغيرها تنهض أدلة على أن صورة الشاعر العبدى حسية تمتاز بالبساطة والوضوح، ولا تنقصها الحركة، ومنتزعة من بيئته وحياته.

ولكن هل معنى ذلك أن نقول بنفى الصور العميقة والتي فيها جانب من الغموض في شعر العبدىين.

مثل هذه الصورة نلقاها عند المثقب وهو يصف لنا سرعة ناقتة، فقد عقد مقارنة بين سرعة حركة اليدين عند النائحة ابنة الجون وترجييعها لتدق صدرها، وهي تحمل مجلدها، وسرعة حركة اليدين عند الناقة وهي ترجعها إلى صدرها، مسرعة في عدوها، نشيطة في حركتها وتزعم الأخبار أن ابنة الجون امرأة من كندة، كانت تستخدم المجلد عندما تنوح على الموتى ويبدو أنه كان لها شهرة في هذا المجال وقد نقل لنا المثقب هذه الصورة فقال: (٣)

كأنما أوب يديها إلى حيزومها فوق حصى الفدغد  
نوح ابنة الجون على هالك، تندبه رافعة المجلد

ويهمنا أن نشير إلى أن شعر العبدىين لم يخل من الصور الممتدة تضم عناصر الحركة والصوت واللون ولا تنقصها البراعة في عرض المشاهد وفنية التصوير.

فالمفضل يصور لنا بداية معركة طريف، رماية كثيفة من السهام، و ويتقدم الفرسان، والأمر في هذه الرماية كما يقولون في الحرب المعاصرة «لتغطية زحف المشاة». - ويتقابل الجمعان، ويبدأ الطعان بالرماح، وعندما تشتد الحرب ويستعر أوارها يترك المحاربون الرماح، ويسلون السيوف يضربون الهامات ويفلقون الرؤوس ويذيقونها طعم الروى، وتنجلي المعركة عن قتلى من الفتیان، فخر الشباب وزينة القبيلة وقد قلص الموت أفواههم

(١) ديوان المثقب العبدى ٢٨، أوب: سرعة تقليب اليدين في السير، الحيزوم: الصدر ووسطه، الفدغد: الأرض الغليظة ذات الحصى، أو المكان المرتفع الذي فيه صلابة، المجلد: خرقة سوداء تشير بها النائحة، وفي «اللسان» المجلد قطعة من جلد تمسكها النائحة بيدها وتلطمه بها وجهها وخدها، وقال أبو عبيد المجلد خرقة تمسكها النائحة بيدها إذا ناحت.

(٢) الأصمعيات: ١٩٩ .

ورقق شفاههم، وفي الساحة من الفرسان قل أن نجد فيهم فارساً صريعاً بدون سهم قاتل، ويحاول بعض الفرسان الحركة والقيام، لكن السنان الذي أصابه أو القرن الذي نفذ فيه يستقر في جسمه ويحمل له الموت، وبعد ذلك تشبع السباع من جثث الفريقين وتمضي وهي تتجشأ لكثرة ما تناولت من الطعام، ويسيطر الحزن والألم، وتبكي النساء قتلى الطرفين وتصل أصواتها من شدة البكاء.

إن المفضل تناول من قلب المعركة هذه الصورة الفنية، دافقة الحيوية وفيها الصدق والجمال حتى كأنما هي تتحرك أمامنا في مشاهد واضحة وسريعة الحركة، وجميلة العرض: (٢)

وَبَسْلُ أَنْ تَرَى فِيهِمْ كَمِيًّا  
كَبَا لِيَدِيهِ إِلَّا فِيهِ فَوْق  
يَهْزَهْزُ صَعْدَةً جَرْدَاءَ فِيهَا  
سَنَانُ الْمَوْتِ أَوْ قَرْنُ مُحِيقٍ  
فَأَلْقَيْنَا الرِّمَاحَ وَكَانَ ضَرْبًا  
مَقِيلَ الْهَامِ كُلِّ مَا يَذُوقُ  
كَأَنَّ هَزِيرَنَا يَوْمَ التَّقِينَا  
هَزِيرَ أَبَاءٍ فِيهَا حَرِيقُ  
بِكُلِّ مَجَالَةٍ غَادَرَتْ خَرْقًا  
مِنَ الْفَتَيَانِ مَبْسَمَةٍ رَقِيقِ

وبعد أن عرضنا للصور الحسية، وتناولنا صوراً واضحة وعميقة وممتدة ندرك أن التشبيه يعتمد الموازنة الواضحة ويكتفي بالملاحظة الدقيقة ويجسم لنا الصورة تجسماً يبرز جمالها، ويكون من المفيد أن نتناول روافد هذا التشبيه عند العبيديين وهي كثيرة لكننا سنقف عند أهم رافدين هما: البيئة البحرانية والحياة الإنسانية.

(١) ديوان المنقّب العبدّي: ١٤٨ .

(٢) نفس المصدر ١٨٨ .

البيئة البحرانية : لقد عرفنا أن العبدية يقتربون من البحر فهم ينتزعون تشبيهاتهم  
من مشاهداتهم البحرية كالسفينة واللؤلؤ والملاحين.

فالسفينة يستغلها المثقب في تشبيهاته عندما يصف طعائن فاطمة فيقول<sup>(١)</sup>:

وهن كذاك حين قطعن فلجاً

كأن حمولهن على سفين

والناقة التي تحمل المثقب وتجتاز الرمال سفينة طويلة تمخر عباب البحر<sup>(٢)</sup>:

كأن الكور والأنساع منها

على قرواء ماهرة دهن

ويصف المثقب دموه الغالية بأنها حبات من اللؤلؤ النفيس وقد انفرط عقدها  
فتبعثرت.<sup>(٣)</sup>

ويتناول المفضل نفس التشبيه فيصف انحدار دموه بلؤلؤ يتحدر في عراه<sup>(٤)</sup>:

فدمعي لؤلؤ سلس عراه

يخر على المهاوي ما يليق

وينتزع يزيد بن الخذاق تشبيهه من واقع الملاحين فيخاطب ابن المعلى قائلاً لا تظننا  
كالملاحين الذين يرضون بالجور ويدفعون المكوس والضرائب:<sup>(٥)</sup>

ألا ابن المعلى خلطنا وحسبتنا

صراري نعطي الماكسين مكوسا

(١) نفس المصدر ٦٣ .

(٢) الأصمعيات ١٩٩ .

(٣) المفضليات: ٢٩٧ .

(٤) الأخفش: كتاب الاختيارين ٢٥٢ .

(٥) ديوان المثقب العبدية ٢٣ .

واستخدم العبيدون النخلة في تشبيهاتهم، فالمفضل وهو يصف سرعة فرس  
ابن قران وقد فرت من أرض المعركة، فعنقها نخلة طالت، يتقدم أمامها، وهي تمد بذنبها  
للخلف ليكون أشد لعدوها وأسرع في شرودها<sup>(٤)</sup>:

تشق الأرض شائلة الذناني  
وهاديها كأن جذع سحوق

ويستغل المثقب مظاهر العمران في البحرين وما فيها من قصور شاهقة فيعمد إلى  
تشبيه ناقته وقد سمت وطال سنامها بالقصر فيقول<sup>(٥)</sup>:

ينبي تجاليدي وأقتادها  
ناو كراس الفدن المؤيد

وهذا التشبيه وإن جرى عليه كثير من الشعراء إلا أن قصور البحرين وحصونها  
مشهورة وأخص بالذكر قصور سماهيج إحدى مدن البحرين وفيها يقول الشاعر أبو دؤاد  
الأيادي<sup>(١)</sup>:

وإذا أعرضت نقول قصور  
من سماهيج فوقها أطام

وفي تشبيهات العبيدين نجد اهتماماً بما عرفوا في بيئتهم من حيوان وطيور فالمثقب  
يصف ناقته بالنشاط والسرعة وكأن هراً قد علق يعقد حزامها وأنشب أظفاره فيها وهي  
تصده عنها، ولكن هيهات فهو يزيدها أذى وهي تسرع لتنجو منه وكأنها قطاة اشتد  
عطشها فهي تسرع في طيرانها حين ورودها<sup>(٢)</sup>:

كأن جنيباً عند معقد غرزها  
تراوده عن نفسه ويُرِيدُها

(١) الأصمعيات: ١٧١ .

(٢) ديوان المثقب العبيدي ٩٥، الجنيب: الهر، غرزها: رحلها، يريدها: يقصدها وروى أبو عبيده ويزيدها  
أذى كلما زاولته وأبعدته، وذكر الأنباري كان ابن أوى عند معقد غرزها. والجون: القطا. تقاذف: تباعد.

(٣) الأصمعيات: ١٦٤ .

(٤) ديوان المثقب العبيدي ١٧٤، الثفنات: ركب البعير وما يمس الأرض منه إذا برك، المعرس: مكان النزول  
آخر الليل، باكرات الورد: مبكرات، جون: سود.

تهالك منه في النجاء تهالكاً  
تقاذف إحدى الجون حان ورودها

وصورة الهر مألوفة عند العبيدين وعند غيرهم فالممزق يذكر مثل هذا قائلاً<sup>(٣)</sup>:

ترى أو تراءى عند معقد غرزها  
تهاويل من أجلاذ هر معلق

والمتقب يعود إلى تشبيه برك الناقة بآثار القطا عندما تعرس ليلاً فلا تحدث جلبلة  
ولا ضوضاء إنما هو نزول خفى فهو يقول<sup>(٤)</sup>:

كأن مواقع الثفنات منها  
معرس باكرات الورد جون

ويشبه ناقته بثور وحشي فيه سفعة وسواد وقد امتدت خطوط ملونة في ظهره  
ومناطق أخرى من جسده فيقول<sup>(١)</sup>:

كأنها أسفع ذو جودة  
يمسده الوبل وليل سد

ويشبه النسوة الظاعنات وقد اشترأت أعناقهن ومددن أبصارهن ينظرن إلى المودعين  
بغزلان تمد أعناقها إلى دانيات العضون<sup>(٢)</sup>:

كغزلان خذلن بذات ضال  
تنوش الدانيات من العضون

(١) ديوان المتقب العبيدي ٣٧ الأسفع: الثور الوحشي فيه سواد يضرب إلى حمرة، الجدة: خطوط في الظهر بيض وسود. يمسه: يطويه أي أنه أكل ما نبت الوبل عليه، وليل سدي: ليل ندى فالسدى مثل الندي، سد ما كان من السماء في الليل والندى ما كان منها في النهار.

(٢) ديوان المتقب العبيدي ١٥٤ خذلن: نافر، تنوش: تناول، ذات ضال موضع شبه الشاعر النساء بالغزال في مجال الأعين ودقة الأجسام ورشاقة القوام.

(٣) الحماسة الشجرية ٦/١ .

(٤) الأصمعيات ١٦٩ .

(٥) المفضليات ٢٨٧ .

ويشبه مسعود بن سلامة خيولهم بالنسور الجارحة قائلاً<sup>(٣)</sup>:  
معاقلنا في الحرب جرد كأنها  
أجادل في جو السماء كواسر

ويشبه المفضل كثافة النبال في أرض المعركة بالجراد فيقول<sup>(٤)</sup>:  
كأن النبل بينهم جراد  
تكفيه شامية حريق

ويختار ثعلبة بن عمرو الغدير ليشبه به درعه فشأبيت الغيث عندما تتساقط على  
الغدير تترك على صفحة مائه دوائر واهتزازات وهذا شأن الدرع فهي منسوجة من حلقات  
ومزودة على شكل هذه الاهتزازات<sup>(٥)</sup>:

بيضاء مثل النهى ريح ومدده  
شأبيب غيث بحفش الأكم صائف

والأمثلة في هذا المجال كثيرة وحسبنا أننا تناولنا نماذج من البيئة البحرانية بما  
فيها من بحر ونخل وقصور وبما يعيش فيها من حيوان وطيور .

الحياة الإنسانية: وأعني بها كل ما يمت بصلة إلى النواحي الاجتماعية والاقتصادية  
والنفسية، فناقاة المثقب وقد نهض آخر الليل يرحلها، ضاقت وتأوهت أهة الرجل الحزين  
الذي يذعن للقضاء النازل، وكأنما لسان حالها يقول «أما في نفس هذا الرجل من إشفاق  
يحملة على أن يرحمني ويرأف بي»، ويؤلم المثقب أن تشكو إليه ناقته فيستخدم التشبيه  
ليعبر لنا عن كل هذه الأحاسيس فيقول<sup>(١)</sup>:

إذا ما قمت أرحلها بليل  
تأوة أهة الرجل الحزين

(١) ديوان المثقب العبيدي ١٩٤، الوضين: الحزام، دينة: عاد.

(٢) العسكري: الصناعتين ٤٥٠ .

(٣) ابن طباطبا: عيار الشعر ٤٤٩ .

(٤) طه حسين: حديث الأربعاء ١٦٤ .

## تقول إذا درأت لها وضيئي أهـذا دينه أبداً وديني

ولقد ظلم أبو هلال العسكري هذا الشعر عندما عده من المعيب<sup>(٢)</sup> وجار عليه ابن طباطبا<sup>(٣)</sup> إذا اعتبره من الحكايات الغلقة وأنصفه الباحثون المحدثون وقال فيه طه حسين «إنه من أروع ما قاله الناس»<sup>(٤)</sup>.

والممزق عندما تهجم عليه الهموم، وتطارده الأهوال، يفزع إلى التشبيه بالرجل الملدوغ قائلاً<sup>(٥)</sup>:

## نبيت الهموم الطارقات يعدنني كما تعتري الأهوال رأس المطلق

وهذا التشبيه للمدوغ يتكرر عند المثقب وقد راح يضم رجليه إلى صدره مخافة أن يتسرب الألم إلى جميع جسمه ويقول<sup>(١)</sup>:

## فبت أضم الركبتين إلى الحشا كأنني راقي حية أو سليمها

ونخالة البيادر في مواسم الحصاد يستغلها المثقب في التشبيه بالحديد المتطاير من شدة القتال والمقارعة يشبه نخالة الأقواع التي تتطاير أثناء عملية تنقية الحب بعد الحصيد<sup>(٢)</sup>:

## وطار قشاري الحديد كأنه نخالة أقواع يطير حصيداً

(١) ديوان المثقب العبدى ٢٣٨ .

(٢) ديوان المثقب العبدى ١١٣ .

(٣) الأصمعيات: ١٩٩ .

(٤) البلاذري: فتوح البلدان ١١٥/١ .

(٥) ديوان المثقب العبدى: ٦٥ والأنماط ثياب من صوف ملونة تطرح على الأحداج والرقم ضرب من الثياب المخططة والشقر الدم واللون الأحمر.

والحرائق في الغابات استخدمه المفضل عندما تحدث عن أصوات المقاتلين وقعقة  
اسلحتهم وكأنها غابة تحترق فتتقصف أغصانها وتهوي أشجارها<sup>(٣)</sup>:

كان هريرنما لما التقينا  
هريير أباءة فيها حريق

واستغل شعراء عبدالقيس الأثواب وألوانها في تشبيهاتهم فالشاعر مالك بن ثعلبة  
يتحدث عن دماء شريح وقد سالت على الأرض بأنها يمانى مخطط بألوان حمراء<sup>(٤)</sup>:

تركنا شريحاً قد علتة بصيرة  
كحاشية البرد اليماني المحبر

ولون الدم يستخدم في التشبيه عند المثقب فضعائن ليلى تغطى أحداجها بأثواب  
حمراء كالدم<sup>(٥)</sup>:

قد علت من فوقها أنماطها  
وعلى الأحداج رقم كالشقر

وثعلبة بن عمرو يشبه الشباب بثوب فهو سرعان ما يتغير ويبلى<sup>(٦)</sup>:  
عمرك هل تدريين أن الفتى  
شبابه ثوب عليه معار

والطرق والممرات أثواب مخططة في قلب الصحراء والبيئة البحرانية<sup>(٧)</sup>:  
في لاحب تعزف جناته  
منفهق القفرة كالبرجد

(١) السجستاني: المعمرين والوصايا ٤١.

(٢) ديوان المثقب العبدى ٣١ واللاحب: الطريق، منفهق: واسع، والبرجد: الثوب المخطط، وتعزف جناته:  
صوت الرياح يتوهمه أهل البادية من أصوات الجن.

(٣) المفضليات ٢٩٥.

(٤) مصطفى ناصف: الصورة الأدبية ص ٥٩.

ويستعين يزيد بن الخذاق «بمفرمة الجزار» واللحم عليها عندما أراد أن يصور  
للنعمان عدم قدرته على الفتك بهم وذبح رجالهم فقال<sup>(٣)</sup>:

أحسبتنا لحمًا على وضم  
أم خلتنا في البأس لا نجدي

فالأمثلة التي عرضناها وتمثلت في آهة المسكين، والرجل الملدوغ، والأثواب ولون  
الدم، واللحم، ونخالة البيادر، وحريق الغابات كلها تدخل ضمن النواحي الاقتصادية  
والاجتماعية والنفسية.

وبعد أن فرغنا من التشبيه نأتى إلى الاستعارة الركن الثاني في الصورة التي  
رسمها شعراء عبد القيس، والاستعارة في شعرهم أقل بروزاً لأنها ربما كانت كما يقول  
الباحثون<sup>(٤)</sup> تحتاج إلى جهد وأناة وتعتمد على مافي الكلمة من حمل أو خصب كامن.

فثعلبة بن عمرو يستخدم الاستعارة وهو يصف لنا صلابة رمحه وشدة اختراقه، لا  
يتمایل فيما يصادف ولا يعوج مسيره، فهو رمح يعجب كل ناظر اليه ومتذوق لأفعاله، وبه  
يشهد الحرب الحامية، كذلك تبدو المعركة أمامنا حيواناً مفترساً، وأرضاً احمرت أطرافها  
لكثرة ما سفك من الدماء<sup>(١)</sup>:

ومطررد يرضيك عند ذواقه  
ويمضي ولا يناد فيما يصادف  
به أشهد الحرب العوان إذا بدت  
نواجذها واحمر منها الطوائف

وعندما أراد حريث أن يتحدث عن قوة سيفه وأنه يحمل الموت لأعدائه استخدم  
الاستعارة، فسيفه يقطر موتاً بدلاً من قوله يقطر دماً<sup>(٢)</sup>:

مهنند منه الردى يخر

(١) المفضليات رقم ٧٤ ص ٢٨٣ .

(٢) البحري: الحماسة ٣٩ .

(٣) نفس المصدر السابق ١٠٣ .

(٤) ابن الشجري: الحماسة الشجرية ٦/١ .

أَلَمْنَا الْيَوْمَ الَّذِي يَفِر

وهذه الاستعارة من البيئة الرعوية التي تعرف الحلب وتجيده وقد استعان بها الشاعر ليدلل أماننا على خبرته بالأيام ومعرفة للتجارب وحكته مع الزمان<sup>(٣)</sup>:

وَلَقَدْ حَلَبْتُ الدَّهْرَ أَشْطَرَهُ  
وَعَرَفْتُ مَا أَتَى مِنَ الْأَمْرِ

وهذا شاعر محارب يستخدم الاستعارة في مجال وصف السيف وقد تطايرت الرؤوس من شدة الضرب<sup>(٤)</sup>:

إِذَا مَا انْتَضَيْنَاهَا لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ  
رَأَيْتُ لَهَا هَامَ الْعَدَى تَتَطَايَرُ

وفي شعر العبيدين إشارات إلى أنهم استخدموا الأصباغ البديعية وأنها جاءت عندهم كغيرهم من الجاهليين وحسبنا أننا وجدناها.

فالتباقي عند يزيد بن الخذاق في يخفي ويبيدي وفي ودي ومعتبتي<sup>(١)</sup>:

نَعْمَانُ إِنَّكَ خَائِنٌ خَدَعُ  
يَخْفِي ضَمِيرَكَ غَيْرَ مَا يَبْدِي



لَنْ تَجْمَعُوا وَدِي وَمَعْتَبَتِي  
أَوْ يَجْمَعُ السِّيفَانُ فِي غَمْدِ

وعند الممزق العبيدي نجد مطابقات بين تهامة ونجد، وعمان والعراق والجبين والشجاعة، والبخل والجود، والسوء والصالح<sup>(٢)</sup>:

فَإِنْ يُتَّهَمُوا أَنْجِدْ خَلَفًا عَلَيْهِمْ  
وَإِنْ يَعْمِنُوا مَسْتَحْقِبِي الْحَرْبِ أَعْرِقْ

(١) المفضليات: ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

(٢) الأصمعيات: ١٦٥ .

(٣) ديوان المثقب العبيدي ١٥٨ ، ١٦٣ .

(٤) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٣٨٦/١ .

وإن يجبُّنوا تشجُّع وإن يبخلوا تجد  
وإن يخرُّقوا بالأمر تفصل وتفرق

وفي نونية المثقب وردت مثل هذه المطابقات والمقابلات فهو يقول<sup>(٣)</sup>:

أرين محاسناً وكنن أخرى  
من الديباج والبشر المصون

\*\*\*\*\*

علون رباوة وهبطن غيباً  
فلم يرجعن قائللة لحين

وفي مرثية يزيد بن الخذاق نجد جناساً ناقصاً حيث يقول<sup>(٤)</sup>:

هل للفتى من بنات الدهر من واق  
أم هل له من حمام الموت من راق

#### ظواهر عروضية:

قطع الشعر العربي مسافات طويلة، واحتمل تطورات كثيرة حتى وصل إلى درجة عالية من البنية الفنية وولادة النغمة الموسيقية، وأول صورة راقية لأنغام شعرنا العربي وموسيقاه الجميلة هي صورة العصر الجاهلي الذي ولد في قلب الصحراء واطراف الجزيرة العربية<sup>(١)</sup>.

فالأوزان والأوضاع الشعرية المختلفة تضرب جذوراً عميقة في أغوار التاريخ، ولذا كان طبيعياً أن لا يقف عمر القافية والوزن عند حدود مائتي عام وإنما امتد إلى ما قبل ذلك بكثير<sup>(٢)</sup>.

(١) شوقي ضيف: في النقد الأدبي ص ١٠٠ .

(٢) تاريخ الشعر الجاهلي: نجيب البهيتي ٨٩.

(٣) زيدان: تاريخ أداب اللغة العربية ٦٤/١، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان.

(٤) إحسان عباس: فن الشعر ١٤٣ .

(٥) إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر ١٧.

ونحن لا نستطيع أن نعثر على تحديد أو تعيين لبداية الأوزان فطفولة الشعر الجاهلي من الأمور التي لم يقطع فيها الباحثون برأي، فزيدان وبروكلمان<sup>(٣)</sup> أشارا إلى أن الشعر بدأ مع الرجز والمقاطع الصوتية القصيرة ثم وصل إلى البحور الشعرية المعروفة التي أعلن اكتشافها فيما بعد الخليل بن أحمد الفراهيدي ويضيفا إلى أن الموسيقى عند العرب لعبت دورا كبيرا في سجع الكهان وأحاجي الساحرين.

ونؤمن أن الشعر صناعة معقدة تخضع لقوانين صارمة<sup>(٤)</sup>، لكننا يجب أن لا نتردد في قبول هذه الصناعة بشيء من اليسر والطواعية، ذلك أن الشعر في جوهره وحقيقته أمره كلام موسيقي جميل، تنفعل له النفوس وتتأثر به القلوب<sup>(٥)</sup>.

وأجمعت الروايات والأخبار على أن هذا الشعر كان بضاعة أدبية رائجة في أسواق العرب في الجاهلية، لقي قبولا واستحساناً، وكان العربي يهتز لهذا الإنشاد ويطرب إليه، ولم يعرف الشعر له استقراراً في مناخ واحد وإنما عرف التنقل والارتحال شأن القبائل المرتحلة، وهو في رحلته عبر العصور الأدبية بدءاً من الجاهلية ظل يعيش ناحية التكوين الموسيقي، وعن طريق قوالبه الشعرية راح الشاعر يغني أناشيده ويفتح أبواباً على عالم نفسه وعالم الأشياء من حوله<sup>(٦)</sup>.

واستخدم العبيدون من البحور الشعرية التي شاعت في العصر الجاهلي الطويل والوافر، والكامل، والبسيط، والرمل، والسريع، والمتقارب، والمنسرح وكانت البحور الخمسة الأولى أشهر بحور الشعر عندهم استخداماً.

وعندما أجرينا إحصاء للشعر العبدى من حيث الأغراض والقصائد والمادة الشعرية وجدنا أن البحر الطويل ينفرد من بينها بمكانة عالية ويمثل فيها منزلة كبيرة، فقد استخدم في سائر الأغراض والموضوعات التي تناولوها من حرب وسلم ونظرات في الحياة والموت وغيرها وكان نصيبه من القصائد ما يزيد على أربعين قصيدة وفي المادة الشعرية خمسها.

(١) شوقي ضيف: في النقد الأدبي ١٠١ .

ويتلوه البحر الوافر فهو أيضاً استعمل في سائر الأغراض التي ذكرها العبيدون، وكان نصيبه من القصائد إحدى عشرة قصيدة وفي المادة الشعرية ما يتجاوز خمسمها .

وجاءت ثمانى قصائد من البحر الكامل، مادتها الشعرية قليلة لكنها استوعبت موضوعاً واحداً هو شعر الحرب.

وجاءت سبع قصائد من البحر البسيط، ومادتها الشعرية قليلة واستغرق موضوعين هما الحرب والثناء.

وكان نصيب الرمل خمس قصائد، مادتها الشعرية وفيرة وتناولت موضوعين هما المدح والحكم.

ويفيد في مجال دراسة الظواهر العروضية أن نتبين خصائص البحور التي اشتهرت وكثر استخدامها عند العبيدين وسأتناول البحور الثلاثة الأولى وذلك لأن البسيط يلحق بالطويل والرمل بالوافر من حيث الخصائص والمميزات.

فالبحر الطويل يمتاز بطوله وكثرة مقاطعه وبطء إيقاعه وتناسبه الأغراض الجليلة كالحرب والثناء وهو أصلح البحور للتأمل والتفكير والعظة والتاريخ ويرى بعض الدارسين لموسيقى الشعر أن الطويل أخذ حلاوة الوافر ورقة الرمل وترسل المتقارب وتخلص من جلبة الكامل فهو بحر فيه كثير من صفات البحور الأخرى<sup>(١)</sup> ونجد عناية الجاهليين بهذا البحر كثيراً.

وقد استخدمه العبيدون أكثر ما يكون في مجالات الرثاء والنظرات إلى الموت والدهر فعندما أراد توبة بن مخرس أن يتحدث عن إخوته الذين أودى بهم الموت نذر الدهر أن يفرق بينه وبينهم اختار البحر الطويل فقال<sup>(٢)</sup>:

أربُّ بهم ريب المنون كأنما

على الدهر فيهم أن يفرقهم نذر

(١) إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر ٩٥ وفي المرشد إلى فهم أشعار العرب ٢/١، وفي الشعراء وإنشاد الشعر ١٠٠.

(٢) البحري: الحماسة ٢٢٨ .

(٣) البحري: الحماسة ٤٥٥ .

(٤) أبو تمام: الحماسة ٥٥٩ .

وعندما أراد شاعر من عبد القيس أن يعبر عن لقاء الإنسان للموت الداهية الكبير  
اختار البحر الطويل وقال<sup>(٣)</sup>:

يروح ويغدو والمنية قصده  
ولا بد يوماً أن يلاقي الدواهيها

وأم النحيف وهي تتحدث عن زوجة ولدها وتنصحها أن يسامحها ولا يعمد إلى  
طلاقها تجد في البحر الطويل أنسب البحور استخداماً لعظمتها فتقول<sup>(٤)</sup>:

لعمري لقد أخلفت ظني وسؤتني  
وحزت بعصياني الندامة فاصبر

وتتعدد الأمثلة وتنهض الشواهد في مجالات النظرة إلى الموت والتفكير والتأمل وفي  
الرتاء ومنها قصيدة ربعة بن توبة، ومويك بن قابس وعينية يزيد بن الخذاق وبائية الجمال  
ورائية مسعود وقافية ابنة حكيم<sup>(٥)</sup>.

ونجد البحر الطويل يستخدم كثيراً في شعر الحرب فثعلبة بن عمرو يختار وزن  
الطويل ليحدثنا مفصلاً عن الأسلحة الحربية التي أشرنا إليها في دراستنا الموضوعية،  
وبهذا السلاح كان ثعلبة والعبيدون يخوضون المعارك ويشهدون الحروب<sup>(٦)</sup>:

به أشهد الحرب العوان إذا بدت  
نواجهها واحمرّ منها الطوائف

واختار يزيد بن الخذاق موسيقى الطويل ليحدثنا عن درعه وسيفه وعنايته بهما  
واستعداده للحرب والقتال فيقول<sup>(٧)</sup>:

نعدّ ليوم الروع زعفاً مفاضة

(١) المفضليات: ٢٩٧ .

(٢) نفس المصدر ٢٨٧ .

(٣) انظر: ديوان عبد القيس.

(٤) إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر ٧٦، وفي المرشد إلى فهم أشعار ١/٣٣٠ وفي الشعراء وإنشاد الشعر ١٠٦ .

(٥) الأصمعيات: ١٩٩ .

(٦) ديوان المتنبي العبدى ١٥٤ .

## دلاصاً وذا غرب أخذ ضروسا

والقصائد التي تناولت الحرب على موسيقى الطويل كثيرة ومنها حائية عمرو المحاربي ورائية مالك بن ثعلبة، ورائية وميمية سويد بن الخذاق، ورائية عمرو بن أسوى وغيرها<sup>(٢)</sup>.

والبحر الوافر<sup>(٤)</sup> يمتاز بحركة وقوة وسرعة، سريع النغمات، متلاحق النبر فيه يسر وسهولة، وتدفق وعذوبة، تستريح له الأذن وتطمئن عنده النفس واستخدم هذا البحر في أشعار الحرب فالمفضل العبدى اختار موسيقى الوافر وهو يصور لنا ساحة المعركة وتقابل الابطال فيها وكيفية مجيء العبدىين<sup>(٥)</sup>.

## فجاءوا عارضاً برداً وجئنا

### كسيل العرض ضاق به الطريق

وجاءت نونية المثقب الشهيرة على وزن الرمل وهي القصيدة التي أجمع الدارسون على عذوبتها وسيولة موسيقاها فالمثقب وهو يصف الضعائن يقول في موسيقى فيها الحركة والتدفق والسهولة<sup>(٦)</sup>:

## علون رياوة وهبطن غيباً

### فلم يرجعن قائله لحن

والبحر الكامل يمتاز بالجد وفيه موسيقى صاخبة فخمة تتفق وروح المعارك والحروب<sup>(١)</sup> وهو بعيد في غالب الأحيان عن الهدوء والتأمل ومن الغريب أن جميع القصائد الشعرية في هذا البحر من شعر الحرب، فيزيد بن الخذاق يتحدث عن فرسه سبحة وشكة سلاحه وهو يخاطب النعمان موجهاً إليه قصائد نار لا تتقن غير لغة القتال والحرب وهو يختار الكامل ويقول<sup>(٢)</sup>:

(١) إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر ٧٧.

(٢) المفضليات ٢٩٥ .

(٣) انظر : ديوان عبد القيس.

(٤) أبو تمام: الوحشيات ١٥٦ .

(٥) أبو تمام: الحماسة ٥٥٩/١ .

(٦) اليزابيث دور: الشعر كيف نفهمه ٤٩.

## أعددت سبحة بعدما قرحت ولبست شكة حازم جلد

ومن القصائد التي جاءت على وزن الكامل في مجالات الحرب لامية عروة بن سنان،  
وعينية عمرو بن أسوى ولامية عمرو بن سلمة وتائية عبدالله بن جنح النكري وغيرها<sup>(٣)</sup>.

واستخدم العبيدون مجزوءات البحور فقصيدة جذل بن أشمط في النصائح جاءت  
على وزن مجزوء الكامل<sup>(٤)</sup>:

أمام إن الدهر أهلك صرفه إرماءً وعادا

وقصيدة أخت سعد في رثاء أخيها جاءت على وزن مجزوء الرجز<sup>(٥)</sup>:

يا سعد يا خير أخ  
نازعت دُرَّ الحلامة

والصلة بين الأوزان والمعاني والعلاقة بين الأوزان والعواطف من الأمور التي أثارت  
اهتمام الباحثين فاليزابيث دور<sup>(٦)</sup> تربط بين الوزن والمعنى وترى أن الوزن صدق للمعنى  
وأنة خاضع له باستمرار وجرجي زيدان<sup>(١)</sup> يرى بأن كل بحر له غرض يلائمه فالطويل  
للحماسة والوافر للفخر وهكذا.

وهذان الرأيان لا يثبتان أمام البحث والدرس إذا ما عرفنا أن البحر الوافر يستخدم  
في كثير من الأغراض وقد رأينا فيما سبق أن البحر الطويل وكذلك الوافر استغرقا كل  
الموضوعات الشعرية من حرب وسلم ورثاء وحكم وفخر عند العبيدين وأن هذين البحرين  
لم يقفا عند غرض واحد أو موضوع معين.

وأما مسألة الوزن والعاطفة فيجيب عليها باحث آخر بقوله «قد يكون من المغالاة

(١) جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ٦٦/١ .

(٢) إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر ١٧٦ .

(٣) أحمد كمال: شعر الهذليين ٢٣٠ .

تصور اشتراك الشعراء في العاطفة لمجرد اشتراكهم في موضوع واحد<sup>(٢)</sup> ذلك لأن الوقت وشدة الانفعال عاملان لا نملك أمر تحديدهما، ويكون من المتعذر علينا أن نحكم على تلك العواطف لأنها ستكون حتماً مغايرة ومختلفة عند الشعراء، فعاطفة توبة بن المفسر في رثاء أخوته تختلف عن عاطفة مسعود بن سلامة في رثاء إخوته وأيضاً تختلف عن عاطفة أخت سعد في رثاء أخيها.

ويرى باحث آخر أن أمر اختيار البحور ليس بأيدي الشعراء ويقول: <sup>(٣)</sup> «إن الشاعر الحقيقي لا طاقة له عن اختيار البحر والقافية في غرض معين لأن من أحاسيسه الجياشة ما يصرفه عن كل ذلك».

ومسألة البحور واختيارها قد يكون الأمر فيها أنها تلقى رتبة وملائمة للعواطف التي تجيش في صدورهم، ولقد رأينا أن العبدین استخدموا تلك البحور التي لقيت مثل هذه الرتبة وأنهم استخدموا البحور الشائعة الاستعمال عند الجاهليين.

ويبقى أن نقول: إن الشاعر إذا اختار بحراً مناسباً وألفاظاً ملائمة إلى جانب العناصر المكونة للعملية الشعرية فإن جميع هذه المكونات تحدث التأثير المطلوب وتنقل ما يحس به الشاعر إلى الآخرين.

القوافي: القافية هي تكرار عدة أصوات في أواخر الأَشْطَر أو الأبيات من القصيدة وهذا التكرار جزء هام من الموسيقى الشعرية التي يتوقع السامع تردها.

وفي إحصائية أجريناها لحروف القوافي من حيث عدد القصائد كانت الحروف التالية وأهمها الراء، والذال، والقاف، واللام، والباء، والميم.

(١) إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر ٢٤٦.

(٢) عبدالله الطيب: المرشد إلى فهم أشعار العرب ٤٦/١.

(٣) ديوان المثقب العبدی ١٥/١٣.

واحتل حرف الراء ربع القصائد، وحرف الدال خمسها، وكان للحروف الثلاثة الاولى مجتمعة أكثر من نصف القصائد.

أما من حيث المادة الشعرية وعدد الأبيات فكانت الحروف التالية وأهمها الدال والقاف والراء والنون والميم واللام والباء حيث احتل حرف الدال المرتبة الأولى ودخل حرف النون في المرتبة الرابعة، وكان لحرف الدال خمس المادة وللحروف الثلاثة الأولى مجتمعة أكثر من نصف المادة.

وهذه الحروف التي ذكرناها تعتبر عند الدارسين لموسيقى الشعر حروف من الدرجة الأولى<sup>(١)</sup> ومن حروف القوافي الذلولة<sup>(٢)</sup>، وقد اتسعت الحروف الثلاثة الدال والراء والقاف لكل أغراض الشعر العبدى مما يشير إلى أهمية هذه الحروف عندهم ويدل على أنهم استخدموا أشهر الحروف في موسيقى القافية زمن الجاهلية.

وللقافية عند العبديين عيوب وأشهرها الإقواء وهو مخالفة الإعراب وقد ورد مثل هذا في قصيدة للمثقب العبدى عندما قال<sup>(٣)</sup>:

من مال من يجبى ويجبى له  
سبعون قنطاراً من العسجد  
أو مائه تجعل أولادها لغواً  
وعرض المائنة الجلمد

فالشاعر رفع الجلمد وكان حقها أن تكون مكسورة لأن القصيدة وردت مكسورة الدال.

ومن عيوب القافية كذلك عندهم الإيطاء وهو تكرار كلمة معينة في القصيدة الواحدة ونجد مثل هذا الإيطاء في شعر المثقب فكلمة الوضين تكررت في البيت الثاني والعشرين والبيت الرابع والعشرين من القصيدة النونية عندما يقول<sup>(٤)</sup>:

(١) المثقب العبدى ١٧٠، ١٧٣ .

(٢) انظر : ديوان عبد القيس .



## الفصل الخامس

### المتقَّب العبدِي

#### حياته:

تجمع المصادر على أن المتقَّب هو عائذ بن محسن من قبيلة نكرة ومن عبد القيس فهو «نكري» «وعبدِي» أما نسبه الكامل: عائذ بن محسن بن وائلة بن عدي بن دهن بن منبه بن نكرة بن لكيز بن أفصى بن عبد القيس<sup>(١)</sup>.

وأشد المصادر شذوذاً وإغراباً في اسم المتقَّب «معجم الشعراء» فهو يقول عنه:<sup>(٢)</sup> «اسمه عائذ بن محسن» ثم يعود فيقول: «وقيل اسمه نهار بن شأس»، فالمرزباني يخلط بين المتقَّب وابن أخته الممزق ويخطئ أيضاً في اسم الممزق فهو شأس وأما نهار فهو أبوه، وذكر في نسب المتقَّب جداً له هو زهر والصحيح دهن فالاضطراب واضح بآئن عند المرزباني.

وابن قتيبة<sup>(٣)</sup> يذكر اسم المتقَّب فيقول محسن بن ثعلبة والواقع أن هذا اسم أبيه وذهب مذهب ابن قتيبة البطليوسي<sup>(٤)</sup> والاشنانداني<sup>(٥)</sup>.

ويذكر لويس شيخو<sup>(٦)</sup> اسمه فهو العائذ والعابد والعائذ بالله ويسوق نسبه السابق ويعدد طه حسين<sup>(٧)</sup> أسماء الشاعر فهو عنده محسن، وعائذ وعائذ الله ويقول عنه: «إنه

(١) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ٢٩٦، والجمحي في «طبقات فحول الشعراء» ٢٧١.

(٢) المرزباني: معجم الشعراء ١٦٧.

(٣) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٣١١.

(٤) البطليوسي: الاقتضاب ٤٢٦.

(٥) الاشنانداني: معاني الشعر ١٦٥.

(٦) لويس شيخو: شعراء النصرانية ٤٠١.

(٧) طه حسين: حديث الأربعاء ١٦٤.

شاعر معروف مات في الجاهلية».

والذي نطمئن إليه من كل هذه الأقوال أن المثقب هو عائذ بن محسن بن ثعلبة العبدى، والمثقب بالكسر والتشديد لقب أطلق عليه بسبب بيت من الشعر قاله: <sup>(١)</sup>

ظهري بكلية وسدلى أخرى  
وثقبن الوصاوص للعيون

ويرى ابن سلام أنه لقب بذلك بسبب بيت آخر من الشعر: <sup>(٢)</sup>  
ظعائن لا توفي بهن ظعائن  
ولا الثاقبات من لؤي بن غالب

ويرى البطليوسي أنه لقب بذلك لأنه قال <sup>(٣)</sup>:  
فلا يدعني قومي لنصر عشيرتي  
لئن أنا لم أجلب عليهم وأثقب

والمسألة في هذه الأبيات الثلاثة أن الأول منها جاء في قصيدته النونية وتجمع أكثر المصادر على أنه سبب التسمية، وأن البيتين الآخرين نسبا إليه ولم يردا في ديوانه، ويذكر السيوطي <sup>(٤)</sup> والعيني <sup>(٥)</sup> أن المثقب بالكسر والفتح معاً، أما ابن قتيبة <sup>(٦)</sup> وابن سلام <sup>(٧)</sup> وابن

(١) ديوان المثقب العبدى ص ١٥٦ وفي رواية أخرى وسدلى رقماً.

(٢) الجمحي: طبقات فحول الشعراء ص ٢٧٢ .

(٣) البطليوسي: الاقتضاب ٤٢٦ .

(٤) السيوطي: شرح شواهد المعنى ٦٩ .

(٥) العيني: المقاصد النحوية ١٩١/١ .

(٦) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٣٩٥ والمعارف ص ٩٣ .

(٧) الجمحي: طبقات فحول الشعراء ص ٢٧٢ .

(٨) ابن دريد: الاشتقاق ٣٣٠ .

(٩) الأمدي: المؤلف والمختلف ٢٨٣ .

(١٠) محمد بن حبيب: القاب الشعراء ٣١٦ .

(١١) العسكري: شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ١٨١ .

(١٢) ابن منظور: لسان العرب ٢٤٠/١ مادة ثقب.

دريد<sup>(٨)</sup> والآمدني<sup>(٩)</sup> ومحمد بن حبيب<sup>(١٠)</sup> والعسكري<sup>(١١)</sup> فكلهم أجمعوا على أنه المثقب بالكسر وفي «لسان العرب» تحت مادة ثقب أشار ابن منظور<sup>(١٢)</sup> إلى المعاني التالية: الثقب: الخرق النافذ، مثقب بالتشديد يدل على الكثرة، كوكب ثاقب: شديد الإضاءة وثقبت النار: أخرمت والمثقب بالكسر العالم الفطن ورجل مثقب نافذ الرأي وحسب ثاقب إذا وصف بشهرته وارتفاعه.

ومثقب اسم طريق بين اليمامة والكوفة وقيل هو نبع ماء وأيضاً موضع في البادية وبعد كل هذه المعاني يقول ابن منظور والمثقب لقب شاعر معروف من عبد القيس، ومن استعراضنا لهذه المعاني المتجمعة لكلمة مثقب ومادة ثقب يمكننا أن نقول: إن المثقب لقب بهذا اللقب وبالكسر لسببين:

الأول: بيت الشعر الذي ورد في قصيدته النونية فهناك شعراء آخرون لقبوا بسبب بيت من الشعر ومنهم الممزق والمرقش والمسيب وغيرهم<sup>(١)</sup>.

والثاني: أن معاني مادة ثقب تدل دلالة كبيرة على شخصية المثقب الشاعر فهو زعيم قبيلته وصاحب رأي سديد فيها، وهو مشهور النسب، شديد المروءة ذو فطنة وذكاء، ويورد طه حسين<sup>(٢)</sup> في هذا المجال هذه الملاحظة «وجدير بمن يثقب الوساوص والبراقع أن يلقب بالمثقب».

ويكنى المثقب بأبي مائلة ووائلة<sup>(٣)</sup> وعند البكري أنه أبو عدي<sup>(٤)</sup> ويذكر عمر فروخ<sup>(٥)</sup> أن كنيته أبو عمرو وإلى ذلك يذهب الزركلي<sup>(٦)</sup>، وتعداد هذه الكنى يوقعنا في حيرة فالمصادر التي بين أيدينا لم تحدثنا عن حياته الزوجية ولا عن أولاده، ويبدو لي أن رواية

(١) السيوطي: المزهر ٤٢٥ .

(٢) طه حسين: حديث الأربعاء ١٦٨ .

(٣) المرزباني: معجم الشعراء ٤١ .

(٤) البكري: سمط اللالك ١١٣ .

(٥) عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي ١٦٠/١ .

(٦) الزركلي: الأعلام ٤/٤ .

البكري أصبح الروايات فعدي أحد أجداد الشاعر ولم يخلط البكري كما خلط غيره عندما ساق نسب الشاعر.

والمتقّب ولد على أرض البحرين في منازل عبدالقيس، والمصادر التي بين أيدينا لا تذكر مدينة معينة أو تحدد مكاناً لولادته لكننا نعلم أن قبيلته نكرة كانت تسكن وسط القطيف وما حولها من قرى وأرياف وأنها قبيلة كبيرة امتدت بطونها حتى وصلت بينونه بل واستقر قسم منها في عمان<sup>(١)</sup>.

والشاعر لم يكن من نكرة التي في عمان لأنه عمل في سفارة قومه لطلب العفو والصفح عن أولئك النكريين الثائرين في عمان<sup>(٢)</sup>، ويبقى أمامنا أن نؤكد أن المنطقة الممتدة ما بين القطيف وبينونه هي التي ولد فيها، لكننا نرجح أن تكون القطيف المدينة الجميلة والمناطق الساحرة القريبة منها هي التي شهدت ميلاد هذا الشاعر، وهذا يتفق مع ما ذكره محقق ديوانه الأستاذ حسن كامل الصيرفي<sup>(٣)</sup> «فعلى زرقة مياه الخليج العربي تخفق فيه السفن وتترامى على شواطئه حبات اللؤلؤ وتحت ظلال النخيل تفتحت عينا الشاعر، يستلهم من جمال الطبيعة وفتنتها ترنيماته ويغوص وراء المعاني يستخرج من لآلئها حبات أبياته».

وتاريخ ميلاد الشاعر مجهول وتاريخ وفاته مختلف فيه فرجي زيدان قرر أن وفاته كانت «٥٢٠م»<sup>(٤)</sup>، ثم عاد بعد ذلك فقال: إن الوفاة كانت «٨٧م»<sup>(٥)</sup> والأخبار التي تحدثت عن المتقّب أشارت إلى أنه كان في زمن عمرو بن هند وهو الذي خاطبه في قصيدته النونية<sup>(٦)</sup> وأنه عاش حتى زمن النعمان بن المنذر ومدحه في قصيدته الهائية<sup>(٧)</sup> وتكاد

(١) انظر: منازل عبدالقيس.

(٢) انظر: مدرسة السلم.

(٣) مقدمة ديوان المتقّب تحقيق الصيرفي ص ١٩ .

(٤) جرجي زيدان: تاريخ أداب اللغة العربية ص ٨٤ .

(٥) نفس المصدر ص ١٨١ .

(٦) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٣٥٦ (الجلي).

(٧) ديوان المتقّب العبدى ٨٣٠ .

(٨) الأشناداني: معاني الشعر ١٦٥، شيخو: شعراء النصرانية ٤٠٠، الزركلي: الأعلام ٧١/٣ .

(٩) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٦٧/٢ .

المصادر<sup>(٨)</sup> تجمع على أن تاريخ الوفاة كان ما بين عامي «٥٨٧ - ٥٨٨» وهذا الزمن في اعتقادنا صحيح إلي حد كبير لأنه يتفق ومدح النعمان الذي بدأ حكمه عام «٥٨٢م» واستمر حتى «٦١٣م»<sup>(٩)</sup>.

ويبقى أمامنا أن نحاول معرفة زمن ميلاده فجرونباوم يقول: إنه ولد عام «٥٥٠م» وهذا القول بعيد عن الواقع لأنه لا يتفق ومدحه لعمر بن هند الذي حكم ما بين «٥٥٤ - ٥٦٩م»<sup>(١)</sup> وقد خاطب الشاعر الملك بلفظة أخي فلا يعقل أن يكون صغيراً إلى هذا الحد فعمر المثقب عندها لابد أن يكون مناسباً ويؤهله في أن يمدح الملوك ويختار مثل هذه الألفاظ في أشعاره ولابد كذلك من أن يكون المثقب قد تجاوز الخامسة والثلاثين على الأقل أو هو في حدود الأربعين فالعرب تعتبر ذلك زمن الرجولة، ولما كان عمرو بن هند قد مات في حوالي ٥٧٠م<sup>(٢)</sup> فيكون تاريخ ميلاد المثقب قريباً من «٥٣٠م» وحتى لا نستخدم رقماً معيناً ومحدد في بطاقة ميلاد الشاعر نقول: إنه ولد في العقد الثالث من القرن السادس الميلادي على أرجح تقدير، وبهذا يكون شاعرنا قد عاش ما يقرب من ستين عاماً وهو عمر يؤهله أن يكون زعيماً وسفير القبيلة عند المناذرة.

وتنضج شاعرية المثقب تحت شمس الصحراء وبين فتنة طبيعة الأحساء ويمضي يشق طريقه في الحياة صوتاً شعرياً رقيقاً يأسر الأسماع ويستوقف القلوب.

ويبدو لنا من أشعاره أن والده ووالدته كانا عبيدين وجده ثعلبة بن وائلة يلقب بالصلح<sup>(٣)</sup> فقد اشترك مع قيس بن شرحبيل في إصلاح ذات البين بين قبيلة بكر وتغلب بعد حرب البسوس<sup>(٤)</sup> وإلى هذا يشير المثقب<sup>(٥)</sup>:

(١) الخليفة والحر: البحرين عبر التاريخ ٨٧ .

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) ديوان المثقب ص ٢١ .

(٤) نفس المصدر.

(٥) نفس المصدر ٢٥٧ .

(٦) نفس المصدر ٢٥٨ .

أبي أصلح الحبين بكرةً وتغلباً  
وقد أرعشت بكر وخف حلومها

وهو هنا يقصد جده ثعلبة وإلى هذا الجد أشار بعض شعراء عبدالقيس<sup>(٦)</sup>:

ومنا مصلح الحبين بكر  
وتغلب بعدما عما فسادا  
بني لبننيه مكرمة وعزاً  
فكان الماجد البطل الجوادا

فثعلبة جد المثقب بني لأسرته وأبنائه مكانة عالية وأورثهم مكارم حميدة وهذا الجد جواد كريم وماجد بطل، وقام بصلح آخر وسفارة ثانية بين قبيلة عبدالقيس ذاتها وأنه نجح في إعادة المياه إلى مجاريها بين بطون عامر بن الحارث وعوف بن أنمار بعد خصام بينهما وفي الأخبار أن قبائل جذيمة بن عوف كانت تشكل أحلافاً واسعة وتتصارع مع بني عامر بن الحارث الأقوياء<sup>(١)</sup>:

وقام بصلح بين عوف وعامر  
وخطه فصل ما يعاب زعيمها<sup>(٢)</sup>

ومن هنا ندرك أن ثعلبة كان رئيساً في عبدالقيس وزعيماً من زعمائها بل كان حكيماً أسعفته حكمته ومقدرته على أن يتولى منصب الإصلاح وفض النزاع فيشتهر بلقب - المصلح ويرث المثقب خصال جده الحميدة ويسير على دربه مترسماً خطاه.

وما عدا الشعر الذي أورده المثقب في جده ذكرت المصادر خبر أخته أم الشاعر الممزق شأس بن نهار<sup>(٣)</sup> وإن كان بروكلمان يقول عن الممزق: «إنه ابن أخت المثقب»<sup>(٤)</sup>.

(١) دائرة المعارف الإسلامية مجلد ١ ص ٧٤ وجمهرة أنساب العرب ص ٢٩٦ .

(٢) ديوان المثقب العبدى ص ٢٥٧ .

(٣) ديوان المثقب العبدى ص ٢١ .

(٤) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ٨٥/١ .

أما زوجته فلسنا نعرف شيئاً عنها على الرغم من أنه أشار في قصائده إلى نساء كثيرات منهن فاطمة وهند وليلى وطلحة، فهل كانت زوجته واحدة منهن، أمر لا نجزم فيه وكذلك تلفنا الحيرة حول أبنائه وبناته فكم أنجب من الأولاد ومن أشهرهم وظروف حياته الزوجية، كل ذلك لم تسعفنا المصادر في التحدث فيه وعنه.

وكل ما نعرفه أن المثقب نشأ في بيئة شعرية وأن أسرته ذات مكانة مرموقة ومنزلة عالية بين أسر قبيلة نكرة التي أنجبت أشهر شعراء العبيدين<sup>(١)</sup>.

### شخصية المثقب:

وأخبار المثقب غامضة كل الغموض، ومن الغرابة أن صاحب «الأغاني» أغفله ولم يترجم له مع أن في حياته جوانب تستحق البحث والدرس، فهو أشهر شعراء قبيلته، ومثل قومه في اتجاه له دوافعه، وهو شخصية مهمة في عبد القيس، فأين نجد معالم هذه الشخصية وصفاتها مادامت الأخبار غائمة وغامضة، لا بد والأمر كذلك من أن نلجأ إلى الشعر ليحدثنا عن تلك المعالم والصفات.

فالمثقب سياسي بارع، وسفير ناجح، استغل مهارته السياسية في إحلال السلام وإنهاء الخصام بين المناذرة والعبيدين، فهو سيد يناقش مع السادة شؤون القبيلة خاصة في الأمور العاجلة والأحداث المفاجئة، ونحن نعلم أن من واجبات السيد في الجاهلية عقد الأحلاف وإجراء المصالحات<sup>(٢)</sup> ولذا كان «وزيراً مفوضاً لقبيلته عند المناذرة».

إنه ليرى منازل قبيلته تستباح، وحمى عشيرته يغار عليه، وأسرى قومه يساقون إلى سجن النعمان ملك الحيرة، وتكون الغارة قاسية، والهجمة شرسة والضربة موجعة ويقرر مجلس القبيلة - عاجلاً - إرسال وفد عبيدي، يجري المصالحة وينهي الخلاف، ومن غير

(١) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ص ٢٧٢ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ٤٣٩/٢ .

(٣) ديوان المثقب العبيدي ١١٦ .

المنقب يرأس الوفد؟

وبين يدي الملك وقف الشاعر يلقي داليته المشهورة، مستعطفاً، مستشفعاً في الأسرى وجمهرة العبيدين، وتتهلل أسارير النعمان، ويأمر حاجبه بأن يطلق سراح كل الأسرى، وتكون الفرحة غامرة، وتنطلق الأغاريد، ويعود العبيدون مبتهجين<sup>(١)</sup>.

لقد كانت سياسة المنقب تغاير سياسة معاصريه كالمتملس الضبعي وطرفة بن العبد وكانت الأسلحة التي استخدمها أكثر فعالية وأجدى نفعاً من أسلحتهم فلم يهاجم ملوك المناذرة، ولم يتنكر لهم وإنما في «دبلوماسية» هادئة وصل إلى مبتغاه، وما أراد له لبني قومه.

وكانت سياسته أيضاً تخالف سياسة شعراء قومه، فإذا كان ابنا خذاق العبدان يزيد وسويد<sup>(٢)</sup> قد فشلا في العصيان الذي تزعماه وفي الثورة التي حملا لواءها، فإن المنقب نجح في السفارة التي قام بها واستخدم المدح «الخاتم الرسمي في وثيقة السلام وعودة السجناء».

وكان من سياسته الحكيمة وجهوده المتواصلة دعوة الشخصيات الهامة من عبدالقيس وغير عبدالقيس<sup>(٣)</sup> إلى مشاركته في إحلال السلام ووقف نزيف الدماء على أرض العبيدين، فمدح خالد بن أنمار الذي تشفع عند النعمان في ابن أخت المنقب شأس وفي سائر أسرى عبدالقيس<sup>(٤)</sup>:

إنما جاد بِشَاس خالداً

بعدماء حافت به إحدى العِظَم

والسفارة من أعراف الجاهلية فكان النابغة الذبياني وزيراً متنقلاً لقبيلته بين القبائل وعند المناذرة والغساسنة واستشفع علقمة بن عبدة لأخيه وأسرى قومه عند الحارث الغساني<sup>(٥)</sup> واستشفع كذلك حاتم الطائي لقيس بن حجر عند عمرو بن هند<sup>(٦)</sup> وكان زهير

(١) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٣٨٧/١٠ .

(٢) من هؤلاء أسيد بن عمرو بن تميم كما في «شرح المفضليات» للأنباري.

(٣) ديوان المنقب العبيدي ٢٢١، يتخاسين: يترامين، الخسا: الفرد، يبتدرن: يعالجن، الزول: الداهية.

(٤) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ١٤٧/١ .

(٥) نفس المصدر ٤٨٩/٢ .

(٦) انظر: دراسة حياة المنقب.

بن أبي سلمى داعية سلام ورجل إصلاح في حرب داحس والغبراء.

والعوامل التي أهلت المثقب لهذه السفارة الناجحة وتلك السياسة الحكيمة تعود إلى صفات وراثية عن جده - المصلح<sup>(٦)</sup> - وأسرته العريقة في نكرة ونسبه الكريم في عبد القيس وأبعد من هذا كما يقول - في معد - ثم هدوء في طبيعته وتكوينه فهو يكره تطاير الرؤوس وإراقة الدماء وينفر من الحروب.

وأخيراً مصارع الشعراء الذي يتناولون على سلطان المناذرة، ويتجراؤون على إيذاء ملوكهم وهجائهم مثل طرفة بن العبد وغيره من الشعراء<sup>(١)</sup>، فهذه العوامل الثلاثة جعلت منه سفيراً قديراً يبحث عن سبيل بديل فهو ليس بالرجل الذي يستقل بشؤونه ولا تعنيه أحداث قومه وإنما شغل نفسه بتحقيق السلام لقومه وظل طول حياته مشدوداً إلى هذه المهمة، ومن هنا كان شخصية هامة في عبد القيس.

والمثقب حكيم خبير، حنكته الأيام، وصقلته الأحداث، كان عاقلاً لا مندفعاً وصابراً لا متعجلاً، وهادئاً لا ثائراً، وارتفع فوق الجراح، وكظم غيظه وراح يغمد جراحات قومه بالعقل والحكمة.

كان من حكمته أن يتجاوز عن السيئات، ويتقى المذمات، فليس عاراً أن يلتمس المرء مخرجاً لإزاحة الظلم عن قومه، وإنما كل العار أن يقعد عن درأ الأخطار حين تقع، وعن دفع الخطوب عندما تصيب، وكان لا يتوقف عند شيء من القول أو فاحش من الكلام، يعرض عن الجاهليين، ويصفح عن المسيئين<sup>(٢)</sup>.

وأعلم أن الذم نقص للفتى  
ومتى لا يتق الذم يُذم  
وكلام سيئ قد وقّرت  
عنه أذناي ومابي من صمم

(١) ديوان طرفة ص ٨.

(٢) ديوان المثقب العبدى ٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣٢ .

(٣) نفس المصدر ١١٧، ١١٩ .

## فتعزيت خشاة أن يرى جاهل أني كما كان زعم

والمتقّب الحكيم كان جواداً كريماً، يقضي الحوائج ويلبي المطالب، ترى ناره منارة  
في ليل الصحراء، تدعو الأضياف، وتنادي المستغيثين، فيلقاهم بالترحاب ويحلون في أفناء  
بيته، ينحر لهم النوق السمان، ويخفف عنهم متاعب السفر وأعباء الحياة:<sup>(٣)</sup>

وسار تعنايه المبيت فلم يدع  
له طامس الظلماء والليل مذهباً  
رأى ضوء نار من بعيد فخالها  
لقد أكذبتة النفس بل رأى كوكباً  
فلما أتاني والسماء تبيله  
فلقيته أهلاً وسهلاً ومرحباً

ومن حكمته أنه كان يلتمس الأعذار بمهارة لقومه فإذا كانت بعض عشائر نكرة في  
عمان قد ثارت وتمردت على سلطان النعمان فقد نالها عقابه وأخذت جزاءها من كتيبته  
الجأءاء<sup>(١)</sup>، وأنها ندمت على أفعالها معه وأرسلت وفودها مسترضية ومجددة ولاءها طالبة  
إليه أن يمسح زلتها ويتجاوز عن أخطائها:<sup>(٢)</sup>

فإن تك منا في عمان قبيلة  
تواصت بأجناب وطال عنودها  
وقد أدركتها المدركات فأصبحت  
إلى خير من تحت السماء وفودها

والمتقّب حكيم قدرى، عبر عن موقف الإنسان أمام الغيب المحجب الذي لا يعرف ما  
تخبئه له الأقدار، فهو حين يقصد أمراً يريد الخير لا يدري أن هذه الأقدار تمكر به وتغدره  
وأن الشرور تكمن له وتترصده ولذا طلب من العاذلين أن لا ينكروا عليه إتلاف ماله في

(١) انظر: الدراسة الموضوعية.

(٢) ديوان المتقّب العبدى ١٠٥ الأجناب: المباعدة، العنود: المخالفة والاعتراض، المدركات: الحادثات.

(٣) ديوان المتقّب العبدى ٢١٢ .

وجوه الفتوة ومواصلة جهده من أجل السلام<sup>(٣)</sup>:

وما أدري إذا يَمُت أَمراً  
أريدُ الخيرَ أيهما يَلِينِي  
الْخَيْرُ الَّذِي أَنَا أَبْتَغِيهِ  
أَمْ الشَّرُّ الَّذِي هُوَ يَبْتَغِينِي

والحكمة في عبد القيس قديمة<sup>(١)</sup>، وقد أشرنا إلى حكمائهم ومنهم الجارود والأشج  
ورئاب الشنى وعمرو بن الجعيد وامتدح الرسول عليه السلام الأشج بصفتين هما الحلم  
والأناة<sup>(٢)</sup>، فلا عجب أن يكون المثقب واحداً من هؤلاء الحكماء تسعفه حكمته في إقامة  
السلام وتهيئة الأجواء لعلاقات وصلات طيبة.

والمثقب إنسان يريد السلام، ومن أجله مضى يعتسف قفار الصحراء ويتخطى  
الصعاب في غياهب البیداء، ويتنقل في طرق توازي شاطئ البحر وتراه مسرعاً، نشيطاً،  
دؤوباً، همته فوق السحاب، وعلى صخرة جلده تتحطم الاخطار، وهو صلبٌ صلابة  
الحرماة التي يجتازها، وسهلٌ سهولة النبع الذي يلقاه.

ولقد أحب الوفاء بالعهد<sup>(٣)</sup>، وأنكر المماطلة والخداع فهو يكره في المناذرة قسوتهم  
وخداعهم ويبغض في صاحبه كذبها وتمنعها، ويمقت في الناس الحروب وسفك الدماء.

وهو يغضب في مواقف الغضب، فلا يهادن ولا يداهن فإذا تنكر له عمرو بن هند  
وأراد من قومه أن يركعوا أمام جبروته فإن المثقب يقف حازماً صارماً، يقسو على الملك في  
الخطاب ويطلب إليه واحدة من اثنتين في قرار صريح فإما أن يصادق العبيدين مخلصاً

(١) انظر: الحياة الاجتماعية والدينية.

(٢) ابن سعد: الطبقات ٥/٥١١.

(٣) ديوان المثقب العبدى ٢٢٧.

(٤) ديوان المثقب العبدى ص ٢٠٨.

في صداقته وإما أن يخاصم مجاهراً في خصومته فإذا كانت الأولى فإن عبد القيس تحالفه وتقيم أحسن الصلات معه وإذا كانت الثانية فإنها ستعمل على اتقاء خطره والاستعداد لمواجهة غاراته وشروره<sup>(٤)</sup>:

إلى عمرو ومن عمرو أقتني  
أخي النجدات والحلم الرصين  
فإما أن تكون أخي بحق  
فأعرف منك غثي من سميني  
وإلا فاطرحني واتخذني  
عدواً أتقيك وتتقيني

والمتقّب في سماته هين ولين، عطوف شفوق، مرهف الإحساس، رقيق المشاعر وقد تجاوزت فيه تلك الأحاسيس والمشاعر إلى حد الرأفة بناقته والإشفاق فلئن أحدثت الغارات في نفسه جرحاً غائراً، فقد أصاب السفر منها عناء كبيراً فهي تتأوه أهة المسكين وتخاطبه مخاطبة الحزين، أنمضى الحياة تعباً ومشقات أما لهذا الرحيل من نهاية ولتلك الأسفار من آخر؟ إنه ليتألم ويحزن، ويمسك على جبينها، ويلتمس الصفح، وما حيلته؟ والأخبار تأتيه بسرعة ولا بد من رحيل سريع، فهو يناجيها وكأنما يناجي نفسه ويتألم لمصائب قومه، والضربات المتتالية فيهم<sup>(١)</sup>:

أكل الدهر حلّ وارتحال  
أما يُبقي علي وما يقيني

وبعد فهذه أهم صفات المتقّب العبدى ومعالم شخصيته، المتقّب السياسي والمتقّب الحكيم والمتقّب الانسان، نعم لقد كان المتقّب سياسياً بارعاً، وحكيماً أليماً، وإنساناً سليماً، وإلى جانب كل هذا كان شاعراً قديراً.

(١) ديوان المتقّب العبدى ١٩٤ .



## الدراسة الموضوعية

### الغزل

يحتل الغزل مكاناً فسيحاً من الشعر الجاهلي، تألفت فيه المرأة حسناً ودلالاً، وراح الشعراء يصفون فيها وجهها المشرق، وعيونها الناعسة، وغدائرها المرسلّة، وحديثها العذب، وحدثوا عن وصلها ومتاعها، وعن صدودها ومطلها.

وصدر الشعراء قصائدهم بالغزل في كل أغراضهم الشعرية حتى الرثاء وكانت افتتاحياتهم الغزلية من البدايات الشعرية الجميلة، بل كادت تكون أجملها، وهل أشهى إلى النفس وأحلى في القلب من شعر يصف جمال المرأة وسحرها، ويترجم عن دفقة الحب، وشغف النفس، وحنين الفؤاد إليها؟

والأمر مع المثقب، هل كان شاعراً غزلاً كسائر الشعراء، أحب المرأة وأسمعها ذوب قلبه، وكشف لها عن لواجع صدره؟ أم أنه أعرض عنها وابتعدت عنه، فراح يصور آلامه وأحزانه، ويصف صدودها وهجرها.

وفي الحقيقة فإن المثقب لم يكن شاعراً غزلاً، ولم يفرد في قصائده قصيدة كاملة في الغزل، وإنما جاء غزله في بدايات قصائده فهو غزل تمهيدي أو تقليدي تستهل به القصائد وتفتتح به الأشعار بل هو من المقدمات الغزلية الشعرية.

وفي هذا الغزل تطالعنا صورة المرأة عند المثقب، فهي واعدة حروم، ومماطلة صدود،

---

(١) ديوان المثقب العبدى ١٣٦ .

(٢) ديوان المثقب العبدى ١٣٦ .

ومخادعة كاذبة، تعرض عنه، وتمتنع عليه وتغلي حبها، وتقطع حبل ودها، والشاعر لا يتهالك على وصلها، ولا يركع أمامها، وإنما هو حازم صارم في شأن هذا الود، فهي إن وصلته وصلها، وإن قطعته قطعها وإن نأت عنه لا يكتوي بنيران أشواقها.

فصاحبة المثقب فاطمة تبخل عليه بمتاعها، وتمطل في وصلها، وتمعن في هجرها، لا تصدقه المواعيد ولا تجود عليه بودها، وحاله معها حال رياح الصيف التي لا تجدي نفعاً، ولا خير يرجى من هبوبها، وفي هذا الغزل نجد المثقب هائجاً، ثائراً، مهدهداً بالقطيعة، ومصرحاً بأنه لا يحب المخاتلة والخداع، فلو أن يده اليسرى خدعته خدعها، ولو أهملته أهملها، بل لقطعها واستراح منها<sup>(١)</sup>:

أَفاطِمُ قَبْلَ بَيْنِكَ مَتَّعِينِي  
وَمَنْعُكَ مَا سَأَلْتُ كَأَنْ تَبِينِي  
فَلَا تَعِدِي مَوَاعِدَ كَاذِبَاتٍ  
تَمْرُبُهُ رِيَا حُ الصَّيْفِ دُونِي  
فَإِنِّي لَوْ تَخَالَفَنِي شَمَائِلِي  
خِلَافُكَ مَا وَصَلْتُ بِهَا يَمِينِي  
إِذَا لَقَطَعْتُهَا وَلَقَلْتُ بَيْنِي  
كَذَلِكَ أَجْتَوِي مِنْ يَحْتَوِينِي

وصاحبه هند مثل فاطمة، ترضن بسلامها ومتاعها، وتعرض عنه وينفصل عنها بعد أن كان الوصل وطيداً والغرام شديداً، يلقاها وتلقاه ويسرقان المتعة ويصطادان الود، وهو يخبرنا عن هذه صاحبة بأنها من هذا النوع الذي تستميله أدنى بشاشة وأقل صحبة،

(١) ديوان المثقب ٦٢ .

(٢) تمثري: تستخرج، الأسابي: الطرائق (للمدح وما سال منه) النبهة: الانتهاء، الدرر: اللبن إذا كثر وسال أو الأمطار تتبع بعضها بعضاً، مرمعات: سائلات متتابعات، مغر: حمرة من الدم، خذلت: انقطعت.

(٣) ديوان المثقب العبدى ١٠، غان: جميلة، نهلة: رية، صد: عطشان، بدرة: كيس فيه ألف دينار، عرض: قوية، الجلمد: الصخر. وقال أبو اسحق: أراد ناقة قوية لا يعارضها في قوتها الجلمد ولا تجعل أولادها من عددها، «اللسان» مادة جلمد.

فهي تنصرف عنه عند أية بارقة أمل في ود غير وده ومتاع غير متاعه<sup>(٢)</sup>:  
ألا إن هـنداً أمس رثٌ جديدها  
وضئت وما كان المتاع يؤودها  
فلو أنها من قبل جادت لنا به  
على العهد إذ تصطادني وأصيدُها  
ولكنها مما تميّطُ بودها  
بشاشة أدنى خلةٍ تستفيدُها

وصاحبته ليلى ترحل بعيداً عنه، وتقطع وصلها معه فيبكي دموعاً غالية غلاء عقد  
اللؤلؤ ويطلب إلى قلبه أن يسلو حبها ويأمر دموعه بأن تكف عن انسكابها، فليس من  
الحكمة أن يبكي المرء امرأةً فارقتة ورحلت عنه<sup>(١)</sup>:

هل لهذا القلب سمع أو بصر  
أو تناه عن حبيب يدكر<sup>(٢)</sup>  
أو لدمع عن سفاه نهية  
تمتري منه أسابي الدرر

وصاحبته الجميلة «غانية» إنه ليطلب إليها وصلاً يروي فؤاده الظمآن وهو لا يغتصب  
المتعة اغتصاباً ولا يتعجلها فلا مانع عنده أن تكون في يوم آخر وهذه الجميلة لا ترفضه  
حبيباً لها ولكنها تغلي ثمن حبها فهي تريده أن يحضر لها بدرتين من الذهب مع إشراقة كل  
صباح حتى آخر العمر، أو مائة ناقة ضخمة سمينة وأولادها معها والمرأة هذا شأنها وهذه  
مطالبها الباهظة الثمن إنما هي في حقيقة أمرها تمنعه وصلها وتصدده عنها<sup>(٣)</sup>:

هل عند غان لفؤادٍ صد

(١) ابن رشيق: العمدة ١١٧/٢ .

(٢) جرونباوم: دراسات في الأدب العربي ٤٣ .

(٣) التبريزي: شرح المفضليات ٤٠٨ والأنباري: شرح المفضليات ٥٨٧ .

(٤) الميداني: مجمع الأمثال ١٢٥/١ .

من نهلة في اليوم أو في غدٍ  
قالت: ألا لا يشترى ذاك  
إلا بما شئنا ولم يوجد  
إلا ببدرٍ ذهب خالص  
كل صباح آخر المسند

وهكذا فإن غزل المثقب مع أولئك النسوة يخبر عن صدور وإعراض وعن هجر وانفصال وعن ألم وأحزان، وهذا الغزل لا يتناول الصباة ولا يصف التباريح ولا يحدث عن شوق أو يفصح عن حب، وما هكذا عهدنا الشعراء يتغزلون وإنما عهدناهم يعبرون عن أسر المحبوبات والتذلل لهن بأسلوب هين بسيط وناعم لطيف.

والمسألة في هذا الغزل أنه يرتبط بموضوع القصيدة ارتباطاً وثيقاً وأن العلاقة بينهما وطيدة وهي علاقة نفسية، فهما في الأصل تعبير عن موقف واحد يتمثل في وحدة الجو النفسي عند الشاعر، وقد أشار القدامى إلى مثل هذه الوحدة النفسية وذلك الترابط العاطفي عندما قال الحاتمي<sup>(١)</sup> «من حكم النسيب الذي يفتح به الشاعر كلامه أن يكون ممزوجاً بما يعده من مدح أو ذم متصلاً به» وكذلك ذكر جرونباوم الرابطة النفسية<sup>(٢)</sup> عندما قال «إن هناك نوعاً من رابطة نفسية بين القفز الاستطرادي من موضوع إلى موضوع».

وهذه الوحدة النفسية تنسحب على كل قصائد المثقب الشعرية التي صدرت بالغزل، فالقصيدة عنده كما عند غيره لوحات تعرض جوانب من الحياة العربية وتبرز صوراً من واقع تلك الحياة في قلب البادية وعلى امتداد السواحل التي تتأخمها، وهذه اللوحات إنما تسيطر عليها جميعها وحدة الجو النفسي.

(١) ديوان المثقب العبدى ٢٠٨ .

(٢) ديوان المثقب العبدى ٧١٠ الجلل: العظيم. حنوقطر: مكان في قطر.

(٣) نفس المصدر ١٠٢ .

فغزله في فاطمة جاء في مقدمة القصيدة التي يمدح فيها الملك عمرو بن هند<sup>(٢)</sup>، ويبدو أن الملك بعد ضربة دوسر الضربة المؤلة<sup>(٤)</sup> اختلف مع عبد القيس وتنكر لها وراح يماطل في عوده معها ويخون عهوده لها، الأمر الذي ترك الحيرة تمزق الشاعر فثار غضبه واشتدت حميته وراح يخاطب النعمان في قسوة وحدة ويطلب إليه أن يبين موقفه من العبيدين في قرار صريح فإما عداوة وجفاء وإما عودة وإخاء، وهكذا كان شأنه مع فاطمة إن وصلته وصلها وإن صدته صدّها، حتى مع يده اليسرى إن خالفت يده اليمنى بترها واجتواها، والشاعر إذن يكره المراوغة والمماطلة من الملك<sup>(١)</sup>.

والوحدة النفسية تسيطر على قصيدته الرائية التي ذكر فيها صاحبته ليلي فبالقصيدة أيضا موجهة إلى الملك عمرو بن هند، وقد ضرب العبيدين ضربة قاصمة بكتيبة دوسر وأذاهم وبطش بهم، فالتنكر واضح، والجفاء بائن، تماما كما هي حالته مع ليلي التي رحلت عنه وتحقق له هجرها وانفصالها، فالشاعر حزين متألم، يبكي ضربة قومه في منطقة قطر بتوجع وتفجع فيقول<sup>(٣)</sup>:

كل يوم كان عننا جلالاً  
غير يوم الحنو في جنبي قطر  
ضربت دوسرُ فينا ضربةً  
أثبت أوتاد مُلك فاستقر

وقصيدته الدالية نجد فيها مثل هذا الجو النفسي، وهي موجهة إلى الملك النعمان ابن المنذر «أبي قابوس» فالثقب عندما تلوح له بارقة أمل في ود جديد من الملك يسرع إليه في سفارته ويستعطفه في جمهرة العبيدين وأسراهم، وهذا نفس موقفه من صاحبته هند التي تلوح لها بارقة أمل في ود جديد تنصرف إليه وهو حزين لما أصاب قومه، لكنه كان يطمع في رضى النعمان الذي طوق العبيدين بمكرمه العظيمة في إطلاق الأسرى

(١) الغانية هي التي تطلب وهي المرأة الجميلة.

(٢) ديوان المثقب العبدى: ٢٢٠.

(٣) جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ٩٢/١.

(٤) البهيتي: تاريخ الشعر العربي ص ١٠٠

فمدحه المثقب قائلًا<sup>(٣)</sup>:

فإن أبا قابوس عندي بلاؤه  
جزاءً بنعمى لا يحل كُنودها  
رأيت زناد الصالحين تمينه  
قديمًا كما بذ النجوم سُعودها

ويبقى أمامنا من قصائده التي تصدرها الغزل قصيدتان: الأولى في صاحبته «غانية»<sup>(١)</sup> وهذه ضاع موضوعها على ما نعتقد إذ نجد بعد الغزل وصفًا للناقة ثم تنتهي القصيدة.

أما القصيدة الثانية وهي الميمية فإن المثقب فيها ينهض فرحاً مسروراً يستقبل صاحبته «طلحة» التي جاءت ليلاً زائرة، وهو لا يكاد يصدق ما يرى، لكنها الحقيقة هذه طلحة أمامه تجود عليه بهذا اللقاء، فيطير فرحاً ويتهلل وجهه بشراً، وإذا ما علمنا أن المثقب في هذه القصيدة يمدح خالد بن أنمار وقد أبهجت شفاعته خالد عند النعمان في شأن الممزق العبدى، أدركنا مدى سيطرة الوحدة النفسية في قصيدته الميمية، وفيها يقول<sup>(٢)</sup>:

طرقت طلحة رحلي بعدما  
نام أصحابي، وليلي لم أنم  
طرقتنا ثم قلنا إذ أتت:  
مرحباً بالزور لما أن ألم

وبعد كل هذا لا يتبقى أمامنا شيء في الغزل، فقد لا حظنا أنه في مقدماته الغزلية يربط بينها وبين موضوعاته التي عالجها وأشار إليها.

وفي كل تلك القصائد ذكر الشاعر خمس نساء هن فاطمة، وهند، وليلى، وطلحة، وأخرى لم يذكر اسمها واكتفى بأن يقول عنها «غان» وهي التي أشرنا إليها بأنها الجميلة. ولسنا ندري سبباً لهذا التعدد في الأسماء، فهل كانت تسميات لمعشوقة واحدة،

(١) ديوان المثقب العبدى ١٤٢ - ١٤٨ .

وحبيبة فريدة، فأحب أن يعدد أسماءهما؟. أم أنها من عرائس الشعر التي أشار إليها الباحثون<sup>(٣)</sup>؟ ومن الأسماء التقليدية التي تجري في الشعر عند الشعراء<sup>(٤)</sup> وأغلب الظن عندنا أنها من عرائس الشعر وأنها تقليد سار عليه المثقب كما لا حظنا ليلائم بين غزله وموضوعاته، فالمثقب لم تشغله المرأة، وإنما شغلته أحداث قومه، ومهمة السلام التي نهض بأعبائها وأمضى طيلة حياته مشدوداً إليها.

وهكذا كان الغزل أول لوحة من لوحات قصيدة المثقب التي سنمضي معها إلى الظعن فالناقة فالمدح فالحكم.

### شعر الظعائن؛

الظعن في الشعر الجاهلي لون غنائي عذب، وقف الشعراء عنده وأطالوا الوقوف وفاضت لواعج صدورهم بأغاريد زاخرة بالحب، مليئة بالحنين، ممزوجة بالحن.

وصف الشعراء الظعائن، وتتبعوا أماكنها، وذكروا طرقها، فأنجدوا وأسهلوا، وتحذثوا إلى المرأة الطاعنة ملتجئين ودها، وراحوا يرقبون رحيل أحبابهم، وحمول صاحباتهم، وبعدها يسكن الحزن نفوسهم، وتفيض بالدمع أعينهم، فيبكون بحرقة، ويجأرون بالشكوى، فلحظات الوداع قاسية موجعة، والفراق مؤلم محزن.

والمثقب العبدى عاش تجربة الارتحال بعاطفة جياشة، ومشاعر دفاقة، وتناول شعر الظعن بحماسة وانفعال شديدين فجاء شعره رقيقاً، عميق التأثير في النفس.

وتناول هذا الشعر عنده النواحي التالية: طريق الظعائن، والإبل الطاعنة، والأحداج والرجائز، والنسوة الطاعنات.

### طريق الظعائن؛

(١) ديوان المثقب العبدى ١٦٣، الرباوة: ما ارتفع من الأرض والغيب ما اطمئن منها.

(٢) القنادي: الوصف في الشعر الجاهلي ٣١٨.

(٣) ديوان المثقب العبدى ٦٤، الحزماء: ما اشرق من الأرض وكثرت حجارته، الأنماط: ثياب ملونة، الرقم: نوع من الثياب.

ورد الظعن في قصيدتين من القصائد السبع المشهورة التي بقيت في ديوان المثقب، ففي القصيدة النونية يتحدث عن خط سير الإبل ويعرج على ذكر الأماكن التي تجتازها، والبداية من وادي ضبيب حيث ظهرت الطعائن بعد لأي وتباطأ، ثم تمضي إلى منطقة شراف، ومباشرة إلى ذات رجل، وتنعط قليلاً لتكون الذرانج عن يمينها، وأخيراً تصل إلى فلج وهي أرض مستوية، فتبدو الطعائن وهي تتهاوى وسط بحر من الرمال سفناً عظيمة تعلو غوارب البحر<sup>(١)</sup>:

لَمَنْ ظُئِعْ طَالَعٌ مِنْ ضُبَيْبٍ  
فَمَا خَرَجْتَ مِنَ الْوَادِي لَحِينٍ  
تَبْصِرْ هَلْ تَرَى ظُعْنًا عَجَالًا  
بِجَنْبِ الطَّحَانِ إِلَى الْوَجِينِ

وهذه الأماكن هزت مشاعر المثقب ودفقت أحاسيسه وحملت له أجمل الذكريات، فراح مع الطعائن يهبط الوهاد والوديان، ويصعد التلال والمرتفعات يعلو إذا علت، ويهبط إن هي انحدرت<sup>(٢)</sup>:

عَلَوْنَ رِبَاوَةٍ، وَهَبَطْنَ غَيْبًا  
فَلَمْ يَرْجِعَنَّ قَائِلَةً لَحِينٍ

وذاك التحديد لتلك الأماكن والتنقل مع الطعائن وإن كان أمراً غير ذي بال عند غير المثقب أو كما يقول بعض الدارسين يجلب السأم<sup>(٣)</sup>، فهو عند الشاعر عظيم الأثر، كبير الأهمية، يجد فيه ارتياحاً لنفسه واطمئناناً لقلبه.

والمثقب عندما يحدد الأماكن ويسمي المناطق في طريق سير الطعائن فإنما يدل على قيمة إنسانية كبيرة في نفسه للربوع الحبيبة وأرض الحمى «الوطن» ومنازل قومه العبيدين.

(١) ديوان المثقب العبدى ١٤٩، البخت: الإبل الخراسانية، الأباهر: عروق الظهر، الشؤون: شعب الرأس.  
(٢) نفس المصدر ١٨٨، الكور: الرمل، الأنساع: الحبال، قرواء: سفينة طويلة، ماهرة: سابعة، دهن: مدهونة.

(٣) الأنباري: شرح القصائد السبع ١٣٧.

أما في القصيدة الرائية فلم يتبع الأماكن، وليست صاحبتة فاطمة التي تظعن هذه المرة وإنما هي «ليلي»، وظعائنها ترحل مبكرة وتجتاز أرضاً حزماء صعبة الصعود، صلبة الحجارة، وإنما على امتداد البصر أسر وجماعات.

ويبدو أن أبياتاً ضاعت من القصيدة، وأوصافاً أخرى كان لابد من وجودها لتكتمل معالم الصورة، ويؤكد هذا الضياع عندنا أن جواب الشرط بعد البيت الرابع في القصيدة غير موجود والمثقب يبدأ ذكر الظعن من البيت الرابع فيقول: (٣)

إن رأى طعننا لليلي غدوة  
قد علا الحزماء منهن أسر  
قد علت من فوقها أنماطها  
وعلى الأحداج رقم كالشقر

#### الإبل الظاعنة:

تسير هذه الأبل أسراً وجماعات، وترحل في قوافل، تشق رمال الصحراء وتجتاز معابر الفلاة، سترسله في سيرها، عظيمة في امتدادها، وقد أخبرنا المثقب بأنها إبل خراسانية، طوال الأعناق عراض الصدور، ضخام الرؤوس (١):

يشبهن السفين وهن بخت  
عراضات الأباهر والشؤون

وتشبيهه الجمال بالسفن صورة يكررها المثقب في حديثه عن ناقته متأثراً بما يشاهده

(١) ديوان الشاعر: ١٣٢، وفي رواية أخرى «نفاق كأنها عوم السفين».

(٢) ديوان عمرو بن قميئة ٦٠ العدولي: سفن منسوبة إلى عدولي بالبحرين.

(٣) ديوان المثقب العبدى ٢٦٢، ثاقبات: كريمات النسب، لؤي بن غالب: من قريش أكرم الناس حسباً وهو جد الرسول عليه السلام، ثعلبيات: من بني ثعلبة بن بكر بن وائل، عباب: موضع في ديار بكر، القعقاع: من تميم، وحاجب: عم القعقاع.

(٤) المفضليات ١٦٤، جلها الوادي: جانباه، توسق: تعدل.

في بيئة البحرين<sup>(٢)</sup>:

كأن الكور والأنساع منها  
على قرواء ماهرة دهن

وتأتي هذه الصورة من الضخامة والتتابع في المسير، فالإبل تتمايل وتضطرب وتمضي مسرعة وكذلك السفن يميلها الملاح ويعدلها وهي تتابع سيرها وسط الأمواج وقد أكثر الشعراء في الجاهلية من استخدام صورة السفن عند ذكر الظعائن فطرفة يتحدث عن حدوج صاحبه المالكية قائلاً<sup>(٣)</sup>:

كأن حدوج المالكية غدوة  
خاليا سفين بالنواصف من دد

ويقول عبيد بن الأبرص لصاحبه وهو يحدثه عن حمل القوم<sup>(١)</sup>:

تبين صاحبي أترى حمولاً  
يشبه سيرها عوم السفين

ويستخدم عمرو بن قميئة نوع السفن حين يتحدث عن سرعة العير والقافلة<sup>(٢)</sup>:

هل ترى عيرها تجيز سراعاً  
كالعدولى خارجاً من أوال

ويتباهى المثقب بأن ظعائن صاحبه فريدة من نوعها، تفوق ظعن أشهر قبائل العرب، قريش وبكر بن وائل وتميم<sup>(٣)</sup>:

ظعائن لا توفي بهن ظعائن  
ولا الثاقبات من لؤي بن غالب  
ولا ثعلبيات حلن عباعباً

(١) ديوان المثقب العبدى ١٤٨ - ١٥٠ .

(٢) لسان العرب ٢/ ٢٣٠ .

(٣) ابن سيده: المخصص ١٤٧/ ٧ .

(٤) لسان العرب ٧/ ٢١٩ .

(٥) ديوان المثقب العبدى ١٥٤ .

### ولا أسرة القعقاع من رهط حاجب

والشاعر الوحيد من بين شعراء عبدالقيس الذي شارك المثقب في إبراز صور  
الظعائن هو الممزق فقد أعلن عن فزعه من رحيل صاحبتة وقد رأى أهلها يستعدون  
للسفر عند الصباح، وعندما استوت النساء على الأحداج راحت الإبل تجتاح مناطق  
الرجا وقراقر<sup>(٤)</sup>:

صحا من تصابيه الفؤاد المشوق  
وحان من الحي الجميع تفرق  
لذن شال أحداج القطين غدية  
على جلهة الوادي مع الصبح توسق  
تطالع ما بين الرجا فقراقر  
عليهن سربال السراب يرقرق

ولم يذكر المثقب لنا زمن الرحلة أو الظروف المحيطة بها لكنه في حديثه عن ناقته  
يطيل الوقوف عند كل أمر وسنأتي على ذلك في شعر الناقة.

### الأحداج والرجائز:

عند الرحيل تأخذ المرأة أجمل زينتها، ويستعد القوم، وتزين الإبل الطاعنة بأبهى  
الحلل وتغطي الأحداج بأكسية زاهية فاخرة، ويشير المثقب إلى الأحداج والرجائز في  
نونيته فيقول<sup>(١)</sup>:

وهن كذاك حين قطعن فلجاً

(١) ديوان المثقب العبدى ص ٦٥.

(٢) لسان العرب ٩٠/٦ وقال الأنباري: الرقم والعقل من ثياب اليمن.

(٣) ديوان المثقب العبدى ص ٦٥ .

(٤) نفس المصدر ١٥٦ .

(٥) انظر: الصناعة عند عبدالقيس.

كأن حدوجهن على سفين  
وهن على الرجائز واكنات  
قوائل كل أشجع مستكين

فالحدوج جمع حداجة مركب تركبه النساء مثل «المحفة» والهودج<sup>(١)</sup>، أما الرجائز جمع رجارة فهي أيضاً مركب من مراكب النساء لكنها أصغر من الحداجة، وعند ابن سيده<sup>(٢)</sup> أن الرجارة كساء من الصوف تجعل فيه أحجار يوضع بأحد جانبيها الهودج يعدله عند الميل والاضطراب أثناء المسير، ويرى ابن منظور<sup>(٣)</sup> أن الرجارة مركب للنساء دون الهودج يزين بصوف وشعر أحمر، أما اليزيدي فيقول بأن الرجارة هي الهودج<sup>(٤)</sup> ومن كل هذا ندرك أن الأحداج والرجائز نوعان من أنواع المراكب التي عرفها الجاهليون واستخدموها في رحيل نسائهم، ويبدو أن المثقب استخدم الحدوج بمعنى المراكب والرجائز بمعنى البسط والطنافس لأنه قال: إن النساء جالسات مطمئنات على الرجائز.

وتزين الأحداج بالأنماط وهي أكسية ملونة وبسط فاخرة<sup>(٥)</sup> وتغطي بالكلل من الستائر الرقيقة فتبدو وكأنها غرف أنيقة لعبت فيها يد فنان عند الطلاء وهذه الأكسية وتلك الأغشية غالباً ما تكون من اللون الأحمر، ومن أنواعها العقل والرقم فالعقل أثواب حمراء كان العرب يسدلونها على الهودج، أما الرقم فهو خز موشى وضرب من البرود المخططة كما يقول ابن منظور والمثقب بين لنا أن الرقم قماش أحمر يشبه في احمراره شقائق النعمان ولون الدم عندما يقول<sup>(٦)</sup>:

قد علت من فوقها أنماطها  
وعلى الأحداج رقم كالشقر

ويتحدث عن ظهور النسوة خلال الكلل والستائر وهي تمضي مرتحلة<sup>(٧)</sup>.

(١) ديوان المثقب العبدى: ١٥٠، ١٥٤، واكنات: مطمئنات، الأشجع: الشجاع، ذات ضال: موضع فيه شجر السدر.

(٢) طه حسين: حديث الأربعاء ١٦٦.

(٣) ديوان المثقب ١٥٧.

ومن هنا ندرك أن أحداً صاحباً الشاعر كانت تغطي بصوف أحمر اللون وبأكسية من النوع الفاخر الثمين وأن قماش «الرقم» أكثر الأنواع استخداماً في زينة الحدوج عند العبيدين.

وقد أشرنا إلى أن الحداجة والرجازة من المراكب التي تصنع على أرض عبد القيس<sup>(٥)</sup> وربما كان الرقم والأكسية الأخرى من منسوجاتهم.

#### النسوة الظاعنات:

لا نغالي إذا ما ذكرنا أن صاحبة المثقب فاطمة كانت من وسط ثري، وهي حسنة، جميلة، منعمة، زاهية الثياب، طويلة الضفائر، والنسوة اللاتي رحلن معها وبرفقتها من وسط «اقتصادى» حسن، يجلسن مطمئنات على الرجائز وفي الأحداج ساحرات فانتات، ودولة السحر والجمال يخضع لها أشجع الرجال وهن جميلات العيون، رشيقات القوام، تعمدن النظر إلى الأحبة وكأنهن غزلان اشرايت أعناقها تتناول دانيات الأغضان في ذات ضال<sup>(١)</sup>:

وهن على الرجائز واكنات

قواقل كل أشجع مستكين

كغزلان خذلن بذات ضال

تنوش الدانيات من الغصون

وببراعة فائقة يصف لنا المثقب هذا الإصرار عند النسوة على مشاهدة المودعين والنظر إلى الأحبة، فهن يرخين الستائر الرقيقة والكلل الموشاة من جانبيها ويرفعن قسماً منها من جانب آخر وليس الأمر كذلك فحسب وإنما يثقبن الوصاوص «البراقع» فتبدو العيون الناعسة والوجوه المشرقة، ولهذا يقول طه حسين<sup>(٢)</sup>: «وجدت بمن يثقب الوصاوص أن يلقب «بالمثقب».

(١) ديوان المثقب العبدى ١٦٣، قروته: نفسه، مصحبتى: منقادة لى.

وفي تسلسل شيق ووصف رشيق مضى المثقب يتحدث عن أسباب محاسن  
الظاعنات، فهن يرتدين أثواباً من الديباج ويتزين بالذهب يتموج على صدورهن الناصعات  
البياض وقد أرخين ذوائبهن على ظهورهن، وهن مع ظلمهن للرجال مطلوبات مرغوبات فإذا  
ما وقع الإنسان في فتنتهن وتملكن قلبه أصبح من العسير عليه أن ينجو من حبهن فيتودد  
إليهن ويطلب الوصل منهن<sup>(٣)</sup>:

وهن على الظلام مُطلبات  
طويلات الذوائب والقرون  
إذا ما فُتنه يوماً برهن  
يعزُّ عليه لم يرجع لحين

والمثقب بعد ذلك يزعم الرحيل في شدة الهاجرة ويمضي عاصباً جبينه من الحر  
اللافح، ويقترب من الظعن، وهو يرى صاحبتة تفوق النسوة حسناً وجمالاً، ويحلو له  
الحديث مع واحدة منهن وهو يقصد فاطمة، ويطلب إليها أن لا تقطع حبل الود بينهما فهي  
إن فعلت فهو مضطر إلى القطيعة بالرغم من أن قلبه لا يطاوعه على الفراق<sup>(١)</sup>:

فقلت: لبعضهن وشُدُّ رحلي  
لهاجرة عصبت لها جبيني  
لعلك إن صرمت الحبل مني  
أكون كذاك مُصحبتي قروني

لقد رسم المثقب بصبر طويل، وجهد كبير منظر الرحيل، وبرع في التعبير عن لهفته  
وحنينه وذكرياته، وأجاد في وصف محاسن الظاعنات، فشعر الظعن حبيب إلى النفس،  
قريب من القلب وما يصدر عن النفس يلقي قبولاً في القلب<sup>(٢)</sup>.

والظعن هو اللوحة الشعرية الثانية التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالغزل وتتابع مع بقية  
لوحات القصيدة عند المثقب.

وما دمنا قد ارتضينا الوحدة النفسية في لوحة الغزل عند المثقب فنحن نرى مثل هذه الوحدة في لوحة الظعن عنده كذلك، فهو ينتقل من الغضب والثورة على صد الحبيبة وهجرها إلى الهدوء والسكينة في أيام الود والصفاء معها فينظر إلى تلك الأيام الغابرة وساعات الذكريات الجميلة، وتراه ينقل بصره ويطوف بعينه في مرابع الأحبة ينظر من خلال آلة تصويره فيرى فاطمة القديمة، فاطمة الجميلة التي تحبه وترضاه والتي تدنيه منها وتقربه إليها، إنه يذوب وجداً في ذاك الوصال ويمتلئ حيناً إلى أيام المتاع وفي هذا الموقف يعدد أسباب حسنها، وتتبع آيات جمالها وينقلنا معه في رحلة جميلة.

وفجأة يجذبه حاضره مع فاطمة فيصرخ ويصرح بأنه لن يخضع لها ولن يأسره حبها، فإن هي صرمت صرمها، وإن أنكرته أنكرها.

وهو إنما يعطي الفرصة للملك عمرو بن هند ليراجع سياسته مع العبددين ويفسح له المجال في أن يصدر قراراً سياسياً لا تعصف به رياح الفتن ولا ساعات الغضب ولا تنكره شبهاة الأقوال والأمر مع هذا الملك أن يكون أخصاً صديقاً أو عدواً مخادعاً وكل ما يريده المثقب منه حزماً في الأمر، وسداداً في الرأي وصراحة في الموقف وصدقاً في القول.

#### شعر الناقة:

تحتل الناقة مكاناً بارزاً في أشعار المثقب، فقد وقف عندها ومعها طويلاً، هام بها،

(١) قوية، ضخمة.

(٢) شديدة، صلبة.

(٣) طويلة العنق.

(٤) كثيرة اللحم.

(٥) سريعة.

(٦) ثقيلة في غير بطء.

(٧) بخبة، قوية السير.

(٨) ديوان المثقب العبدى ١٦٥، ٢٦، ٨٨، ٢٤١.

وغنى لها أجمل القصائد، وتحدث إليها، ووصفها وصفاً دقيقاً فلم يترك صغيرة ولا كبيرة فيها إلا ذكرها، فهي مهوى فؤاده ومحط بصره وباعث الحسرة على لسانه إنه يحدث عنها، وكأنه عاشق لها وبينهما صداقة حميمة، ولم تحرمه من هذا العشق؟ وتنكر عليه تلك المودة؟ أليست ناقته التي ترحله إلى الملوك وتصحبه في أجواز الفلاة، وتمضي به في كل قفرة وعلى مثلها ترحل صاحبتة، منها جل فوائده، وهي معوانة على بلوغ المآرب والحاجات.

فلا غرو أن وقف في إعجاب يصف كل شيء فيها، وينظر إليها بالعيون التي ينظر بها إلى العالم ويتحدث عن طباعها وخصالها وأحاسيسها ويكفي أن نقول: هنا: إن شعر الناقة وحده يمثل مكانة بارزة فربح ديوان المثقب المتبقي من أشعاره في وصفها.

وللناقة نعوت كثيرة فهي ذات لوث<sup>(١)</sup>، وعذافرة<sup>(٢)</sup>، وعرفاء<sup>(٣)</sup> ووجناء وفتلاء اليدين، ولكية<sup>(٤)</sup>، وذريعة<sup>(٥)</sup>، ورجوم<sup>(٦)</sup>، ويعملة ورجيلة<sup>(٧)</sup>.

والمثقب مثل شعراء الجاهلية يذكر تسليية الهموم بركوب ناقة ضخمة الجسم، مرتفعة السنام، وعظيمة الوجنات، مفتولة الذراعين، مكثرة اللحم موثقة الرساغ، نجية الطباع، كريمة الأصل، تنهب الأرض بأخفافها وتقطع أجواز الفلاة برسيتها، فلا يتعبها رحيل ولا يأخذ منها سفر، وفي كل هذه المعاني والأوصاف يقول المثقب:

**فسل الهم عنك بذات لوث**

**عذافرة كمطرقة القيون<sup>(٨)</sup>**



(١) نفس المصدر ٢٣، ٢٨، تجاليد: جسم، اقتاد: الرحل، ناو: مرتفع، فدن: قصر، مؤيد: موفق نهاض، عنق، حارك: سنام، تنمي: ترفع.

(٢) نفس المصدر ١٨٠، جئل: كثير، خواية: فرجه، مقلات دهين: ناقة قليل.

(٣) نفس المصدر ٢٢، مرود: حديدة اللجام، محصد: حيل أو سوط.

(٤) نفس المصدر ٩٥، ١٧٠، الجنب: الهر، مقعد غرزها: مكان رحلها، الوجيف: السير، الوضين: حزام الرحل.

(٥) ديوان المثقب العبدى ١٧٨، ٣٥، المشقتر: المتفرق من الحصى، القرد: الأرض الغليظة.

عرقاء، وجنء، جُمالية  
مُكربة أرساغها، جلمد



قطعت بفتلاءِ اليدين ذريعة  
يغول البلاد سومها وبريدها



ويعملة أرمي بها البید والسرى  
يقطع أجواز الفلاة رسيمها

وسنام ناقتة سامق مرتفع وعنقها طويل صلب ترفعه إلى سنانها إذا سارت<sup>(١)</sup>:

ينبي تجالیدی واقتادها  
ناو كُراس الفدن المُوَيِّدِ  
تَنمي بنهاض إلى حاركِ  
ثم كُرُكن الحَجَرِ الأصلدِ

حتى الذنب يكون له نصيب في أوصاف المثقب<sup>(٢)</sup>:

تشدد بدائم الخطران جثث  
خوايسة فرج مقلاتٍ دهين

ثم يتناول حركتها فهي سريعة، نشيطة، لا يحتاج الأمر معها إلى سوط يحثها  
على المسير<sup>(٣)</sup>:

تعطيك مشياً حَسناً مرةً

(١) نفس المصدر ٢٤٩، الصدى: طائر في الليل يسير، السرى: السير ليلاً.

(٢) نفس المصدر ٢٠٥، المسبكر: المستوى من الأرض، تعارض: تباري، ضحاح: ماء قليل، المتون: الأرض  
الصلبة، لاحب: طريق، منفهق: واسع، برجد: ثوب.

(٣) نفس المصدر ٨٦ قال الأنباري «أراد وقت شدة الحر وثبوت الشمس في كبد السماء»، الصواريخ:  
الطيور، أمت: اشتد حرها، يطوي ربطها: شبه السراب ببياض.

## حثك بالمرود والمُحصَدِ

وعبر عن سرعتها بأن هراً علق بمعقد حزامها ينهمها، وتطرده عن نفسها ولكنه لا يتراجع وإنما يزيد لها أذى، فتجد في سيرها، هاربة، فارة<sup>(٤)</sup>:

بصادقة الوجيف كأن هراً  
يباريها ويأخذ بالوضين

والناقاة وهي مسرعة تقذف الحجارة ويصطدم الحصى الغليظ بجانبها في باطن الوادي فيسمع له عزف جميل<sup>(٥)</sup>:

تصك الجانبين بمشقتير  
له صوت أبج من الرنين



وتسمع تعزافاً له رنة  
في باطن الوادي وفي القرددِ

وتمضي رغم الأهوال والشدائد في أرض مقفرة، خلت إلا من صور الجنادب وأصوات اليوم وهي ترحل في كل وقت، في الليل والنهار، وفي شدة الهاجرة التي تلفح الوجوه وتغير الألوان<sup>(٦)</sup>:

أمضي بها الأهوال في كل قفرة  
ينادها صداها آخر الليل بومها  
أنص السرى فيها بكل هجيرة  
تغير ألوان الرجال سمومها

وتسير في أرض غليظة وطرق ممتدة، ليست على استواء واحد، صلدة الحجارة

(١) نفس المصدر ١٨٤ .

(٢) ديوان المثقب العبدى ٩٠ التنوفة: الصحراء والقفر من الأرض، القنود: أداة الرجل، اليداعة: مكان.

(٣) نفس المصدر ١٧١ .

(٤) نفس المصدر ١٩٤ .

كثيرة الحصى<sup>(٢)</sup>:

فَرُحْتُ بِهَا تُعَارِضُ مُسَبِّحاً  
على ضحاضاحه وعلى المتون

ويخبرنا المثقب أنه أخو سفر وجواب أرض يقطع البیداء راغباً في حر الظهيرة وقد  
استراحت الشمس في قبة السماء وانتشر السراب كالريط والبرود<sup>(٣)</sup>:

أعادل ما يدريك أن رب بلدة  
إذا الشمس في الأيام طال ركودها  
وأمت صواديح النهار وأعرضت  
لوامع يطوي ريطها وبرودها

وتنام الناقة وتعرس ليلاً عندما ينال منها التعب فتبرك على ثفنتها حيثما  
انتهى بها المسير<sup>(١)</sup>:

وألقيت الزمام لها فنامت  
لعادتها من السدف المبين

وفي بعض الأحيان تنام عند ملتقى الطرق وبجانب البحر<sup>(٢)</sup>:  
فبت وباتت بالتنوفة ناقتي  
وبات عليها صفني وقتودها  
على طرق عند اليراعة تارة  
توازي شريم البحر وهو قعيدها

أما طعام الناقة فهو علف من النوى المدقوق والورق المتساقط من شجر السدر يكثر  
مثله في منطقة القطيف حيث النخيل الذي يستخدم نوى تمره علفاً للإبل والعناية بطعام  
الناقة أمر حيوي لتبقى في نشاط دائم واستعداد مستمر<sup>(٣)</sup>:

كساها تامكاً قرداً عليها  
سوادي الرضيع مع اللجين

(١) الكفراوي: الشعر العربي بين التطور والجمود ٣٧ .

(٢) ديوان المثقب العبدى ٢٦ .

وحياة المثقب مع الناقة حياة مشقات، فلا هي تستريح، ولا هو يريح، انظر إليه الوقت آخر الليل، وأمر عاجل أتاه، فينهض، وينهض راحلته ويهيء متاع السفر، فتدرك مراده، وتشتكي من كثرة أسفاره وتتأوه حزينه متألة، فمشقة الرحلة وعنت السفر يصيبان منها شيئاً كثيراً، ولكن ما الحيلة، إنها تدعن، وترضى، إن فيها صبراً جميلاً على المكروه ونزولاً مستكيناً الخطب الملم، ويدنو منها، يمد لها الزمام ويشد الرحل، ويمضي بها أعز صديق وأكرم رفيق، حقا إنه وصف رائع ومن أدق ما عرف الناس في وصف الإبل<sup>(٤)</sup>:

تقول وقد درأت لها وضيئي:  
أهَذَا دِينُهُ أَبَدًا وَدِينِي  
أَكْلُ السَّهْرِ حُلُّ وَارْتِحَالُ  
أَمَّا يُبْقِي عَلَيَّ وَمَا يُقِينِي

ويقول الكفراوي<sup>(١)</sup>: «أليست الناقة شريكة البدوي في أفراحه وأحزانه، ومعوانه على بلوغ مآربه وإمضاء همومه، وبذا قويت الرابطة بينهما حتى ليكاد يناجيهما بخلجات نفسه وتناجيه».

ولئن وقف شعراء الجاهلية عند أمور هامة في الناقة أبرزها ما يتعلق بجسمها وأعضائها وما يتناول أحاسيسها ومشاعرها، وما يدور حول مهمتها والعناية بها فإن المثقب قد وقف عند هذه الأمور جميعها وحدثنا حديث الخبير المعجب بكل ما يتصل بناقته وسفينة صحرائه وليس أدل على هذه الخبرة من أنه جمع لها خمس صفات في بيت واحد من الشعر ننشده معه<sup>(٢)</sup>:

عرفاء، وجنء، جُمالية  
مكربة أرساغها، جلمد

وقد طال الكلام، وامتد الحديث عن الناقة، وكان أمامنا هذا الفيض الزاخر من الشعر فيها، وحرار الدارسون في أوصافها، فتعددت الأسباب وتباينت الآراء وتمايزت الأقوال، فقد قيل: إن هذا الوصف جسر يمتد طويلاً أو قصيراً يجتازه الشاعر من الغزل إلى المديح وإن هذا الوصف أيضاً لون من المغامرات وضرب من الهوايات، وآية من التفنن

(١) ديوان المثقب العبدى: ٦٨ .

وقدرة على احتمال المخاطر وتسلية للهموم، وتعبير عن الحياة والزمان ورمز للحيوان وللأمومة في حياة الجاهليين.

وكل تلك الأقوال تجوز في ناقة المثقب إلا أننا نرى أن وصف المثقب لناقته إنما يحدث عن فتوته وقوته، فناقته صورة مطابقة تمام المطابقة لواقع حياته وانعكاس شديد لحالته النفسية، بل نستطيع أن نزعّم أنها تقدم لنا المثقب من خلال الحديث عنها وفيها، فهي قوية قوة نفسه، وعالية علو همته وضخمة عظيمة ضخامة وعظمة المهمة التي ينهض بأعبائها، وسريعة سرعة حركته وتنقلاته، فالسفير لا بد أن يكون نشيطاً، وسريعاً، ودؤوباً وهي مصابرة مثابرة، تحتل الشدائد وتعتسف المخاطر تدفعه من أرض إلى أرض ومن شاطئ إلى شاطئ وتحمله من بلد إلى بلد في حر الرمضاء وسموم الفلاة وقفار الداوية وفي هدأة الليل وهجيرة النهار وهي تتألم كما يتألم وتشكو مثلما يشكو، وتنكر عليه ما ينكره على غيره، إنها باختصار عظيمة متألّة وإنه عظيم متألم، ألم نقل: إنها صديق عزيز ورفيق معين ولذا كان المثقب يفر من واقعه إليها أكثر الحالات ويرى نفسه فيها غالب الأحيان.

#### شعر المدح:

مدح المثقب ملكين من ملوك المناذرة الأول عمرو بن هند والثاني النعمان بن المنذر الملقب بأبي قابوس، فإذا ما تتبعنا أشعاره في ابن هند نجدها قليلة ولا تسعفنا بمعلومات واضحة تغطي مدى العلاقات السياسية التي كانت تربط بين المثقب والملك أو بين المناذرة والعبديين.

ففي القصيدة الرائية يصرح الشاعر بأنه لم يأت بلاط عمرو بن هند، ولكنه يستحق المدح، ويجدر بالإنسان أن يسافر إليه ويلقاه، فهو واسع الملك، يحكم من سيف الخليج حتى أرض الحجاز، والملك بسام الثنايا، وضاح الوجه، من نسل جبر الكندي، ودوحة المناذرة فهو خالص النسب، نقي الدم<sup>(١)</sup>:

وإلى عــــــــــــــــمــــــــــــــــرو وإن لم آته

(١) ديوان المثقب ٢٠٨ .

(٢) البكري: معجم ما استعجم ٢٠٨٢ .

(٣) جرجي زيدان: تاريخ أدب اللغة العربية ٨٤/١، شعراء النصرانية ٤٠٠.

تجلب المدحة أو يمضي السفر  
واضح الوجه، كريم نجره  
ملك السيف إلى بطن العشر  
حجري، عائدي، نسباً  
ثم للمنذر إذ جلى الخمر  
باحري الدم، مر طعمه  
يبرئ الكلب إذا عض وهر

وفي القصيدة النونية يصرح المثقب بمشروع رحلة إلى بلاط الملك عمرو وأنه سيشد  
الرحال إليه، فإن أمراً عاجلاً أتاه، والملك صاحب نجدة ومروءة وذو حلم وسماحة، وبعد  
ذلك نجد عتاباً قاسياً وموقفاً حاداً يصل إلى واحدة من اثنتين فإما إخوة ومودة وإما  
خصومة وعداوة<sup>(١)</sup>:

إلى عمرو، ومن عمرو أتتني  
أخي النجدات والحلم الرصين

وهذه الأبيات تثير أسئلة كثيرة.. فما الأمر الذي أتاه؟ وهل كان دعوة من الملك أم  
مجرد خبر تناهى إليه؟ وما هو موقف الشاعر من تلك الدعوة وذلك الخبر؟ وهل وصل  
المثقب الحيرة وحلّ في بلاط عمرو بن هند وأنشده قصيدته النونية؟

وأغلب الظن أن أنباء وصلت إليه بعد معركة حنو قطر<sup>(٢)</sup> وبعد ضربة دوسر الموجهة  
في العبيدين تطلب إليه الحضور، فاستعد للرحيل ليسوي الأمور ويبسط شؤون القبيلة بين  
يدي الملك.

ويبدو أن المثقب كان بين الرجاء في مروءة الملك والطمع في مكان لائق لقومه وبين

(١) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٣٩٥ .

(٢) ديوان المثقب.

الخشية من عواقب الرحلة والخوف من تبدل حال ابن هند الذي كان سريع الغضب والمخادعة، ومع ذلك فقد عقد المثقب عزمه على أن يكون صريحاً أمام الملك ويطلب إليه «ايضاحاً» عن موقفه من العبيدين فإما عداوة فيستعدون ويحذرون وإما مودة ويعود السلام بين الحيرة والبحرين.

أما خبر وصول المثقب الحيرة فقد أشار إليه بعض الباحثين<sup>(١)</sup> لكننا نستبعد هذا الخبر ونرده لعدة أسباب: فالمثقب يصرح بأنه لم يأت قصر ابن هند والمصادر التي بين أيدينا لا تؤكد خبر الوصول.

فابن قتيبة<sup>(٢)</sup> لم يذكر شيئاً عن رحلة المثقب إلى الحيرة، واكتفى بالإشارة إلى أنه عاش زمن عمرو بن هند، وشعر المثقب لا يحدثنا بشيء عن هذه الرحلة فالمدح في قصيدته جاء في نصف بيت من الشعر وهو أمر غريب، ومن المستغرب أيضاً أن يخاطب الشاعر الملك بمثل هذه القسوة والحدة في داخل قصره وبين يديه.

والذي نظنه أن المثقب عزم على الرحيل لكنه أحب أن يطلع على رأي الملك قبل أن يمثل بين يديه فأذاع قصيدته النونية.

أما الملك الثاني الذي مدحه المثقب من ملوك المناذرة فهو النعمان أبو قابوس، فذكر أن هذا الملك طوقه بجميل لا ينساه أبد الدهر وأسبغ عليه نعمة لا ينكرها مدى حياته، فهو الذي أطلق سراح جمهرة العبيدين وأسراهم مما ألهج لسان الشاعر بالثناء والتكريم، والنعمان من أصل كريم ونسب رفيع يتفوق على غيره كما يفوق نجم السعود سائر النجوم ويبالغ في قوة النعمان وقدرته إذ إنه يخضع الجبال الراسية ويقودها بأمراسه إذا ما استعصت عليه، فلا يعيقه أمر ولا يقف أمامه مانع وهو أيضاً لا يتفوق بنسبه فحسب، وإنما يتفوق بحزمه وجوده على سائر الملوك<sup>(٣)</sup>:

**فإن أبا قابوس عندي بلاؤه**

(١) ديوان المثقب ٢٢١ العظم: الأمور العظيمة، الجفنة: القصعة وفي رواية منزع الجفنة: أي ملائنة، ربعي الندي: مبكر العطاء. لطم: سقه وطيش.

(٢) ديوان المتلمس الضبعي ٢٠٤ .

جزاءً بنعمى لا يحلّ كنودها  
إلى ملك بذّ الملوك بسعيه  
أفاعيله حزمُ الملوك وجودها

والرجل الثالث الذي مدحه المثقب هو خالد بن أنمار أحد رجالات عبدالقيس فقد قام بمأثرة حميدة وشفاعة رشيدة عند النعمان، وخالد رجل كريم، جفانه مترعة، يعطي بكثرة وعطاؤه يتقدم الآخرين ومجلسه هادئ فيه يلتقي ذوو العقول المفكرة وأصحاب الآراء السديدة فلاسفه ولا طيش وإنما تعقل واتزان والمال عنده وسيلة لا غاية فإذا ما أنفق هذا المال فإنما يقصد سمعة باقية ومحمدة دائمة وعرضاً مصوناً فما فائدة المال؟ إذا لم يصن العرض ويحفظ الشرف ويطعم الضيف ويوسع على المحتاج:<sup>(١)</sup>

إنما جاد بشئأس خالد  
بعدمما حاقت به إحدى العظم  
باكر الجفنة ربعي الندى  
حسن مجلسه غير لطم

وإذن أرسل المثقب مدائحه في اثنين من ملوك المناذرة وواحد من عبدالقيس وأغلب الظن أنه شخصية بارزة من العبيدين وكان يتمتع بحظوه عند النعمان بن المنذر.

ونتساءل كيف أقدم المثقب على مدح الملكين؟ والأول منهما وهو عمرو بن هند أوجع العبيدين بكتيبة دوسر وفي منازلهم بقطر والثاني وهو النعمان بن المنذر وجه إليهم ضربة قاسية بكتيبة الجأواء وقضى على تمردهم في عمان، فمدحه لعمرو بن هند سبق وأن تحدثنا عنه وأما مدحه للنعمان بن المنذر فالأمر معه في غاية البساطة، ألم نقل إن المثقب كان سيد القبيلة وشاعرها وسفيرها في الملومات؟. ولهذا راح السفير ينتقل بين الحيرة والبحرين يبسط القضايا، ويعالج المواقف ويلتمس السبل ليبقي على شأن قبيلته ويبحث عن حلول ناجحة تحفظ لها مكانتها وكرامتها فلا يريد أن تظل جريحة مكلومة ولا يرغب في أن تصبح خاملة الذكر تقعد إزاء الهزيمة بعد أن عيرها الشعراء وتقولوا عليها، فقد

(١) ابن دريد: الاشتقاق ٣٣٠ .

قال عن المتلمس الضبعي يحرض قومه على عصيان المناذرة<sup>(٢)</sup>:

كونوا كبكر كما قد كان أولكم  
ولا تكونوا كعبد القيس إذ قعدوا  
يعطون ما سئلوا والخط منزلهم  
كما أكب على ذي بطنه الفهد

وراح المثقب يشهد للمناذرة بالقوة والغلبة، ويسعى إليهم في بلاطهم يسوي الخلافات ويطلب السلام، وكان هذا المنطلق الفكري وذلك السعي الأدبي أمرين يرضيان النعمان بن المنذر الذي يأمر بإطلاق سراح الأسرى ويقرب منه العبيدون فيبتهجون لهذه المكرمة الكبيرة.

والأمر في مدح خالد بن أنمار أيضاً يسير، فالرجل من الشخصيات الهامة في عبد القيس ألمه ما آلت إليه الأمور في قبيلته وأحزنه سوق جمهرتها إلى الحيرة وخصوصاً الممزق الشاعر وكان خالد يتمتع بمكانة مرموقة عند المناذرة ويحظى بتقدير كبير<sup>(١)</sup> فهب يستغل هذه المكانة وذلك التقدير ويساهم في الجهود المبذولة من أجل السلام وإطلاق سراح الأسرى، ويبتهج المثقب لهذا العمل الخير ويمدحه بقصيدته الميمية.

وبقي أن نقول: إن المثقب ترفع عن الاستجداء ولم يمدح طمعاً في الكسب ولا رغبة في العطاء ولم يرق ماء وجهه من أجل المال فعنده منه الكثير وبلاده ثرية غنية وإنما هو يعتمد المدح سلاحاً فكرياً يستخدمه في كل المجالات التي تعود بالنفع والخير على قومه العبيدين فهو ملتزم أشد الالتزام بمبدأ الدفاع عن القبيلة بالحكمة والتعقل، ويحق لنا أن نزع أن جهوده حققت لعبد القيس ما عجزت عن تحقيقه السيوف والرماح في حرب التمرد الأخيرة في عمان.

#### أغراض أخرى:

فيما عدا الغزل والظعن والناقة والمديح يبقى أماننا الفخر والحكم، أما شعر الحكم فلا نريد أن نقف عنده حتى لا نكرر ولأننا أوردناه فيما سبق من الدراسة الموضوعية.

أما الفخر فقد جاء عند المثقب في قسمين: الأول فخر بنفسه والثاني بقبيلته، فهو يعتز بنسبه، ويفخر بمكانة أسرته العريقة في المجد والرئاسة والشعر وهو من نسل معد، وبيته في الذروة من عدنان، وهو هامة بين قومه الذين هم فرع أشم في عبد القيس:

أنا بيتي من معد الذرى  
ولي الهامة والفرع الأشم

والاعتزاز بالصفات الكريمة والقيم الأخلاقية شيمة عربية تحلى بها المثقّب وحرص على  
أن يذيعها في شعره فهو يرعى حقوق الجيران، ويكرمهم، لا يغتاب أحداً، ولا يلغ في أعراض  
الناس، يصفح عن المسيئين ويتسامح مع الجاهلين، لا يؤذي مشاعر الناس ولا ينالهم بسوء  
في أندية القبيلة ومجالسها، أما المال فينفقه صيانة للعرض ودفاعاً عن الشرف:

أكرم الجار وأرعى حقه  
إن عرفان الفتى الحق كرم  
وكلام سيئ قد وقرت عنه أذناي  
ومصابي من صمم  
ولبعض الصفح والإعراض عن  
ذي الخنا أبقي وإن كان شتم

والمثقب جواد كريم، يكرم الأضياف شتاء، فهو يطلب أن توقد ناره وترتفع منارة  
عالية تنادي الأضياف ليلاً، وقد طرق بابَه ضيف ذات ليلة فلقيه بالترحاب وقام إلى نياقه  
السمن ينحر واحدة منها طعاماً لضيّفه:

وقلت أرفعها بالصعيد كفى بها  
مُنَادٍ لَسارٍ ليلَةً إن تأوَّبَا

أما اعتزاز المثقب بقبيلته فلا حد له، دافع عن أمجادها، وفخر ببطولاتها وشفع في  
أسراها وأجهد نفسه في تسوية شؤونها، وأذى فؤاده في سفارتها، وكل هذا يهون  
مادامت القبيلة عزيزة الجانب عالية المكانة.

فالعبيدون لا يقيمون على ضيم، وهم يدافعون عن أنفسهم ويصدون الاعتداء عليهم،  
يحمون المنازل، ويحافظون على الحمى، وكثيراً ما حاربوا القبائل الأخرى ثم عادوا  
منتصرين، يحملون الغنائم ويسوقون الأسرى، وهم قوم كريمة أفعالهم، حميدة صفاتهم،  
مصونة أعراضهم، يكرمون الأضياف ويذبون عن المحارم:

ونحمي عن الثغر المخوف ويتقي  
بغارتنا كيد العدى وضيومها  
صبرنا لها حتى تفرج بأسنا  
وفئنا لنا أسلابها وعظيمها  
نعد لأيام الحفاظ مكارماً  
فعالاً وأعراضاً صحيحاً أديمها

والأمر في هذا الفخر أنه جاء قليلاً، وقد يعود السبب «غير ضياع الشعر» إلى أن  
المتقّب كان رجلاً واقعياً لا يكثر من ذكر أمجاد قومه، وإذاعة أخبارهم، فعبد القيس معروفة  
المكانة على أرض البحرين.

أما الفخر بنفسه فإنه لم يكن أيضاً يسعى لإبراز ذاته، وإظهار مكانته أليس هو زعيم  
القبيلة وشاعرها، و«وزيرها المتجول» فهو فيها في أعلى مراكز الرفعة والسيادة، غير  
محتاج إلى إعلان أو دعاية، إنه المتقّب العبدى وكفى.

---

(١) ديوان المتقّب العبدى ١٣٦.

(٢) ديوان المتقّب العبدى ٢٢٧.

## الدراسة الفنية

### اللغة والأسلوب:

أشرنا في الدراسة الفنية السالفة إلى أن شعر العبيدين جاء في ألفاظ سهلة ومعان واضحة وكذلك كان شعر المثقب سهل الألفاظ، عذب العبارات، واضح المعاني، تنساب كلماته صافية رقراقة في شعر الغزل والظعن والحكمة، فليس أعذب من عبارات نونيته التي أعجب الباحثون برقة ألفاظها ووضوح معانيها وقرب تناولها وهو يقول في مقدمتها: <sup>(١)</sup>

أفاطم قبل بينك متعيني

ومنحك ما سألت كأن تبيني

وليس أسهل من هذا الشعر ولا أوضح من معانيه وهو يتحدث عن الوفاء وحفظ العهد في ميميته الشهيرة إذ لا نجد فيها غرابة الألفاظ ولا جفاف الكلمات أو غموض العبارات <sup>(٢)</sup>:

لا تقولن إذا ما لم ترد

(١) ديوان المثقب العبيدي ١٧١، تامك: سنام، قرد: ملبد، سوادي: الغث والنوى، الرضيخ: النوى المدقوق يخلط مع الحنطة طعاماً للإبل، اللجين: ما يلجن به العلف.

(٢) ديوان المثقب العبيدي ٢٣، التجاليد: الجسم، الاقتاد: الرحل، ناو: مرتفع، الفدن: القصر.

(٣) ديوان المثقب العبيدي ٩٩، نهنت: كفكت، المناسم: أطراف الأخفاف، المعزاء: الأرض الغليظة والحصى فيها، شتى: ليست مستوية، عنود: المخالف في سيره.

(٤) ندس الصمدر ١١٣، قشارى: جمع قشر وقشارى الحديد ما تقشر وتطير منه عند المقارعه ووقع السلاح بعضه علي بعض، والأقواع: المكان الذي ليس فيه حجارة ولا حصى وهي البيادر، وانظر الدراسة الموضوعية.

أن تتم الوعد في شيء «نعم»  
فإذا قلت: «نعم» فاصبر لها  
بنجاح الوعد، إن الخلف ذم

لكن المثقب يتجاوز السهولة والعذوبة إلى شيء من الخشونة والغموض في شعر  
الناقة فنجد عسراً ومشقة في الألفاظ بدون الاستعانة بالمعاجم اللغوية فعندما تحدث عن  
طعام ناقته يستخدم عبارات ليست مكشوفة المعاني فيقول<sup>(١)</sup>:

كسأها تامكاً قرداً عليها  
سوادي الرضيخ مع اللجين  
وعندما يصف سنامها المرتفع وجسمها الضخم يقول في كلمات شاقة<sup>(٢)</sup>:  
ينبي تجاليدي واقتادها  
ناو كراس الفدن المؤيد

وإذا تناول طريق سيرها واصطدام الحصى بأخفافها قال في عبارة غليظة<sup>(٣)</sup>:  
فنهنت منها والمناسم ترتمي  
بمعزاء شتى لا يرد عنودها

والمثقب أكثر شعراء القبيلة استخداماً للمفردات الأعجمية وللكلمات البيئة البحرانية  
وأكثر من هذا فإن بعض كلماته لم ترد في معاجم اللغة، فالقشارى جمع لم تذكره المعاجم،

---

(١) المفضليات ٢٩٤، ضبطها الأستاذان أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون بفتح الطاء وضمها لطم  
يكون جمعاً ومفرده لطيم بمعنى ملطوم.

(٢) ديوان المثقب العبدى ٢٢٣ .

(٣) نفس المصدر ١٤٩ .

(٤) نفس المصدر ١٦٤ .

(٥) ديوان المثقب العبدى ١٩٥ .

(٦) البكري: سمط اللؤلئى ١١٣/١ .

(٧) الدكتور طه حسين: حديث الأربعاء ١٦٥ .

والأقواع لغة عبدي لبيادر التمر ومسطح الحبوب<sup>(٤)</sup>:

وطار قشارى الحديد كأنه

نخالة أقواع يطير حصيدها

ولطم، «بضم اللام وفتح الطاء» بمعنى سفه وقال الأنباري «غير لطم» أي لا يتلاطم  
في مجلسه وفي «المفضليات»<sup>(١)</sup> أن هذا الجمع ليس في المعاجم<sup>(٢)</sup>:

باكر الجفنة، ربعي الندى

حسن مجلسه، غير لطم

وغير الألفاظ الفارسية التي تناولناها في الدراسة الفنية «البخت» فهي لفظة فارسية  
استخدمها المثقب عندما وصف طعائن فاطمة<sup>(٣)</sup>:

يشبهن السفين وهن بخت

عراضات الأباهر والشؤون

ويستخدم المثقب المرادفات فالقرن بمعنى النفس والدين بمعنى العادة فإذا تحدث  
عن قطيعته لصاحبه اعتمد القرون فقال<sup>(٤)</sup>:

لعلك إن صرمت الحبل مني

أكون كذاك مصحبتى قروني

وإذا أرحل ناقته وشد حزامها وهي تشكو إليه كثرة الرحيل استعمل لفظة دين  
بمعنى عادة فقال<sup>(٥)</sup>:

تقول إذا درأت لها وضيئي

أهذا دينه أبداً وديني

(١) ابن الأنباري: الأضداد ص ٨ .

(٢) ديوان المثقب العبدى ١٨٥ .

(٣) نفس المصدر ١٢١ .

(٤) ابن الأنباري: الأضداد ص ١٠ .

(٥) ديوان المثقب العبدى ١٢، المسند: الدهر.

والمتقّب في هذا البيت يبتدع في المعنى وينتقل من الوصف إلى المناجاة<sup>(٦)</sup>، وقيل عن هذه المناجاة بأنها أجمل ما قيل في الشعر العربي<sup>(٧)</sup>.

ويستعمل المتقّب الأضداد بكثرة في شعره فالهاجد للنائم واليقظ، والسدف للظلام والنور أو للنهار والليل، والجلل للعظيم واليسير، والسليم للملدوغ والسالم وغير ذلك من الكلمات، وكل لفظة منها إنما كانت في الأصل لمعنى واحد ثم تداخل المعنيان عن جهة الاتساع فأصبحت من الأضداد فالسدف أصلها الستر فكأن النهار إذا أقبل ستر ضوءه ظلمة الليل وكذلك الليل إذا أقبل سترت ظلمته ضوء النهار فأصبحت السدفة للظلمة والضوء<sup>(٨)</sup>.

والمتقّب يستعمل لفظة السدف عندما تنام الناقة فيقول<sup>(٩)</sup>:

وألقيت الزمام لها فنامت

لعادتها من السدف المبين

كذلك يصف النوق السمان فيأتي بلفظة الهاجد من الأضداد ويقول<sup>(١٠)</sup>:

وقمت إلى البرك الهواجد فاتقت

بكوماء لم يذهب بها النى مذهباً

وظاهرة الأضداد عند المتقّب تدل على قدرته الشعرية وتكشف عن ثروته اللغوية فلا تضيق أمامه السبل ولا تمتنع عليه الضروب وإنما يستخدم المفردات استخداماً واسعاً في الفنون الشعرية، وقال قطرب في هذا المجال<sup>(١١)</sup> «إنما أوقعت العرب اللفظين على المعنى الواحد ليدلوا على اتساع في كلامهم وإن الكلام واسع عندهم وإن مذهبهم لا يضيق عليهم».

والمتقّب يبتدع في الألفاظ فيثني كلمة بدرة على استخدام المذكر فيقول «بدرين» بدلاً من «بدرتين» وهذا واضح في البيت التالي من داليته<sup>(١٢)</sup>:

(١) انظر: شعر الغزل عند المتقّب.

(٢) ديوان المتقّب العبدى ٢٥٣.

## ألا ببـدري ذهب خالص كل صباح آخر المسند

والمسألة عند المثقّب أنه يستخدم ألفاظ بيئته ولغة عصره ويستعين بمفردات حضارية دون إسفاف أو ضعف بلا سقوط أو ابتذال، وهو في سهولة غزله وخشونة أوصافه متين التراكيب، واضح العبارة، وشعره كما يقولون شريف بنفسه وشريف بصاحبه.

### المقدمات والتصريح:

ينفرد المثقّب العبدى بين سائر الشعراء العبديين بالقصائد الطوال فهو أطولهم قصيدة إذ بلغت نونيته الشهيرة سبعة وأربعين بيتاً بينما وصلت داليتة إلى خمسة وثلاثين، وكانت بقية قصائده ما عدا اثنتين تزيد عن عشرين بيتاً وهو أمر له قيمته بالمقارنة مع شعراء قبيلته الذين أشرنا إلى أن أكثر شعرهم جاء في مقطوعات ويعتني بالمقدمات الغزلية والطللية عناية فائقة ويهتم بها اهتماماً شديداً فقد جاءت المقدمة الغزلية في خمس قصائد والمقدمة الطللية في قصيدة واحدة من بين القصائد السبع المتبقية في ديوانه.

وقد عالجتنا في شعر الغزل وفرة المقدمات الغزلية وعرفنا أن تلك المقدمات ترتبط بموضوعات القصائد ارتباطاً وثيقاً وأن الوحدة النفسية تنسحب عليها جميعها<sup>(١)</sup> وفي القصيدة التي جاءت فيها المقدمة الطللية نجد أيضاً توافقاً بين المقدمة والموضوع فالمثقب تؤله أحداث قومه وتحزنه المصائب التي حاقت بهم فقد أصيبت الأموال وساءت الأمور وتبدلت المنازل والديار ورحل القوم عنها ولهذا أشار المثقب قائلاً<sup>(٢)</sup>:

فإن تك أموال أصيبت وحولت

ديار فقد كنا بدار نقيمها

وهكذا الحال في ديار صاحبتة فقد رحل عنها أهلها فأقفرت وأجدبت وتغيرت

(١) ديوان المثقّب العبدى ٢٣٤، المجلد: المتغير، رسوم: آثار، زهاب الغواصي: مطر السحاب.

(٢) ديوان المثقّب العبدى ٢١٦، ٥٧، ٨٢.

معالمها واختلتف أوصافها، ووقف الشاعر فيها فثارت ذكرياته القديمة وحن إلي  
سالف عهده ووده فيها، فدعا لها شأن بقية شعراء الجاهلية بوابل من الأمطار وبغيث  
من الديم وقال:<sup>(١)</sup>

ألا حياء الدار المجبل رسومها  
تهيج علينا ما يهيج قديمها

والمتقّب كذلك يحرص كل الحرص على المطالع المصرة فكل قصائده جاءت مصرعة  
إلا واحدة، والأمثلة كثيرة<sup>(٢)</sup>:

زاد عني النوم هم بعدهم  
ومن الهمّ عناء وسقم



هل لهذا القلب سمع أو بصر  
أوتناه عن حبيب يذكر



ألا إن هنداً أمس رث جديدها  
وضنت وما كان المتاع يؤودها

ومن كل ما ذكرنا يتضح لنا أن المتقّب اعتنى بالمقدمات الغزلية والطللية وحرص على  
التصرّيع حرصاً كبيراً واهتم بالقصيدة من حيث «الكم» فهي طويلة عنده، ومن هنا يمكننا  
أن نؤكد بأن المتقّب كان يختلف من الناحية الأدائية عن شعراء العبديين.

وقد تكون ثمة أسباب لهذه المغايرة وذلك الاختلاف فهو من ناحية الأداء يلتقي مع  
الشعراء الجاهلين أكثر ما يكون، وكأنه لا يريد أن يتأخر عنهم في هذا التقليد الذي

---

(١) ديوان المتقّب العبدى ١٨٨، ١٩٠، الكور: الرجل، الانساع: جبل الرجل، قرواء: سفينة طويلة، دهنين:  
مدهونة، جوجؤ: صدر، الغوارب: الأمواج، الحذب: ارتفاع الموج.

أرسوا دعائمه ووفروا له كل ظروف الحفظ والصون في المقدمات والمطالع والطول وقد يكون لمهمة السلام التي انتدب لها أثر في حجم القصيدة عنده فإن الإطالة تتفق وتلك المهمة، كل هذا قد يكون بيد أنا وجدنا شعره قد جاء مغايراً عن شعراء قبيلته في حجم القصيدة ومقدمتها وتصريحها.

### الصور البيانية:

تزحم أشعار المثقب صور حسية يعرضها علينا في لمحات خاطفة وقصيرة، لكنها لا تفتقر دقائيق الأشياء للهوارج ومن فيها من الحسان، وللتوق تهبط في الوديان وتعلو مع الحزوم فتبدو سفناً عظيمة.

وأكثر الصور وفرة في شعره التشبيه بنوعيه: الصريح والتمثيلي وتتمثل روافده في البيئة البحرانية وعالم الحيوان والطير، والسماء بنجومها وكواكبها.

ومن الغريب أن تختفي تماماً صور الحرب والقتال والأسلحة من أشعاره فلم يشبه بسيف أو برمح أو بسهم، ولعل هذا يعكس لنا مدى كراهيته للحروب والخصومات ومبلغ حبه للهدوء والسلام.

والمثقب أكثر شعراء العبيدين تأثراً بالبيئة البحرية وأوسعهم استخداماً لها في تشبيهاته، فالناقة عنده سفينة سباحة وهو ملاح ماهر ودموعه لؤلؤ ثمين.

فهو يرحل على ناقة ضخمة تمضي به وسط بحر من الرمال وكأنها سفينة طويلة مدهونة تمخر عباب الماء وتشق أمواج البحر المتلاطم<sup>(١)</sup>:

(١) ديوان المثقب العبيدي ٢٤٧، الاقتاد: عيدان الرحل، حمشة الشوى: اليدان والرجلان، يجور: يميل.

(٢) ديوان المثقب العبيدي ٦٤ .

(٣) ديوان المثقب العبيدي ١١٢، الحملاج: الذي ينفخ به الصائغ.

(٤) نفس المصدر ١٦٥ .

(٥) نفس المصدر ٣١، اللاحب: الطريق، منفهق: واسع.

كأن الكور والأنساع منها  
على قرواء ماهرة دهن  
يشق الماء جؤجؤها وتعلو  
غوارب كل ذي حذب بطين

ويمضي المثقب فوق ناقتة وهي تتمايل به فوق الرمال وكأنا هو ملاح تتقاذف  
الأمواج سفينته على صفحة الماء<sup>(١)</sup>:

كأني وأقتادي على حمشة الشوى  
يجور صراري بها ويقيمها

أما دموعه وقد سالت على خديه وتساقطت متتابعة إثر بعضها كانت حبات لؤلؤ  
انفرط عقدها<sup>(٢)</sup>:

مرمعات كسمطي لؤلؤ  
خذلت أخراته فيه مفر

ومن مظاهر الحياة الاقتصادية يستخدم المثقب في تشبيهاته الحملاج والمطرقة  
والثوب والقوع، فهو عندما يصف الخيل وقد نضحت عرقاً يستخدم الحملاج فيقول<sup>(٣)</sup>

تنبع من أعطافها وجلودها  
حميم وأضت كالحماليج قودها

وإذا وصف الناقة بالقوة والصلابة استعان بمطرقة الحداد فقال<sup>(٤)</sup>:

فسلّ الهم عنك بذات لوث  
عذافرة كمطرقة القيون

(١) نفس المصدر ١٥٤ .

(٢) نفس المصدر ١٧٤، الثفنات: ما مس الأرض من أعضاء البعير، واليدين والكركرة وهي خمس.

(٣) ديوان المثقب العبدى ٩٨ .

(٤) ديوان المثقب العبدى: ١٨٢ .

وعندما يصف الطريق الواضح وقد هبت عليه الرياح وخططته الرمال يستعمل الثوب  
المخطط ويقول<sup>(٥)</sup>:

في لاحب تعزف جناته  
منفهب القفرة كالبرجد

وفي وصفه للمغتتاب الذي يلغ في أعراض الناس يستخدم صورة الأسد الجائع من  
عالم الحيوان فيقول<sup>(١)</sup>:

لا تراني راتعاً في مجلس  
في لحوم الناس كالسبع الضرم

ومن عالم الطير يستخدم القطا أكثر ما يكون فمعرس الناقة عنده معرس  
القطا ليلاً<sup>(٢)</sup>:

كأن مواقع الثفنات منها  
معرس باكرات الورد جون

والمتقرب يرسم صورة طريفة للناقة وحالها مع الهر الذي علق بمقعد خزامها وراح  
ينهبها ويحثها على السرعة فهي تجد في سيرها وتمضي بأقصى سرعتها ناجية منه  
وكأنها هي طائر القطا التي اشتد عطشها فهي لا تألوا طيراناً لتروي ظمأها<sup>(٣)</sup>.

كأن جنياً عند معقد غرزها  
تراوده عن نفسه ويريدها  
تهالك منه في النجاء متهاكاً  
تقاذف إحدى الجون حان ورودها

وذباب أنياب الإبل إذا صرفت تغريد حمام في أعشاشها وقال الأصمعي يجوز أن  
تكون في خصب فتسمع صوت الذباب في المرعى وكأنه غناء الحمام في الوكون<sup>(٤)</sup>:  
وتسمع للذباب إذا تغنى

---

(١) ديوان المتقرب العبدى: ١٠٣ .

## كتغريد الحمام على الوكون

وتسترعي مخيلة المثقب نجوم السماء وأهمها عنده نجم السعود فهو حين يمدح  
النعمان بن المنذر وقد فاق سائر الملوك بسداد رأيه وكرم نسبه تحضره صورة نجم  
السعود فيقول: <sup>(١)</sup>

وجدتُ زناد الصالحين تمينه

قديماً كما بدأ النجوم سُعودها

وهكذا ترى أن المثقب يستخدم صوراً حسية واضحة، يسوقها في تشبيهات خاطفة  
وليست معقدة مستخدماً الطبيعة متحركة وساكنة في وضوح وصدق وفي واقعية واتزان.

ولا يخلو شعر المثقب من الاستعارات الجميلة فناقته تتأوه وتشكو والمنايا يتحاسن  
الزول، والنعمان يقود الجبال والهموم تزور ليلاً، وغيرها من الاستعارات الأخرى ونجد  
عنده الكنايات، فمستكن الجوف كناية عن الدم جاء في قوله <sup>(٢)</sup>:

فرحبت أعلى الجنب منها بطعنة

دعت مستكن الجوف حتى تصيبا

ويستخدم المثقب من الأصباغ البديعية الطباق استخداماً مفرطاً وترد المقابلة عنده  
يكثرة وشمول، فالطباق عنده يعكس المفارقات والحالات النفسية التي تهيم عليه وكأنما  
هو حريص كل الحرص على أن يتبين الأمور ويستوضح المواقف بين حالتين من سلم  
وحرب وود وصد وهكذا... فنراه يطابق بين أرين وكنن، وظهرن وسدln، وعلون وهبطن،  
وباطل وجد، وخير وشر، وغث وسمين، ومن يجد يحمد ومن يبخل يذم، ونعم ولا والأمثلة  
على ذلك في الأبيات التالية:

ظهرن بكللة وسدln رقماً

وثقبن الوصاوص للعيون



علون رباوة وهبطن غيباً  
فلم يرجعن قائلة لحين



فأبقى باطلاي والجد منها  
كدكان الدرابنة المطين



الأخيرُ الذي أنا أبتغيه  
أم الشرُ الذي هو يبتغيني



فإما أن تكون أخي بحق  
فأعرف منك غثى من سميني  
وإلا فاطرحني واتخذني  
عدواً أتقيك وتتقيني



فأجابت بصواب قولها  
من يجد يحمد ومن يبخل يذم



حسن قول «نعم» من بعد «لا»  
وقبيح قول «لا» بعد «نعم»

(١) إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر ٩٥ وفي المرشد إلى فهم أشعار العرب ٣٦٢ .

(٢) علي الجندي: الشعراء وإنشاء الشعر ١٠٠ .

(٣) ديوان المثقب العبدى ١٠٢ .

(٤) ديوان المثقب العبدى ٢٥٧ .

(٥) علي الجندي: الشعراء وإنشاء الشعر ١٠٦، وفي موسيقى الشعر ٧٦ .

(٦) محمد النويهى: تاريخ الشعر الجاهلي ٦١/١ .

(٧) ديوان المثقب العبدى ١٦٠ .

## بحور الشعر:

جاءت القصائد السبع التي بقيت لنا من شعر المثقب في أربعة بحور هي: الطويل، والوافر، والسريع، والرمل.

وكانت ثلاث قصائد من البحر الطويل وقصيدتان من الرمل وواحدة من الوافر وأخرى من السريع وكانت قصائد الطويل من حيث عدد الأبيات ثلث المادة تقريباً، والقصيدة التي من الوافر أقل من الثلث بقليل والقصائد المتبقية من السريع والرمل دون النصف.

وهذا الإحصاء نلاحظ فيه أن البحر الطويل هو الذي يغلب على البحور الأخرى عند المثقب وأنه كما عرفنا أكثر البحور الشعرية استعمالاً عند العبيدين والجاهليين، وقد استغرق هذا البحر جميع أغراض الشعر ما عدا الظعن، وقد أشرنا إلى صفات هذا البحر فهو يستخدم في المهمات الجليلة والعظيمة وهو بحر شعراء النفس الطويل<sup>(١)</sup> يسبح فيه كل ذي صدر قوي ونفس مديد وحجارة ضخمة<sup>(٢)</sup>.

ومهمة السلام واحدة من المهمات العظيمة التي اختار لها موسيقى البحر الطويل عندما مدح النعمان بن المنذر قائلاً: <sup>(٣)</sup>

فإن أبا قابوس عندي بلاؤه

جزاء بنعمى لا يحل كنودها

والصلح بين القبائل المتنازعة مهمة جليلة اختار المثقب فيها موسيقى البحر الطويل عندما تحدث عن الإصلاح الذي قام به جده بين قبيلتي بكر وتغلب<sup>(٤)</sup>:

أبي أصلح الحبيبين بكراً وتغلباً

(١) علي الجندي: الشعراء وإنشاد الشعر ١٠٦ وفي موسيقى الشعر ٨٢ .

(٢) ديوان المثقب العبيدي ٢٢١، ٢٣٠ .

(٣) علي الجندي: الشعراء وإنشاد الشعر ١٠٧ .

(٤) ديوان المثقب العبيدي ٢٢ .

(٥) إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر ٢٤٦، في المرشد إلى فهم أشعار العرب ٦/١ .

### وقد أرعشت بكر وخف حلومها

والبحر الوافر أتى عند المثقب في جميع الأغراض الشعرية ما عدا الفخر وأكثر ما جاء في الظعن والغزل ومن صفات هذا البحر الرشاقة والخفة وأنه يصلح للأداء العاطفي، فيه عذوبة وسهولة، سريع النغمات، متتابع النبرات<sup>(٥)</sup>.

ويقول النويهي «إن هذا البحر يمتاز برنة موسيقية عذبة»<sup>(٦)</sup> وقد تكون هذه الأوصاف هي التي جعلت الأذن تستريح في استقبال قصيدة المثقب النونية المشهورة التي جاءت في موسيقى البحر الوافر في خفة ورشاقة<sup>(٧)</sup>:

### وهن على الظلام مطليات

### طويلات الذوائب والقرون

واستخدم البحر الرمل في جميع الأغراض ما عدا وصف الناقة، وقد جاء أكثر ما يكون في الحكم والفخر ومن صفات هذا البحر الرقة والسهولة، تستريح له الأذن وتستمتع بموسيقاه<sup>(٨)</sup> إذ عندما أراد المثقب أن يسوق حكماً سهلة استخدم موسيقى بحر الرمل فقال<sup>(٩)</sup>:

### إن شر الناس من يكشّر لي

### حين يلقاني، وإن غبت شتم

أما البحر السريع فهو بحر الناقة فالقصيدة الدالية جاءت في موسيقى هذا البحر كلها تصف الناقة وهو كما يقولون بحر يمتاز بخفة الحركة وسرعة التدفق وفيه سلاسة

(١) عبدالله الطيب: المرشد إلى فهم أشعار العرب ٤٦/١ .

(٢) ديوان المثقب العبدى: ١٤٢، ١٦١، ١٦٣ .

(٣) ديوان المثقب العبدى ١٦٣، ١٥٦، ١٥٨ .

وعذوبة<sup>(٣)</sup> ونجد المثقب يستخدمه في وصف ناقته قائلاً:<sup>(٤)</sup>

تعطيك مشياً حسناً مرة

حثك بالمروء والمحصد

أما القوافي في شعر المثقب فقد تكررت في أواخرها حروف الدال والنون والميم والراء والباء وهذه الحروف كما أشرنا من حروف القوافي الذلولة ومن الدرجة الأولى<sup>(٥)</sup> عند الشعراء وهي نفس حروف القوافي عند العبيدين وغيرهم ولم يستخدم المثقب حرف القاف في قوافيه.

ولم يخل شعر المثقب من تكرار في القوافي وهو ما يعرف عند العروضين بالإيطاء ويقول بعض الدارسين: إنه مستقبح، ومع ذلك فقد أبيع للشعراء استخدامه بعد البيت السابع في القصيدة الواحدة<sup>(٦)</sup> وجاء الإيطاء عند المثقب عندما كرر كلمة «حين» ثلاث مرات ليست متباعدة في نفس القصيدة<sup>(٧)</sup>:

لمن ظعن تطالع من ضبيب

فما خرجت من الوادي لحين



علون رباوة وهبطن غيباً

فلم يرجعن قائلة لحين

وما عدا الإيطاء والإقواء الذي أشرنا إليه في دراستنا الفنية نجد شعر المثقب قوياً

(١) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٣٩٥/١ وخزانة الأدب ٤٣١/٤ .

(٢) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ٢٧٢ .

(٣) ابن دريد: جمهرة اللغة ٢٣٩/١ .

(٤) ديوان المثقب العبدى ٤٧، الرشاء الحبل، الخلب: الليف، الأجرد: الأملس.

(٥) ابن قتيبة: المعاني الكبير ٧٥٣ .

(٦) ديوان المثقب العبدى: ٤١، النبأ: الصوت، الناشد: الطالب.

قوة نفسه وخفيفاً خفة روحه فيمتاز بموسيقى فخمة في المدح والفخر وبموسيقى ناعمة رشيقة في الظعن والغزل وسهلة خفيفة في الحكم.

وانفرد شعر المثقب من بين سائر شعر العبيدين بالموسيقى الداخلية فقد وفر في نونيته مناخاً موسيقياً داخلياً جميلاً ونغماتاً ناعماً رقيقاً تمثل في تلك النغمات الداخلية وفي حركات الظعن صعوداً مع الحزماء وهبوطاً في الوديان وظهوراً في الكلل واختفاء وراء الأستار وتثقيباً للوصاوص وإظهاراً للمحاسن والمفاتن وستراً للبشر المصون<sup>(٣)</sup>:

أرين محاسناً، وكنن أخرى  
من الديباج والبشر المصون

#### عند القدامى والمحدثين:

حظي المثقب بشهرة واسعة، ومكانة مرموقة، وظفرت أشعاره بحظ وافر من الرواية والاستشهاد بها، فترددت أبيات قصيدته النونية في قرابة أربعين مرجعاً وحسبه تقديراً أن أبا عمرو بن العلاء كان يستجدها ويقول «لو كان الشعر مثلاً لوجب على الناس أن يتعلموه»<sup>(١)</sup>.

وابن سلام<sup>(٢)</sup> يعتبره أول شعراء البحرين وشعره من الجيد الفصيح، وقد أنتخب بعض قصائده ليدلل على جودة شعره وفصاحته.

وابن دريد<sup>(٣)</sup> يقول عن بيته السابع والعشرين من قصيدته الدالية «بأنه لم يوصف

(١) العمري: مسالك الأبصار ٧٣/٩ .

(٢) ديوان المثقب العبدى: ١٥٦ .

(٣) ديوان الطرماح: ٥٢٩ .

(٤) ديوان المثقب العبدى: ١٨٠ .

(٥) ديوان الطرماح: ٥٣٣ .

(٦) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٣٩٦/١ .

الغبار بأحسن من هذا» وفيه يصف الشاعر ثوراً طردته الكلاب<sup>(٤)</sup>:

يَتَبَعُهُ فِي إِثْرِهِ وَاصِل

مِثْلَ رِشَاءِ الْخُلْبِ الْأَجْرَدِ

ويقول ابن قتيبة<sup>(٥)</sup> «قال الأصمعي سمعت أبا عمرو بن العلاء يستحسن هذا البيت للمثقب»<sup>(٦)</sup>:

يَصِيخُ لِلنَّبَاةِ أَسْمَاعَهُ

إِصَاخَةَ النَّاشِدِ لِلْمَنْشَدِ

ويقول ابن فضل الله العمري في شعره<sup>(١)</sup> «غرد بقصائده كل مغرد وأنشدت في كل مورد»، وأعجب الشعراء القدامى بشعر المثقب وتأثروا به وصاغوا على منواله قصائدهم فالطرماح بن حكيم أخذ من قصيدة المثقب البيت التالي:<sup>(٢)</sup>

ظَهَرْنَ بِكَلَّةٍ وَسَدَلْنَ رَقْمًا

وَتَقَبْنَ الْوَصَاوِصَ لِلْعَيُونِ

فصاغ على منواله وقال:<sup>(٣)</sup>

تَقَبْنَ وَصَاوِصًا حَذَرَ الْعِذَارَى

إِلَى مِنَ الْهُوَادِجِ لِلْعَيُونِ

نَطَقْنَ بِحَاجَةِ وَطْوِينَ أُخْرَى

كَطَيِّ كَرَائِمِ الْبِزْ الْمَصُونِ

وأخذ الطرماح أيضاً من شعر المثقب البيت التالي جميعه:<sup>(٤)</sup>

تَسْدُ بِدَائِمِ الْخَطِرَانِ جِثْلَ

خَوَايِةَ فَرَجِ مَقْلَاتِ دَهْنِ

(١) ديوان عمر بن أبي ربيعة ٣٣٨ .

(٢) ديوان ابن مقبل ٣١٠ .

(٣) ديوان ذي الرمة ٢١٣ .

(٤) ديوان الطرماح ٤٩١ .

وقال في ذنب ناقتة: (٥)

تسد بمضرجي اللون جثث  
خوايبة فرج مقلات دهن

وقال ابن قتيبة: (٦)، ومما سبق إليه المثقب وأخذ منه قوله في الناقة:

كأن مواقع الثفنات منها  
معرس باكرات الورد جون

فأخذه عمر بن أبي ربيعة وقال: (١)

على قلوطين من ركابهم  
وعنريسين فيهما شجع  
كأنما غادرت كلاكلها  
والثفنات الخفاف إذ وقعوا  
موقع عشرين من قطا زمر  
وقعت خمسا خمسا معاً شيع

وأخذه ابن مقبل فقال: (٢)

كأن موقع وصلية إذا بركت  
وقد تطابق منها الزور بالثفن  
مبيت خمس من الكدرى في جدد  
يفحصن عنهن باللبات والجرن

(١) ديوان المثقب العبدى: ١٣٩ .

(٢) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ١٦٠/١ وقال: «إن المثقب تأثر بالناطقة» والصحيح كما ذكر الأستاذ أحمد شاكر أن المثقب أقدم من الناطقة.

(٣) ديوان المثقب العبدى: ١٢١ .

(٤) المفضليات ٣٦١، المقاحيد: الإبل العظام، المجادل: القصور.

(٥) طه حسين: حديث الأربعاء ١٦٤ .

وأخذه ذو الرمة فقال: (٣)

كأن مخواها على ثفناتها  
مُعرس خمس من قطاً متجاور  
وقعن اثنتين واثنتين وفردة  
حريداً هي الوسطى بصحراء حائر

وأخذه الطرماح وقال: (٤)

كأن مخواها على ثفناتها  
مُعرس خمس وقعت للجناح  
وقعن اثنتين واثنتين وفردة  
يبادرن تغليساً سمال المداهن

وأخذ النابغة الذبياني بيت المثقب الذي يقول فيه: (١)

فإنني لو تخالفني شمالي  
خلافك ما وصلت بها يميني

وقال النابغة: (٢)

فلو كفي اليمين بغتك خوفاً  
لأفردت اليمين من الشمال

وأخذ عمرو بن الأهتم بيت المثقب الذي يقول فيه: (٣)

وقمت إلى البرك الهواجد فاتقت  
بكوماء لم يذهب بها الني مذهباً

---

(١) القناوي: الوصف في الشعر العربي ٣١٨ .

(٢) ديوان المثقب العبدى ١٥٠، ١٥٦ .

(٣) شكري فيصل: تطور الغزل ١٠١، ١٤١ .

(٤) عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي ٤٠٢، ٤١٢ .

(٥) الزركلي: الأعلام ٥/٣ .

(٦) حسين عطوان: مقدمة القصيدة العربية ١٨١ .

وقال عمرو: (٤)

وقمت إلى البرك الهواجد فاتقت

مقاحيد كوم كالمجادل روق

وأعجب المحدثون بشعر المثقب فأمضى طه حسين (٥) ساعة معه في حديث الأربعاء قال خلالها «إنني أرى أن هذا الشعر من أروع ما قاله الناس لا في العربية وحدها بل وفي غيرها من اللغات» وتحدث عن قصيدته النونية فقال: «تقرأ القصيدة فتروك معانيها وتروك ألفاظها وتعجبك جزالتها»، وقال في أسلوب المثقب بأنه متين رصين، شديد التأثير في النفوس وهو رقيق في وصف الإبل عند رحيلها.

ويدرس القناوي (١) قصيدته النونية ويقول في أسلوبه «أسلوب المثقب سلس سهل لاعيب فيه» ويستجيد فيها البيتين التاليين: (٢)

وهن على الرجائز واكنات

قواتل كل أشجع مستكين

ظهرن بكله وسدln أخرى

وثقبن الوصاوص للعيون

ويدرس شكري فيصل (٣) جانباً من غزله ويقول عنه «إنه شاعر فحل، يصدر عن إحساس عاطفي يسرله ثوب نفسي ملون، ويوفر لصوره طاقة خصبة، ويثير الانتباه عن طريق الأشياء الصغيرة».

ويدرس عمر فروخ (١) بعض شعره ويقول فيه «غريب الألفاظ، متين التراكيب وقصيدته (نعم، لا) بارعة فصيحة سهلة».

ويقول خير الدين الزركلي (٢) وهو يترجم له في اختصار شديد «شعر المثقب جيد فيه حكمة ورقة».

(١) الصيرفي: مقدمة الديوان ٢٢.

